تنزيه الأنبياء

عما نسب إليهم حثالة الأغبياء

تأليف

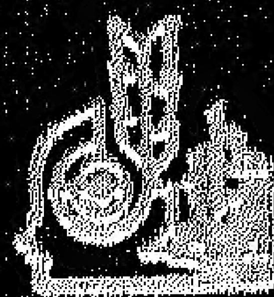
أبي الحسن علي بن أحمد السبتي الأموي - المعروف بابن خمير

تحقيق

الدكتور محمد رضوان الداية

أستاذ أدب الأندلس والمغرب في جامعة دمشق





دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

تنزيه الأنبياء

عما نسب إليهم حثالة الأغبياء

تأليف

أبي الحسن علي بن أحمد السبتي الأموي - المعروف بابن حمير

تحقيق

الدكتور محمد رضوان الداية

أستاذ أدب الأندلس والمغرب في جامعة دمشق

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية



[١]

يتميز هذا الكتاب بعنوانه، كما يتميّز بموضوعه الذي اجتهد مؤلفه في استيفائه وبلوغ المُرَاد منه؛ وكتبه بحماسةٍ، وصدق؛ ولكنْ من خلال مطالعة تاريخية وتوثيقيّة دقيقة، ومن وراء منهج علمي عقليّ واع.

ولم أَجد في المكتبة العربيّة المخطُوطة والمطبوعة، ولا فيما سجّله بروكلمان في تاريخه غير أربعة عناوين في هذا المقصد:

أحدها: كتاب الشريف المُرْتضى (أبي القاسم عليّ بن الحسين البغدادي المتوفى سنة ٤٣٦ هـ) واسمه: «تنزيه الأَنبياء»[١].

والثاني: هذا الكتاب الذي نقدّمه للقرّاء.

والثالث: كتاب السّيوطي «تنزيه الأنبياء عن تسفيه الأَغبياء».

والرابع: تنزيه المصطفى المختار عما لم يثبت من الأخبار والآثار لأَحمد الوفائي المتوفى ١٠٨٦[٢].

وكتاب الشريف المرتضى، وكتابنا هذا يتقاربان ويدوران في فلك واحد

(١) كتاب تنزيه الأنبياء للسيد الشريف المرتضى، طبع في المطبعة الحيدرية في النجف الأشرف

(٢) ذكره البغدادي في إيضاح المكنون ١: ٣٢٩؛ ولم يُذكر في كتبه الباقية.

عدا ما أضافه الشّريف في كتابه من حديث عن «الأئمّة»؛ وهو حديث خارجٌ عن موضوع الأنبياء وتنزيههم؛ فإذا فصلنا ذلك من كتابه؛ اقترب أحد الكتابين من الآخر اقتراباً كبيراً.

أما كتاب السّيوطي فيتعلّق بقضيّة من قضايا التنزيه؛ وهو رسالة صغيرة ألفّها نتيجة حادثة (كلام) وقعت بين اثنين، ورد في شغب أحدهما ذكر اتّخاذ الأنبياء عليهم السلام الرعّي عملاً أو مهنة. واختلفت الفتوى في ذلك الشغب (الكلام) الذي صدر. فتصدّى السّيوطي وألّف تلك الرسالة قال: «والسبب في تأليفه ـ يعني كتابه ـ أنه وقع أنّ رجلاً خاصم رجلاً فوقع بينهما سبٌّ كثير، فقذف أحدهما عرض الآخر، فنسبه الآخر إلى رَعْي المِعْزَى، فقال له ذاك: تنسبني إلى رعي المعزى؟ فقال له والِدُ القائل: الأنبياء رعوا المعزى، أو: ما من نبيّ إلا رعى المِعْزِى! وذلك بسوق الغزل بجوار الجامع الطولوني، بحضرة جمع كبير من العوام، فترافعوا إلى الحكّام، فبلغ قاضي القضاة المالكي فقال: لو رُفِعَ إليّ لضربتهُ بالسياط» قال السيوطي: «فسئلت: ماذا يلزم الذي ذكر الأنبياء مستدلاً بهم في هذا المقام؟

فأجبت بأن هذا المُستدِلّ يعزّر تعزير البالغ، لأن مقام الأنبياء أجلُّ من أن يُضرب مثلاً لآحاد الناس، ولم أكن عرفت من هو القائل ذلك؛ فبلغني ـ بعد ذلك ـ أنه الشيخ شمس الدين بن الحمصاني إمام الجامع الطولوني، وشيخ القرّاء، وهو رجل صالح في اعتقادي. فقلت: مثل هذا الرجل تُقَالُ عثرته، وتُغفر زلّته، ولا يعزّر لهفوةٍ صدرت منه، وقال: إنّ هذا القائل لا يُنسب إليه في ذلك عثرةٌ ولا ملام، وإن ذلك من المباح المُطلق: لا ذنب فيه ولا أثام، واستُفتي على ذلك من لم تبلغه واقعة الحال فخرّجوه على ما ذكره القاضي عياض في (مذاكرة العلم) لأجل ذكر لفظ الاستدلال في الجواب والسؤال».

قال السيوطي: «فخشيت أن تشرب قلوب العوام هذا الكلام فيكثروا من استعماله في المجادلات والخصام، ويتصرّفوا فيه بأنواع من عباراتهم الفاسدة،

فيؤدّيهم إلى أن يمرقوا من دين الإسلام فوضعت هذه الكراسة نصحاً للدين وإرشاداً للمسلمين. . . »[٣].

فوضع كتاب السيوطي ـ أو رسالته ـ كان لسبب مخصوص، وهي تدور حول مسألة بعينها؛ مما يجب فيه توقير الأنبياء وتنزيههم.

[٢]

وعنوان الكتاب الذي نقدّمه اليوم محقّقاً هو: (كتاب تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء؛ ومجموع نُكَت ما خُصّ به نبيّنا صلى الله عليه وسلم من الكرامات ليلة الإسراء عند لقاء الكليم وما كان بينهما من المراجعة والمحاورة في أمر الصّلاة).

وقد جعلت العنوانَ مختصراً منه، حتى تبقى له صفة العنوان؛ ولأنّ موضوع الكتاب الأصلي هو الكلام في تنزيه الأنبياء؛ أمّا سائر العنوان فيشير إلى فقرة (أو فصل قصير) أضَافَهُ المؤلف إلى كتابه زيادة في بيان ما خصّ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكرامات.

واعتمدت في نشر الكتاب على نسخة محفوظة في مكتبة الأسد الوطنية (كانت محفوظة في المكتبة العثمانية بحلب برقم ٦٤٣) تقع في ٦٦ ست وستين ورقة من القطع المتوسط، وفي آخر هذه النسخة:

«كمل بحمد الله ومَنّه وَحُسْنِ توفيقه؛ ووقع الفراغ من تحريره على يد الفقير الخاطىء المذنب الرّاجي عفو ربّه الكريم إسحاق بن محمود بن ملكونه (غير معجمة: ملكويه؟) بن أبي الفيّاض الشابرخواستي البرجردي. غفر الله له ولوالديه ولجميع أمّة محمد برحمته الواسعة؛ وذلك في الخامس عشر من صفر

(٣) تنزيه الأنبياء عن تسفيه الأغبياء، تأليف جلال الدّين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١ هـ) تحقيق الدكتور خالد عبد الكريم جمعة وعبد القادر أحمد عبد القادر ـ مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع ـ الكويت ـ ١٤٠٨ / ١٩٨٨ ص ١٥ ـ ١٦.

سنة ست وأربعين وست مئة بالقاهرة المحروسة المعزّية.

والأصل الذي انتسخ منه كان مقابلاً بأصل المؤلف ـ رحمة الله عليه ـ.

والحمد لله وحده، وصلواته على نبيّه محمد وآله وصحبه وعترته الطيبين الطاهرين».

وعلى غلاف الكتاب أسماء عدد من المؤلّفات والرّسائل التي ضمّها ذلك المجلد، وهي بالنّص:

« ـ وفيه طبقات الفقهاء للإمام العلامة أبي إسحاق الفيروز أبادي رحمه الله ـ وفيه مختصر من رسالة الاحتجاج للإمام الشافعي رضوان الله عليه تصنيف الحافظ العلاّمة أبي بكر بن ثابت الخطيب البغدادي رحمه الله ـ وفيه نصرة القولين للإمام الشافعي رضي الله عنه تصنيف أبي العباس بن القاص الطبري رحمه الله ـ وفيه القول في حقيقة القولين تصنيف الإمام حجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي رحمة الله عليه».

الراجي منه العفو والغفران إبراهيم بن الملاّ أحمد بن الملاّ محمّد الشهير بابن الملاّ العبّاسي الحلبيّ خادم الحديث النبوي وأهله» وبعده: «تحريراً في محرم الحرام ٩٩٧» ـ وسنعرّف بصاحب المخطوطة فهو من أهل العلم والفضل ـ.

وحلّى المؤلّف في صفحة الغلاف بهذه العبارة «تأليف الشيخ الإمام الفقيه المرحوم أبي الحسن علي بن أحمد السبتي الأموي، عُرِف بابن حُمَير».

[٣]

في جملة الأُصول التي اجتمع عليها جمهرة المسلمين، وكَما لخّص البغدادي في (الفرق: ٣٤٣): «أنهم قالوا بعصمة الأنبياء عن الذنوب؛ وتأوّلوا ما روي عنهم من زلاّتهم على أنها كانت قبل النبوة».

وفي الفرق الإسلامية من أجاز على الأنبياء الصّغائر من الذنوب وهم أكثر المعتزلة؛ على أنهم يُقرّون أنها من الصغائر التي «لا يستقرّ لها

استحقاق عذاب وإنما يكون حظه تنقيص الثواب». وروى الشريف المرتضى في تنزيه الأنبياء عن أبي علي الجُبّائي المعتزلي قوله إن [الذنب] الصغير يسقط عقابه بغير موازنة؛ قال: فكأنهم معترفون بأنه لا يقع منهم ما يستحقّون به الذمّ والعقاب.

وقالت الشيعة الإمامية: لا يجوز على الأنبياء شيء من المعاصي والذنوب كبيراً كان أو صغيراً لا قبل النبوة ولا بعدها؛ كما قرّر الشريف في التنزيه في مقدّمة كتابه (ص: ٣).

ونخرج من هذا ـ ومثله ممّا لا ضرورة إلى الاستفاضة فيه ـ إلى أنّ جمهرة المسلمين، في كل عصر، ينزّهون الأنبياء، ولا يجيزون عليهم إلاّ ما يليق بهم.

وقد دار كتاب الشريف المرتضى، كما دار كتاب مؤلفنا ابن حمير الأموي السبتي في هذا الإطار: أعني تنزيه الأنبياء عمّا لا يليق بهم؛ واجتهد ابن حمير في التّوسُّع في تقديم أخبار الأنبياء التي كانت مجالاً لأولئك الجاهلين أو ذوي النيّات السيئة، أو أولئك المؤرّخين الضِّعاف والقصّاصين الذين يعتمدون على الإثارة والإغراب دون أن يتّقوا الله تعالى في الكلام على أنبيائه المكرّمين.

[٤]

ذكر المؤلف في مقدمة كتابه السّبب الذي حدا به إلى تأليف هذا الكتاب، وبيّن أنه ألّفه بناءً على رغبة بعض الطلّبة (متابعي الدّراسات الشّرعيّة والنقلية عامّة) لاستدراك أوهام قد تقع في الأذهان من أخطاء وأوهام ودسائس تصدر عن فئات معيّنة: «من غُثاء الفرق المضلّين من أوباش المعطّلة الضالّين وأرذال اليهود والنّصارى، ومقلّدة المؤرّخين والقُصّاص المجازفين الجاهلين بحقيقة النبوّة»؛ وقصد المؤلف إلى إرشاد القارىء إلى معرفة حقيقة النبوّة، وبيان ما يجوز على الأنبياء وما يستحيل، وما يجب من توقيرهم، وتدقيق النّظر في استخراج مناقبهم، ومعرفة ما أوجب الله على الناس من التفقه في القرآن لتوحيد الله تعالى وتنزيهه، ووصف أنبيائه الذين اصطفى بالصّدق والعصمة والتنزيه عن

الخطأ والخطل، وما جاؤوا به من شعائر العبادات، وأخبروا به من المغيّبات، وما وعظوا به، والنظر في الفرق بين الحَلال والحَرَام والأمور المشتبهات. . .

ووقف المؤلّف عند قضايا يستغلّها الملاحدة وضِعَاف النفوس من القصّاصين والمؤرّخين (ونضيف اليوم إليهم بعض كتّاب القصّة والرواية والمسرحية الذين يسوؤهم تاريخ الأنبياء وصدق الرّسالات) إلى غير هؤلاء ممّن يصح التّحذير منهم والتّنبيه على آرائهم الفاسدة وعقائدهم. ونَبّه إلى الخطأ؛ أو الأخطاء التي يقع فيها المرء عن جهل أو عن نفاق حين يقصد إلى أقوال وأفعال للأنبياء قد يتخيلها مثالب في حقّهم، فإذا فعل فإنه يَهلك ويُهلك من حيث لا يشعر.

على أنّ في الأدباء المعاصرين مَنْ أجادَ الكتابة ـ مسرحيّةً وقصةً وشعراً ـ في هذا المجال، عن عِلْمٍ ونفاذٍ واستيعاب لحقيقة الحضارة العربية الإسلامية والتراث العريق مثل علي أحمد باكثير وعبد الحميد جودة السحّار ومصطفى صادق الرافعي وعلي الجارم وعزيز أباظة وعمر أبو ريشة وغيرهم.

[٥]

قسم المؤلّف كتاب «تنزيه الأنبياء عمّا نَسَبَ إليهم حُثالة الأغبياء» إلى مقدّمة عامّة وعدد من الفُصول؛ وربما تخلل الفصلَ استطرادٌ له علاقة بموضوع الكتاب[٤]. وكل فصل يتعلّق بقصة أو خبر لنبي من أنبياء الله تعالى.

أما المقدّمة فهي بسطٌ لسبب ـ أو أسباب ـ تأليف الكتاب وبيانٌ لمعنى نزاهة الأنبياء، وتعريفٌ بالثّغرات العقيديّة أو غيرها التي دفعت أولئك الأشخاص إلى أن يقعوا في الأخطاء الفظيعة في حق الأنبياء الكرام.

وأما الفصول فإنها تتابعت لتعالج أحوال بعض الأنبياء ممّن كانوا غَرَضاً للكـلام، ولم يكـن المؤلف يغادر الفصل قبل أن يستوثق من إزالة كلّ وَهْمٍ وكلّ لبس، وبعد مناقشة علميّة عقليّة متأنيّة دقيقة، وبأسلوب منطقيّ، وعبارات مفهومة سهلة مُسَطَّرة بقلمِ أديب بارع في أناةِ خبيرٍ مُدقّق.

---

(٣) وقد عنون المؤلف لكل استطراد أو إيضاح بكلمة (فصل) أيضاً.

وقد يلمح القارىء بعض المفردات الشديدة الوقع، أو البالغة الحماسة وهذا صحيح، ولكن المؤلف لم يعتمد على إيحاء الألفاظ المشعّة للوصول إلى الإقناع،على أنّه لم يكن يوفّر المفردة المناسبة في لحظة الحماسة لتعبّر عن خُطورة الموقف، أو لينفّس المؤلف عن قلمه وهو يذكر تُرّهات أولئك الجاهلين أو المُفسدين، كقوله في المقدّمة:

«.. ثم قيّض الله لتلك الحكايات في هذا الوقت المنكوب شرذمة من المقلّدة المنتمين إلى الوعظ والتذكير، فتراهم ينتقلون من المزابل إلى المنابر فيطرحون الكلام في وظائف التوحيد، ومزعجات الوعد والوعيد، وأقسام أهل الدّارين في الدرجات والدّركات، ويخوضون في أحوال الأنبياء عليهم السلام، ويتمندلون بأعراضهم على رؤوس العوام والطَّغام ولا مشفق على دين الله تعالى، ولا محتاط على أغمار المقلّدة، ولا زاجرَ ذا سلطان، حتّى كأننا ملّة أُخرى...» إلخ.

وتتناول الفصول الرئيسية في الكتاب مسائل، أو قضايا في سيرة الأنبياء المكرمين: داوود، وسليمان، ويوسف، وسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم آدم، ونوح، وإبراهيم، وعُزَير، وأيُّوب، ويونس، وموسى، عليهم السَّلام.

(وأضاف إلى ذلك كلاماً عن السَّيِّدة البَتُول مريم العذراء، وكلاماً آخر في إخوة يوسف عليه السّلام).

وقد كشفت كتابة المؤلف ـ رحمه الله وأثابه كل خير ـ عن معرفة بعلوم القرآن، والحديث، وبسطة يد في التّفسير وما يتبعه، ومعرفة واسعة باللُّغة والأَدب والأخبار، والسِّير، والتواريخ، ونفوذ في أمور الفقه، والأُصول، والعقائد؛ وقدرة على المناقشة، وإتقان الأخذ والردّ، والاستقراء والاستنتاج العلميّ العام، والفقهيّ والأُصوليّ.

[٦]

وفي كتاب «تنزيه الأنبياء» هٰذا إشاراتٌ قليلة تضيف إلينا معلومات يسيرة عن المؤلف وعصره؛ فقد ذكر أبا بكر بن العربيّ الإشبيلي الأندلسي (المتوفّى ٥٤٣) وعبارته توحي أنه ألف كتابه وأبو بكر بن العربي حَيّ.

وذكر (طلبة الأندلس)؛ وأكثر ما ترد العبارة في أدبيّات عصر الموحّدين (القرن السادس، والسابع).

وذكر الفقيه، أبا العباس أحمد بن محمد اللَّخمي، وهو كما يُرَجَّح من علماء الأندلس. ووجدت في كتاب الذيل والتكملة لابن عبد الملك نحو عشرة ممن يكنون بأبي العباس ويتسمَّوْن بأحمد بن محمد اللخمي، ولا مُرَجِّح أو دلالة على المقصود فيهم؛ إلى نحو ذلك العدد ممن تسمّى بأحمد ابن محمد اللخمي، وأُغفلت كنيته.

وأورد شعراً لأبي إسحاق الإلبيري، ولم يعرفه المشارقة آنذاك، ولم يترجم له ابن بَسّام في (الذخيرة).

والمؤلّف الذي نصّ عنوان الكتاب على أنّه أمويّ سبتيّ، ممّن أدركوا عصر الموحّدين، وكانوا من علماء العُدوتَيْنِ: الأندلسية والمغربية. ويرجع عندي أن أحدَ أجداده غادر الأندلس إلى أقرب مقرّ في المغرب في مدّة اضطهاد الأمويّين أو إهمالهم، وخصوصاً في قرطبة، على الرغم من التفاف أولي الأمر الجدد في قرطبة وإشبيلية حول «هشام المؤيّد» أو الحصري الأموي المزعُوم. فهو سبتي أندلسي أُمويّ أقول هذا على وجه الاستنتاج والاستدلال بالقليل الذي عرفته عن المؤلّف.

وإذا كانت المعلومات عن المؤلف ومضات سريعة لا تُنيرُ السبيلَ فإنَّ هذا الكتاب يشفّ عن عالم بارع متقن، مُتفنِّن في علوم شتّى قادر على إدارة الكلام على وجوهه المختلفة.

تذييـــل

ظفـر الملحـق الذي أضافه المؤلـف رحمه الله بتعليـق لطيف من أحد مالكي النُّسخـة على الورقة (٦١/ب)؛ والمعلّـق أحد علماء زمـانه في القرنين العاشر والحـادي عشر الهجريَّيْنِ؛ واسمه كمـا ذكره على الصفحة المذكورة، وعلى ورقة الغلاف عند العنـوان هو: إبراهيم بن أحمـد بن محمد؛ وتمامه مع ألقـاب أفراد أُسرته، ونسبته كما سجلها بخطّه: «إبراهيم بن المـلاّ أحمد بـن الملاّ محمد الشهير بابن الملاّ، المحدّث الحلبي العباسي».

ترجـم المحبيّ في خلاصة الأثر لإبراهيم، وأبيه أحمـد، وأخيه محمد بن محمّد. ونبه إلى أنهم من أُسرة علـم وفضـل. وقد كان أبوه وأخوه من علماء العصر، وكان جدّ والده قاضي قضاة تبريز ويُعرف هذا بـ منلا حاجّي، فاشتهر بيته في حلب ببيت المنلا (وتنبـه الزركلي ـ رحمه الله ـ إلى أنّ إبراهيم المـذكور يكتب الملاّ هكذا بلا نون).

وأمّا أبوه أحمد فقد ترجم له المحبيّ في خلاصة الأثر (١: ٢٧٧) وأثنى عليـه بغزارة المعرفة، وجـودة التّأليـف، وحسن الشعر وقال فيه «كان واحـد الدهـر في كل فن من فنون الأدب» وكانت وفاته سنة ١٠٠٣.

وتـرجم المحبي لأخيه محمـد (المتوفى ١٠١٠) في الجزء الثالث ص ٣٤٨ وذكر عدداً من مؤلفاته ونبذة من شعره.

وأما إبراهيم (وترجمتـه في خلاصة الأثر في ١: ١١) فقد تتلمـذ على أبيـه وعلى غيره من علمـاء العصر، واشتغل بالعلم، وحج بعد الألـف ثم رجـع إلى حلب وانعزل عن الناس ولـزم المطالعة والكتابـة والتلاوة للقرآن كثيراً. وذكر له المحبي عـدداً من الكتب.

وكانت وفاة إبراهيم سنة ١٠٣٢ (كما في الزركلي) وقـال المحبي إن وفـاتـه كانت حـول سنة ١٠٣٠.

[illegible]

كتاب تنزيه الأنبياء

عما نسب إليهم [illegible]

[illegible]

تصنيف الشيخ الإمام الفقيه المحدث [illegible]
[illegible] المعروف بابن خمير رحمة الله عليه

وفيه [illegible] للإمام العلامة [illegible] النووي
رحمه الله

وفيه مختصر [illegible] الشامي [illegible]
تصنيف الحافظ العلامة أبي بكر أحمد بن ثابت الخطيب البغدادي
رحمه الله

وفيه نصرة القولين للإمام الشافعي رضي الله عنه
تصنيف أبي العباس بن القاص الطبري رحمه الله

وفيه القول في حقيقة [illegible] تصنيف الإمام حجة الإسلام
أبي حامد محمد الغزالي رحمة الله عليه



صورة غلاف الكتاب
(وفيه عناوين الكتب المحفوظة في المجلّد، وأولها كتاب تنزيه الأنبياء)

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله

الحمد لله العلي العظيم العزيز الحكيم الذي فطرنا باقداره وطورنا [illegible]

وصورنا في أحسن تقويم ومنّ علينا بالعقل السليم وهدانا الى

الصراط المستقيم وبيّن لنا من السادة الأعيان المؤيدين بواضح البرهان

المعصومين من كل صغير وكبير من اللمم والعصيان [illegible]

[illegible] الأخيار المرسلين الأبرار المشهود لهم [illegible]

من الحرام والحلال والترك والامتثال واختصنا منهم بخاتم النبيين

وسيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين وعلى آله

الطيبين الطاهرين [illegible] الى يوم الدين أما بعد

فاني قد استخرت الله تعالى في املاء شرح [illegible]

بعض الطلبة [illegible] في الدين [illegible] على [illegible]

[illegible]

[illegible] ولا [illegible] اخوانهم [illegible] الله [illegible]

فضله على من يشاء من عباده [illegible] الله على [illegible]

من [illegible]

اليهود والنصارى [illegible]

[illegible]

صورة الصفحة الأولى من متن المخطوطة



على الكافة وتوفرهم ودقيق النظر في استخراج معانيهم على أتم الكمال
وأعمه فإنهم يدركون بما أوجب الله عليهم من التفقه في آي القرآن من
معرفة باريهم وتنزيهه عن التشابه ووصفه تعالى بما يجب له من
صفات الكمال والجلال ووصف أنبيائه بالصدق والعصمة
والتنزيه من الخطاء والخطل وكذلك أخبارا به من [illegible]
وما أخبر وابه من المغيبات والمواعظ بالوعد والوعيد والنظر
في الفرق بين الحلال والحرام والمشتبهات المعروفة بالتحرز
الوقوف والتحفظ بمواقعات الشبهة ومما يختص بالعقل فيما قال الله
تعالى فيه ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة
أبحر ما نفدت كلمات الله الآية وقوله تعالى ولو أن قرآنا سيرت به
الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى الآية وقوله تعالى لو أنزلنا
هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا الآية إلى غير ذلك
فتبين بها لمن قد صرف الله قلوبهم وطبع عليها بطابع الشقاء يعرضون
عن هذه الواضحات من الحكم البالغة والبراهين الصادعة و[illegible]
[illegible]
[illegible] وما تذكر إلا [illegible] ذكرها
[illegible] إن شاء الله تعالى

صورة الصفحة الثانية من متن المخطوطة

اقرب بهم منك وأدناهم الملك من في جوف ابن لك
وراح من [illegible] مستعجلا ينتشر من فرحته منزلك
وحل ما اخفيته من عقده كنت تخالا نراها ملك
قال بشر بن الحرث رحمة الله عليه
لابن آدم في ماله ثلث حسرات يجمعه كله ويتركه كله
ويسأل عنه كله وكما قال علي بن ابي طالب كرم الله وجهه
في خطبة خطبها رفعتم الطين ووضعتم الدين وضيعتم
المساكين وتشبهتم بالدهاقين ولحقتم بالملاعين ايها
المعاند لنفسه المغافل عن [illegible] التراب عليه في رمسه
راجع بصيرتك وسدد حيرتك وتدبر [illegible]
قال [illegible]
يا خادع [illegible]
[illegible]
فبادر الى التوبة قبل الموت جعلنا الله واياكم ممن [illegible]
[illegible]
ولا يرى [illegible] بالله الموفق [illegible] حسبنا
ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم وصلى الله على
سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما

بلغ مقابلة [illegible]
[illegible]

صورة الصفحة الأخيرة من متن المخطوطة

كمل بحمد الله ومنه وحسن توفيقه ووقع الفراغ من تحريره على يد
الفقير إلى الله الخاطي المذنب الراجي عفو ربه الكريم إسحق بن محمود
بن بكلويه بن أبي الفياض الشابرخواستي البروجردي عفا الله له ولوالديه
ولجميع أمة محمد برحمته الواسعة وذلك في الخامس عشر من صفر
سنة ست وأربعين وستمائة بالمقام المحروسة المحمية
والأصل الذي استنسخ منه كان مقابلاً بأصل المؤلف رحمه الله عليه
والحمد لله وحده وصلواته على سيده محمد وآله وصحبه وعترته الطيبة الطاهرة

صورة عبارة ختام المخطوطة وسنة النسخ واسم الناسخ.

كِتَابُ تَنْزِيه الأنْبِيَاءِ
عَما نَسَبَ إلَيْهِمْ حُثَالَةُ الأَغْبِيَاء

ومجموع نكت

ما خُصّ به نبيُّنا صلّى اللّه عليه وسلّم من الكرامات ليلةَ الإسراء عندَ لقاء الكليم، وما كان بينهما من المُراجعة والمحاورة في أمر الصَّلاة

تأليف الشّيخ الإمَام الفقيه المرحوم أبي الحسن عليّ بن أحمد السَّبتيّ الأُمَوِيّ، عُرِفَ بابن خُمَيّر رحمة الله عليه

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على سيدنا محمد وآله
ربِّ يَسِّر ولا تُعَسِّر

الحمدُ لله العليّ العَظيم العزيز الحكيم الّذي فطرَنا باقتداره، وطوّرنا باختياره، ورتّب صُوَرنا في أحسن تقويم، ومَنَّ علينا بالعقلِ السَّليم، وهَدانا إلى الصّراط المُستقيم، وقيَّض لنا من السَّادة الأَعيان المُؤيّدين بِواضح البُرهان، المعصُومين من كُلّ صغيرٍ وكبير من اللَّمَم والعِصيان، سَفَرةً من خاصّة الأَخيار المُرسلين الأَبرار المشهود لهم بخالصةِ ذكرى الدّار(١)، ليفصِلُوا بين الحَرام والحَلال، والتَّرك والامْتِثالِ واختَصَّنا منهم بخاتم النَّبِيِّين وسَيّد المُرسلين محمّد صلّى الله عليه وسلَّم وعليهم أجمعين وعلى آلهم الطيّبين الطّاهرين من عهدِ آدم إلى يوم الدين.

أَما بعد: فإنّني قد استَخرتُ الله تعالى في إملاءِ شرح بعضِ آيَاتٍ رغب فِي إملائها بعضُ الطلبةّ المُحتاطين على الدِّين غَيرةً منهم على أَعراضِ النَّبيّين لأَنْ لاحَ في ضمنها بعض عتاب لهم في بعض فقرات لا تَغُضّ من

---

(١) في مقدّمة المؤلّف إشارات قرآنية كثيرة، وهذه منها؛ إشارة إلىٰ قوله تعالى في سورة ص ٤٦/٣٨ ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهم بِخالِصَةٍ ذِكْرَىٰ الدَّارِ﴾ ووَجّه المفسّرون معنىٰ الآية علىٰ وجوه؛ ومنها عن ابن زيد: أي يذكرون الآخرة ويرغبون فيها ويزهدون في الدنيا، وعن مجاهد. أي أخلصناهم بأن ذكرنا الجنّة لهم.

أقدارهم، ولا تَنْقُص من كَمالِهم، ولا تقدح في عِصمتهم وكريمِ أحوالهم، بما مَنَّ الله به من فضلِه على من يَشاء من عباده؛ وذلك لما سَلّط الله على سادات المُرسلين من غُثاءِ الفِرَقِ المُضِلِّين من أوباش المُعطِّلة الضالّين، وأراذل اليَهُود والنَّصارى، ومُقَلّدة المؤرّخين والقُصّاص المُجَازِفين الجاهلين بحقيقةِ النُّبوة، وما يجوزُ على أنبياء الله تعالى. وما يستحيل وما يجب على الكافّة من تعزيرهم وتوقيرهم، وتدقيق النّظر في استخراج مناقِبهم على أَتّم الكَمال وأَعَمّه، فتراهم يتركون ما أوجب الله عليهم من التفقُّهِ في آي القرآن، من توحيدِ بارئهم وتَنزيهه عن النّقائص، ووصفه تعالى بما يجبُ له[٢] من صِفاتِ الكَمال والجَلال، ووصف أنبيائهِ بالصّدقِ والعصمةِ والتنزيهِ من الخَطأِ والخَطل[٣]، وكذلك ما جاؤوا به من وظائف العبادات، وما أَخْبَرُوا به من المُغَيَّبات، والمواعظ بالوَعْدِ والوَعيد، والنَّظر في الفَرْقِ بين الحَلال والحَرام والمُشْتَبِهات إلى غير ذلك ممّا لا تَحويه الرُّقوم، ولا تُحيط به ثاقباتُ الفُهوم، وما عَسى أن أقول فيما قال الله تعالى فيه: ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرةٍ أَقْلاَمٌ والبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ﴾ الآية[٤]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرآناً سُيِّرَتْ بِهِ الجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ المَوْتَى﴾ الآية[٥]، وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنا هَـذا القُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً﴾ الآية[٦]، إلى غير ذلك، فترى بهائمَ قد صَرف الله قُلوبهم، وطبع عَلَيها بطابع النِّفاق يُنَكِّبُون[٧] عن هذه الواضحاتِ من الحِكَم البالغة والبَراهِينِ الصّادعة، ويقصدون إلى أقوالٍ وأفعالٍ لهم

(٢) في الأصل: مما يجب... ودقيق النظر.
(٣) الخَطَل: الكلام الفاسد الكثير.
(٤) لقمان: ٢٧/٣١.
(٥) الرّعد: ٣١/١٣.
(٦) الحشر: ٢١/٥٩.
(٧) نكّب عن الطريق: عَدَلَ عنه. والواضحات؛ هي الطُّرُقُ الجادّة الواضحة المسالك. ويُقال في عكسها: بُنَيَّات الطريق.

يَتَخَيَّلُونها مثالَب في حقّهم، فَيَهلِكُون وَيُهْلِكُون من حيثُ لا يَشْعُرون.

فلنذكر الآن ما نَذكرُ منها لكونهم يستعملونَ ذكرَها لِتحصيل أغراضٍ لهم فاسدة، ثم نعطفُ على ما بقِي منها فيما بعد إن شاء الله تعالى.

فمنها قِصَّةُ داوود عليه السَّلام مع زَوج أُوريا، وقصّة سُليمَان عليه السّلام مع زوجة جَرادة؛ وما كان من قصّة الجَسد والكُرسيّ؛ وقصّة يُوسف عَليه السَّلام مَع امرأَةِ العَزيز في الهَمِّ والمُرَاوَدة؛ وقصّة نبيّنا عليه الصلاة والسَّلام مع زَيد بن حارثة وزينب بنت جحش بن أُميّة. فيتأوَّلُونها تأويلَ من حَلّ من عُنقه رِبقة[٨] الشَّريعة وَيئس من رَحمةِ الله، ثم ينسبون بعض هٰذه الأقوال إلى كبارِ الصَّحابة والتَّابعين لِيُمَوِّهُوا بها على العَوامّ لئلاّ يَرُدوها عَلَيهم ويقدحوا فيها، ثم تَراهم يتَردّدون في نَقل تلكَ الخُرافات بالتّكرار علىٰ أُوجهٍ مُختلفة، تورُّعاً في نقلِ الرِّواية، تورّع الكَلبِ الذي يرفَعُ رجلَه عند البَوْل، وفَمُهُ في أَعماقِ الجيفة! ثم قد قَيَّض الله لتلكَ الحِكايات في هٰذا الوقت المنكوب[٩] شِرذمةً من المقلّدة المُنتمين إلىٰ الإرادة، والقصّاص المُدّعين في غَرائب العِلم وبَواطِن المَعاني المُنتمين إلىٰ الوعظِ والتَّذكير، فَتراهم ينتقلُون من المَزابل إلىٰ المنابر فيطرحون الكلامَ في وظائِف التّوحيد، ومُزعجاتِ الوَعدِ والوَعيد، وأقسام أَهلِ الدّارَيْن في الدَّرجات والدَّرَكات[١٠]، ويخوضُون في أَحوالِ الأَنبياء ـ عليهم السلام ـ ويتَمندلون[١١] بأعراضهم علىٰ رُؤوس العَوامّ والطَّغام، ولا مُشفِقَ علىٰ دِين

---

(٨) الرِّبقة: العُرْوَة في الحَبْل يُشَدّ بها رأس الشّاة ونحوها؛ فاستُعِيرَ اللّفظ للدِّين، فيُقال: خَلَعَ رِبْقَةَ الإسلام من عُنُقِهِ، إذا خَرَجَ عنه.

(٩) نكب الدَّهرُ أهلَهُ نَكْباً وَنَكَباً: بَلَغَ منهم، وأصابهم بنكبة.

(١٠) الدَّرَجات: جمع الدَّرَجَة، وهي المرتبة من مراتب أهل الجنّة. والدَّرَكات: جمع الدَّرَكة، وهي المنزلة السُّفلىٰ من منازل أهل النّار؛ ضدُّ الدَّرَجَة.

(١١) يتمندلون: هذا فعل مشتقّ من (المنديل)؛ والمنديل يُتَّخَذُ عادةً للابتذال والامتهان، وفي الشّفا (١٠٩٦): «حدّثنا الثّقة أنَّ أبا بكر الشّاشيّ كان يعيبُ علىٰ أهل الكلام كثرة =

الله تعالى، ولا مُحْتاطَ علىٰ أَغْمَارِ(١٢) المُقَلِّدة ولا زاجرَ ذا سُلطان حتّىٰ كأنّنا مِلَّةٌ أُخْرىٰ، ولا نَغَارُ علىٰ ذَمِّهم ولا نرقبُ في أَعْراضِهم إلّاً ولا ذِمَّة(١٣).

وغَرَضُ هَؤلاء الفسَقةِ في سَرْدِ تلك الحكايات المُوَرِّطةِ قائلَها وناقلَها في سُخط الله تعالى أَنْ يُهَوِّنوا الفُسوق والمَعاصي علىٰ بُلْهِ العَوامّ، ويتسلَّلُوا إلىٰ الفُجورِ بالنّساءِ، بذِكْرِها لِوَاذاً(١٤) حتّىٰ ترىٰ المرأة تخرجُ من مَجلسِ الواعظِ إلىٰ منزلِه، فتسأله علىٰ التّفصيل فيزيدها أَقبحَ ممّا أَسْمَعها في الجُمهور، يقول لها: هٰذا أمرٌ ما سلم منه عُظَماءُ المُرْسَلِين، فكيف نحن؟!

فلا يزَال يُهَوِّنُ عليها ما كانَ يَصْعُبُ مِن قَبْل، فـ: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾(١٥)، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾(١٦).

= خَوْضِهِمْ فيه تعالىٰ وفي ذكرِ صِفاتِه، إجلالاً لاسمه تعالىٰ، ويقول: هَؤُلاء يَتَمَنْدَلُونَ بالله عزّ وجَلّ».

(١٢) أغمار: جمع غمر، وهو الّذي لم يجرّب الأمور (أصل الكلمة في الصّبيّ إذا لم يجرّب، ثم قيلت في كلّ غِرّ لم تعركه الحياة).

(١٣) الإلّ: العهد، والقَرَابة. والذِّمّة: العهد؛ قال تعالى متحدّثاً عن المشركين: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ [التوبة ٩/١٠].

(١٤) يُقال: لاَذَ بكذا لِوَاذاً؛ أي لَجَأَ إليه وعاذَ به، واستتر.

(١٥) البقرة: ٢/١٥٦.

(١٦) الشعراء ٢٦/٢٢٧.

ذِكْرُ ما اخْتَلَقُوه في قِصَةِ دَاوود(*) عَلَيه السلام

فمن شنيع تَخَرُّصِهِم(١) في قصّته ـ عليه السّلام ـ مع امرأة أُوريا، وقِلّة مُرَاعاتهم مع مَن جعلَه الله تعَالىٰ خليفةً في الأَرض وشدّد مُلكه، وآتاهُ الحكمةَ وَفَصْلَ الخِطاب، وسَخّر له الجبالَ يُسَبِّحْنَ معه والطَّير، وألان له الحَدِيد؛ فمِمّا اخْتَلَقُوه عليه أن قالوا:

إنه أَشرفَ يوماً من كُوّةٍ كانت في مِحرابه، فَرَأَىٰ امرأةً تَغْتَسِلُ في حُجرتها، فأَعجبَهُ حُسنها، ولينُ جانبها، ورخَامة دَلّها(٢)، فشغفه حُبُّها، فالتفتت إليه فأَسْبَلت شعرها علىٰ جسَدِهَا لِتَسْتَتِرَ منه، فزادَهُ ذٰلكَ شَغفاً بها، ثم أرسل إليها يَسأَلُها: مَنْ بَعْلُها؟ فأَخبرته أنّه أُوريّا؛ فأَرْسَل إليهِ فَسَأَله أَن ينزلَ له عَنها بِطَلاقِها، فأَبى، فأَمره بالخُروج إلىٰ الغَزو، وأَرسل إلىٰ صاحبِ الجَيش أَن يُغزِيَهُ ويقدّمه للقِتال في كُلّ مأزِق. ففعلَ صاحبُ الجيشِ بِهِ ذلك مَرّات حتىٰ قُتِل. فلمّا بَلغ داوود ـ عليه السّلام ـ أنّه قُتل، أَرْسل إليها ليتزَوَّجها فأسْعَفته، فتزَوَّجها. وكان له مئة امرأة إلّا واحدة فأَتَمّ بها المئة. فأَرسلَ الله إليه إذ ذاكَ الملائكةَ فاخْتَصموا عنده. فأَفتاهم بما يؤول دركه عليه(٣). فخَصمُوه(٤). ثم قال أَحَدُهما للآخر: قُمْ: فقد حكمَ الرَّجلُ علىٰ نَفسِهِ! وصَعِدَا إلىٰ السَّماء وهو ينظرُ إليهما؛ فتفطّن إذْ ذاك أَنّهم مَلائكة وأَنّهُ فُتِنَ وأَخطأ، فاستَغْفَرَ رَبّه وخَرّ راكعاً وأَناب.

(*) قصّة داوود عليه السَّلام في: تنزيه الأنبياء للشريف المرتضى: ٨٧، وعرائس المجالس: ٢٧٩، وابن كثير: ٢: ٢٥٥، وتفسير الطبري ٢٣/٨٨ ـ ٩٤، وتاريخ الطبري: ١ : ٤٨، وتفسير القُرطبي: ١٥: ١٦٥.

(١) تَخَرَّصَ (وَخَرَصَ): كَذَبَ.

(٢) الرَّخَامة: لِينُ المنطق، حسن في النِّساء.

(٣) يؤول: يرجع. والدَّرْك: التَّبِعَة، أي: تَرجعُ تَبِعَةُ فَتْوَاهُ عليه.

(٤) خَصَمُوه: غلَبُوه.

فهٰذه من أقوالهم أقلّ شناعة وبشاعة مِمّا سواها من الأقوال في كتُب القصصِ والتّواريخ، وبعضِ التّفاسير الفاسِدة!

فصل

والّذي يَنبغي أن يُعَوّل عليه في هٰذه القصّة وما يُضاهيها من القِصَص، ما جاءَ به الكتابُ العَزيز، أو ما صَحّ عن الرَّسُول ـ عليه السّلام ـ من الخَبر، وما سوىٰ ذلك فَيُطْرَح هو ومُختَلِقُه وراوِيه إلى حيثُ ألقت رَحْلَها أُمّ قَشْعم[٥]!

فصل

فأمَّا قصّة داوود عليه السّلام فهي مذكورة على الكَمال مفصّلة في قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا المِحْرَاب﴾ إلى قوله[٦]: ﴿وَخَرّ رَاكِعاً وَأَنَابَ﴾.

قال تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الخَصْمِ﴾ الآية.

اعلم ـ رحمك الله ـ أنّ استفهامَ الله تعَالى لِخَلْقِهِ لا يجوزُ أن يُحمل علىٰ حقيقةِ الاستفهامِ لوجوبِ إحاطةِ عِلمِه تَعَالىٰ بجميع المعلومات علىٰ أَتَمّ التّفصيل، فلم يبقَ إلا أن يكونَ الاستفهامُ هُنا بمعنىٰ التّقرير والتّنبيه لنبيّه ـ عليه السّلام ـ ليتهَيّأ لِقَبُول الخِطاب، وليتفهمّ ما يُلقىٰ إليه من غَرائب العِلم وعجائِب الكائنات. وأَمّا إفرادِ الخَصْمِ وَهُما خَصْمَان، فَالعَربُ تُسَمّي الواحدَ بالجَمع والجمعَ بالواحِد علىٰ وجهٍ ما، فنَقول:

---

(٥) أي إلىٰ المَوْت والهَلاك! وهذه الكناية وَرَدَت في معلقة زهير:

فشَدّ وَلَمْ يَفزع بيوتاً كثيرةً لَدَىٰ حيثُ أَلْقَتْ رَحْلَهَا أُمُّ قَشْعَمِ

وفي اللّسان: أمْ قشعم: المنيّة، والحرب.

(٦) الآيات ٢١ إلى آخر ٢٤ من سورة: ص.

«خَصْماً» للواحِدِ والجَمعِ، كما تقول «ضَيْفاً» للواحِد والجَمع؛ وقال الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيْثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيْمَ الْمُكْرَمِيْنَ. إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾(٧). فَسَمّاهُم باسمِ الواحِد وَنَعَتَهُم بالجَمع في قوله: ﴿ الْمُكْرَمِينَ ﴾، وكذلك ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾.

ومعنىٰ ﴿تَسَوَّرُوا المِحْرَابَ﴾: أتوه من أعاليه ولم يأتوه من بابه، ولذلك فَزِع منهم فإنّه خافَ أن يكونُوا لُصوصاً، أو يكونَ بعضُ رَعِيّته ثَارُوا عليه. والمحرابُ في اللّسان: صَدْرُ المَجلس وأَحْسَنُ ما فيه، ولذلك سُمّي مِحرابُ المسجدِمحراباً. وقيل: المحرابُ: الغُرفة. وفي فَزعه منهم ـ وكانوا ملائكةً ـ دليلٌ على أنّه ليسَ من شرطِ النُّبُوَّة أن يَعرِفَ النَّبيُّ كلَّ مَن يأتيه من الملائكةِ حتىٰ يُعَرَّف به، وفيه أيضاً دليلٌ علىٰ أَن الملائكة يتصوّرون علىٰ صُوَرِ الآدميّين بأمرِ ربّهم وقُدرته لا بِقُدرتهم. وفي تصورهم كذلك عريضٌ من القولِ لَسْنَا الآن له، لكنّ الذي يصحّ منها وَجْهان:

إمّا أنهم ينسَلِخُون من أبعاضِهم؛

أو تنعدم من أجسامِهم بالإمساكِ عن خَلق الأعراض فيها ما شاءَ الله وتبقىٰ ما شاءَ، ثم يعيدهم إلى مقامهم كما كانوا قبل، فإنه ليس من شرطِ الحيّ العالم أن تكثر أجزاؤه ولا أن تقل، فإن العالم منهُ جزءٌ فرد.

وأمّا قوله ﴿لاَتَخَفْ خَصْمَانِ﴾(٨) ولم يكونا خَصمين علىٰ الحقيقة، ولا بغى بعضُهم علىٰ بعض، ولا اتّفق لهما ممّا ذَكراه شيء(٩)، ففيه دليلٌ

---

(٧) الذّاريات: ٥١/٢٤ ـ ٢٥.

(٨) من سورة ص: ٣٨/٢١ ـ ٢٢: ﴿وَهَلْ أَتاكَ نَبَأُ الخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا المِحْرَاب. إِذْ دَخَلُوا على دَاوُودِ فَفَزِعَ مِنْهُم قالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغىٰ بَعْضُنا على بَعْضٍ فاحْكُمْ بَيْنَنا بِالحَقِّ وَلاَ تُشْطِط واهْدِنَا إلى سَواءِ الصِّراطِ﴾.

(٩) أُجيب أيضاً بعدد من الأجوبة:

ـ قالوا لا بدّ في الكلام من تقدير، فكأنهما قالا: قدِّرنا كأننا خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحقّ. قال القرطبي: وعلى ذلك يُحْمَلُ «إنّ هذا أخي لهُ تِسْعٌ وتِسْعُونَ =

علىٰ أنّ الكذب أنّما يقبحُ شَرْعاً؛ فمَن أمره الله تعالىٰ أن يُخبر بما وقع وبما لم يقع فأخْبَر بهِ فهو مُطيع ممتثِلٌ فاعِل الحَسن. ولذٰلك جاز لهم أن يقُولوا للمَعْصُوم: ﴿فاحكُمْ بَيْنَنا بِالحَقِّ ولا تُشْطِط﴾، والشَّطَطُ: الجَوْر، مع علمهم بأنّ المعصومَ يحكم بالحَقّ ولا يجورُ في الحُكم، فتخرج لهم هٰذه الأقوال إذ هُم ملائكة وسَفَرة معصُومُون، مخرجَ أقوالِ يوسف ـ عليه السّلام ـ إذ أمر مناديه فنادىٰ[١٠]: ﴿أَيَّتُهَا العِيْرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ وما كانُوا بِسارقين، وقولُه ـ عليه السّلام ـ لإخوته[١١]: ﴿أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً﴾ ولم يكونوا كذٰلك، وأَخذ أخاهم علىٰ حُكمهم لا علىٰ حكم المَلك، وما كان له أن يأخُذه في دِين المَلِك، فإنّ المَلِك كان يَقْتُل السّارق، ولا في دين إخوته في شَرِيعتهم، فإنّهم كانوا يستعبدون السَّارق، وأَخوه لم يكن سارقاً.

وجاء في الأخبار أنّه كان ينقُر في الصُّوَاع ويقول: إنّ صُواعي هٰذا يُخبرني بكذا وكذا، والصُّواع لا يُخبر، حتّىٰ قال له بنيامين أخوه: أيُّها الملك! سَلْ صُوَاعك يُخبرك أَحَيٌّ أخي يُوسف أم ميّت؟!.

فنقَر في الصُّواع فقال: هو حيّ وإنّك لتَراه وتَلْقَاه، إلىٰ غير ذلك. فأقام الله تعالىٰ عُذره في كلّ ما أخبر عنه وفعلَه بقوله[١٢]: ﴿كَذٰلِكَ كِدْنَا

= نَعْجةً» لأن ذلك، وإن كان بصورة الخبر فالمراد إيراده على طريق التقدير لينبّه داوود على ما فعل.

ـ وقال الثعلبي: قيل كان المتسوّران أخوين من بني إسرائيل لأب وأمّ. فلما قضى بينهما بقضيّة قال له ملك من الملائكة: فهلّا قضيت بذلك على نفسك يا داوود؟ ثم رجح الثعلبي الرواية الأولى أي أنهما كانا ملكين.

ـ وقيل: هذا من الملكين تعريض وتنبيه كقولهم: ضرب زيدٌ عمراً وما كان ضربٌ ولا نعاج على التحقيق، كأنه قال: نحن خصمان هذه حالنا!

(١٠) سورة يوسف: ٧٠/١٢.

(١١) سورة يوسف: ٧٧/١٢.

(١٢) يوسف ٧٦/١٢.

ـ قيل في تفسير «كدناليوسف» معناه صنعنا، ودَبّرنا، و: أردنا. =

﴿لِيُوْسُفَ﴾ ومعناه: بذلك أمَرْنَاه وَأردنا منه.

وارتفع الاعتراضُ على أنّه: ما أخبر الملائكةُ ـ عليهم السلام ـ لداوود ـ عليه السلام ـ إنّما كان علىٰ جِهة التَّجَوُّز وضَرب المِثال بأخوّة الإيمان، إذْ ليْس في الملائكة وِلَادة، وإذا لم يكنْ ولادةٌ فلا أُخُوّة نَسب.

وتسميةُ النّساء نِعاجاً لتأنيثهنّ وضَعفِهن[١٣]؛ وَ ﴿أَكْفِلْنِيْهَا﴾ كناية عن نكاحها[١٤] ﴿وَعَزَّنِي فِي الخِطَابِ﴾ بمعنىٰ غَلَبني[١٥]، وهٰذا آخرُ خِطَاب الخصم، فقال له داوود ـ عليه السّلام ـ: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ ثم قَيّد الظلمَ بسؤالِ النَّعجة إذ قال لهم[١٦]: ﴿إِنّ كَثِيراً مِنَ الخُلَطَاءِ لَيَبْغِيْ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إلاّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيْلٌ مّا هُمْ﴾. وهٰذا آخِرُ خِطابِه للخَصم.

فصل

اعلموا ـ أَحْسَن الله إرشادنا وإيّاكم ـ أنّ كُلَ مَن تكلّم في هذه القصة بما صَحّ في حَقّ داوود ـ عليه السلام ـ وبما لم يصحّ إنما بَنَوْهُ عَلىٰ أُسّ هٰذه الخمس كلمات التي هي: ﴿أَكْفِلْنِيْهَا﴾، ﴿وَعَزَّنِي فِي الخِطَابِ﴾، و﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾، و﴿لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، ﴿وَقَلِيلٌ مّا هُمْ﴾. وهي بحمد

= وفي تفسير القرطبي: وفيه جواز التوصل إلى أغراض بالحيل إذا لم تخالف شريعة، ولا هدمت أصلاً...

(١٣) والعرب تكني عن المرأة بالنعجة والشاة ـ لِمَا هي عليه من السكون والعجز وضعف الجانب ـ وقد يكنّى عنها بالبقرة والحِجرة والنّاقة.

(١٤) قيل في التفسير وجوه تتقارب.
- قيل أي انزل لي عنها حتى أكفلها.
- وقال ابن عباس: أعطنيها.
- وعنه أيضاً أي تحوّل لي عنها (اتركها لي)، وقاله ابن مسعود.
- وقال ابن كيسان: اجعلها كفلي ونصيبي.

(١٥) قال ابن العربي: قيل معناه غلبني ببيانه، وقيل غلبني بسلطانه لأنه لما سأله لم يستطع خلافه.

(١٦) ص: ٣٨/٢٤.

الله تُخَرَّجُ لـه علىٰ مَذهـبِ أهـلِ الحـقّ، بأَجْمَلِ ما ينبغي له وأَكْمَلِه، والله المُستعـان.

فأَوّلُ ما ينبغي أن نُقَدّم قبلَ الخَوْضِ في هـذه المسائـل وما يُضاهيهـا، ثلاث مقدّمـات.

إحـداها: ما صحّ من إجماع الأُمّـة قاطبةً على عِـصمة الأَنبيـاء من الكَبـائر.

والثّانـية: أنّ كُلَّ محـظورٍ كـبيرةٌ علىٰ قـولِ مَن قـال بذلك من أئمـة السُّنّـة، وهـو الصّحيح، لاتّحـاده في الحَـظر. وإنّمـا يُتَصَوّر كـبيرٌ وأكـبر بالتَّحـريض علىٰ تـركها وتأكيـدِ الوعـيدِ علىٰ فعـلِ بعضِهـا دون بعـض.

والثالثـة: شرح هٰـذه الأَقوال ومـا يُضاهيهـا من القصص الموعود بهـا علىٰ مذهـب من قـال بِتنزيه الأَنبـياء ـ عليهـم السلام ـ عن الصّغائر، وأَنّهـم لا يُواقعـون صغيرةً من الذُّنـوب ولا كـبيرة؛ وأَن غايـة أَقـوالهم وأَفعـالهم التـي وقـع فيها العِتـابُ من الله تعَـالىٰ لمن عاتَـبه منهم أَن يـكون علىٰ فعـلٍ مُبـاح كـان غيرُه من المباحـات أَولىٰ منه في حـق مَناصـبهم السَّنِيّـة.

وسنبيّن ذلك في سيـاقِ الكـلام إن شـاء الله تعـالى.

فصـل

فأمّـا قولة داوود ـ عليـه السّلام ـ (أَكْفِلْنِيْهَـا) فهـذا بمعنىٰ: انزلْ لي عَنها بـطلاقٍ وأَتزَوَّجُهـا بعدك. وهٰـذا من القول المأذون في فِعـله وتـركه، ومبـاحٌ أن يقولَ الرّجـل لأخـيه أو صديقهِ: انزلْ لي عن زَوجـك بإضمـارِ «إن شِئـت». وهٰـذا بمثـابةِ من يـقولُ لصاحـبه أو أَخـيه: «بعْ مِنّـي أَمَتَكَ إن شِئت». وهـذا قـولٌ مبـاحٌ لـيسَ بمحـظورٍ في الشّرع، ولا مـكروه. ومن ادَّعـى حَظره أو كراهَتـه في الشّرع فعـليه الدَّليل، ولا دليلَ له عَليه، كـيفَ وقد جـاءَ في

الصّحيح أن النَّبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لمّا واخى بين سعد بن الرَّبيع وبينَ عبد الرّحمن بن عوف قال له الأنصاري: لي كذا وكذا من المال أشاطرك فيه، ولي زَوجان أنزلُ لك عن إحداهما، فقال له عبد الرّحمن: بارك الله لك في أهلك وما لك؛ أرني طَرِيقَ السُّوق.

ووجهُ الاستدلال بهذا الحديث قولُه بينَ يدي النبي صلى الله عليه وسلم: أَنْزِلُ لك عن إحداهُما، فأَقَرّه النبيُّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ على هذا القول ولم يُنكره عليه وهو لا يُقِرُّ على مُنْكر، وهو المعلّم الأكبرُ صَلوات الله عليه وتَسليمه، فلم يبقَ إلاّ الإباحة، لكن تركها بمعنى الأَولى والأَحْرَى في كمالِ منصبِ النُّبُوَّة كانَ أولى وأَتَمّ.

وأما قولُه: ﴿وَعَزَّنِي فِي الخِطَابِ﴾ أَيْ غَلبني فنزلتُ له عنها، فهو غَلَبُ الحِشمة لا غَلب القَهْر لِعِظَمِ منزلةِ السَّائل في قَلب المسؤول، ولا غَلَبُ الحِسّ بالقَهْر المنهيِّ عنه؛ فإنه ظُلمُ منهيٌّ عنه شَرعاً تَتحاشى عنه الأَنبياءُ عليهم السلامُ كما تقَدّم.

فإن قيلَ: كان داوود عليه السلام خليفةً وصاحبَ سَيف، والمطلوبُ منه رَعِيَّة؛ ومن شَأْنِ الرَّعِيَّة هَيبةُ المُلوك والمبادَرةُ لقضاءِ حوائِجهم لكونهم قاهرينَ لهم، فيقضون حَوائجهم باللِّين خوفاً من العُنف والإكراه؛ وفي سُؤالِ داوود عليه السّلام حَمْلٌ على المسؤول من هذا الباب.

قلنا: صحيحٌ ما اعترَضت به، إلاّ أَنّ هذا الحَمْلَ على المسؤُول لا يُتَصَوّر إلا فيمن عُهِدَ منه الظُّلم والغَصْبُ من الأُمراء وأَمّا من عُهِد مِنه العدل والإحسان كَخُلفاء الصّحابة والتّابعين لهم بإحسان، فلا يُتصوَّر ذلك في حَقّهم إذا منعوا المباحات وإذا لم يُتَصَوّر ذلك في حقهم مع عَدَم العِصمة فما ظَنُّك بالمعصُومين المُنَزّهين عن الخَطايا تنزيهَ الوُجوب كما تقدم؟ فَبَطَلَ اعتراضُ هذه القولة في حَقّ داوود عليه السَّلام في هذا الباب.

وأمّا قوله للخصم: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ إلى نِعَاجِهِ﴾ ففيه اعتراضٌ من وجهٍ آخر نتخلّص منه ونرجع إلىٰ ما نحنُ بِسبيله.

قالوا: كيف يكونُ داوودُ ـ عليه السَّلام ـ مَنْ خَلَفَ الله في أرضه ويقطع علىٰ الظّلم بقَول الواحدِ قبل أنْ يَسْمَع قولَ الآخر؟

فالجواب عن هذا يُتَصَوَّرُ من وَجْهَين:

أحدهما: أنه سَمِعَ من الآخر حُجّةً لا تخلّصه، فقال للأوّل: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ أو صَدَّقه الآخَرُ في قوله، فقال للأوّل: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾.

والثاني: أن يقول: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ بإضمار «إنْ كانَ حقّاً ما تقول». وهذا سائغ، وأما أن يقول له: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ من غير أن يسمعَ حُجّة الآخر، فهذا لا نُسَوِّغُه في حقِّ عاقل مُنصِفٌ، فكيفَ في حَقّ مَنْ آتاه الله الحكمةَ وفصلَ الخِطاب؟!

ألا ترىٰ موقفَ يَعقوب ـ عَليه السَّلام ـ لمّا جاءه بَنُوه عشيّاً يبكُون وهم جَماعة فقالوا ما قالُوا، فقال[١٧]: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾، ولم يقبل أقوالهم ولا دُموعهم بغير دليل، فكيف يقبل داوود عليه السّلام قولَ الخصم من غيرِ حُجّة حتّى يقول له: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ هذا لا يصحّ في حقه. وأمّا قولُه للخَصم: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾، فعنىٰ به: بَخَسَك وغَبَنك في قولٍ كان غَيرُه من المُباحات أولىٰ بكَ منه. وحَدّ الظُّلم في اللِّسان: وضعُ الشَّيء في غَيْر موضعه. وقد قدّمنا أن قولَ قائلٍ لغيره: أكْفِلْني زَوجك، ليسَ بظلمٍ منهيّ عنه شَرعاً، فلم يَبْقَ إلّا ما ذكرناه في حَقّه.

وأمّا قوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيْراً مِنَ الخُلَطَاءِ لَيَبْغي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[١٨]

(١٧) يوسف: ١٢/١٨.
(١٨) الخلطاء: قيل هم الأصحاب، وقيل: الشركاء.

فيخرج البَغي مخرجَ الظُّلم حَرفاً بحرف، فإنّه إذا ساغ في اللّسان ـ والمعتاد أن يُسمّىٰ مالكُ الكثير إذا طَلب من المُقِلّ قليلَهُ ظالماً ـ فلا غَرْوَ أن يُسَمّىٰ باغياً.

ولو أن رَجُلاً كان له عَبدان مُطِيعَان له مُستقيمان غايةَ ما يُمكنهما من وجوه الاستقامة، فأَحسنَ إلىٰ أحدهما وأعطاه ووسّع عليه ورفّه معيشته، ولم يُحسن للآخر بعينِ ما أَلزمه الله ممّا يتعيّن للعبيدِ علىٰ السّادة لسمىٰ العقلاءُ هذا السّيِّد ظالماً باغياً، من حيثُ إنّه أَحسنَ لأحدهما ولم يُحسن مع الآخر مع تساوِيهما في الطّاعة والنَّصيحة. والسَّيد مع هذا التّخصيص بالإحسان لأحدهما، لم يأتِ في الشّرع بمحظورٍ ولا بمكروه. بل كلّ ما فعل معهما مباحٌ له.

فهذا وجهٌ من وجوه التخلص من هذه الأقوال، وأنّها مباحة لقائلها وفاعِل ما وقَع منها من غير أن يلحقه ذَمٌّ من الشَّرع ولا ثَلب.

وأمّا قوله: ﴿وَقَلِيْلٌ مّا هُمْ﴾، فمقصودُه الأكابرُ الأفرادُ من المُحسنين المُؤثرين، فإنّهم يُحسِنون في المباحاتِ كإحسانِهم في المَشْرُوعات فيتعاونون في العِشرة ويتناصفون في الخُلطة، كما قال تعالى[١٩]: ﴿وَيُؤْثِرُوْنَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

ثم قال: ﴿وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾ فإنّهم الكبريتُ الأحمر. وهٰذا آخر خطابه للملائكة.

فصل

والذي يكمُل به هٰذا التفسير ويعضدُه نكتةٌ شريفة، وذٰلك أنّ الله تعالىٰ أخبرَ بما وقع بين داوود ـ عليه السلام ـ وبين الخَصم من مُحاورةٍ ومُراجعة،

(١٩) الحشر ٥٩/٩.

وأنّ ذِكر التكفُّل والعزّة في الخِطاب كلامُهما، وما أخبر به تعالى عن قولِ قائلٍ فليس هو في الإلزام كالّذي يُخبر به عن نفسه وحكمه. فمَنْ أخبر تعالىٰ أنّه ظَلَم، وغلَب، وبَغىٰ في المشروعات، فهو ظالمٌ، غالبٌ، باغٍ شَرعاً. ومَن أخبر تعالىٰ أنّه قال: ظلمتُ، وبغيت، أو قال: ظلم زيدٌ وغلَب وبغىٰ، فقد يُخبر عن حقيقة شرعية وعن مَجازيّةٍ عاديّة، كما تقدَّم في مثالِ السّيد والعبد.

وقد ثبتَ أنّ هٰذه الأقوال التي وقَعت بين داوود ـ عليه السلام ـ وبين خَصمه من المجازيّة العاديّة، وإذا كان ذلك لم يثبت بها حكمٌ شَرعي وإذا لم يَثبت حُكْمٌ لم تثبت طاعَةٌ ولا معصية.

قال تعالىٰ[٢٠]: ﴿وَظَنّ دَاوُد أَنّما فَتَنّاهُ فاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ. فَغَفَرْنَا لَهُ ذٰلِكَ وإنّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفىٰ وحُسْنَ مَآب﴾.

هٰذا الظنّ منه يُحتملُ أن يكون علماً، ويُحتملُ أن يكونَ ظَنّاً علىٰ مَعنىٰ الظّن الذي هو التردُّد في الشّكّ مع المَيل إلىٰ أحدِ الطّرفين.

فإنْ كانَ بِمعنىٰ العلم فهو أنه لمّا علم أن الخَصمين مَلَكان وأنّه المقصودُ بالمِثال وأنّه فُتِنَ أي اخْتُبِرَ وامتُحِن ببعض المُباحات، فعُوتب إذْ لم يصبر فيها صَبْرَ المُؤثرين حتّىٰ قال ما قال وفعلَ ما فَعَل ﴿فخَرَّ راكِعَاً﴾ يعني ساجِداً، فإنّ الرُّكوع والسُّجود يسمّىٰ كلّ واحدٍ منهما باسمِ الثّاني ﴿وَأَنَابَ﴾: أي تابَ من ذٰلك ظاهراً وباطناً. فأَخبَرَ تعالى أنّه غَفَرَ له ذلك أي دَرَأَ عنه الطّلب فيما رأىٰ هو أنّه ذنبٌ في حَقّه فتركَ الأَوْلَى كما تَقَدّم.

وإن كان حُكمُه علىٰ حُكم الظّنّ فيكون: أنّه غلب ظَنُّه علىٰ أنّ الذي وقَع منه فتنةٌ يتعلّق فيها طَلبٌ؛ إذْ لله تعالى في صريحِ العَقل أن يطلبَ مَا شَاءَ وَيَتْرُكَ مَا شَاءَ. فأخبر تَعَالى أنّه لا طَلَبَ عليه في ذٰلك.

(٢٠) ص: ٣٨/٢٤ ـ ٢٥.

شرحُ قِصة سُلَيْمان(*)
عَليه السلام

في آيةِ الفِتنة الكُرسِيّ والجَسَد(**).

قال تعالىٰ: (١) ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ﴾ ذكَر أصحابُ المَقالات في أَشبهِ أَقوالِهم(٢) في هذه القصّة، أَنّ سُليمان ـ عليه السلام ـ كانت له امرأةٌ من كرائمه(٣) اسمُها جَرادة، وكان أَبُوها مَلِكاً من مُلوك الجزائر البحريّة، وكان كافراً، فمنهم من قال: إنه خطبها إليه(٤) وتزوَّجها ـ ومنهم مَن قال: إنّه سَباها عُنفاً. وكان لها جَمالٌ بارع فكان يُحِبُّها ويقدّمها علىٰ جميع نسائِه. وكانت عند أبيها تعبدُ صَنماً. فلمّا فَقدت ذلكَ عنده اكْتَرَثَتْ(٥) وحَزِنَت وتغَيّر حُسنُها، فسأَلها عن حالِها فأخبرَتْهُ أَنّ ذلك من وحشَتِها

(*) قصة سليمان في: تنزيه الأنبياء، للشريف المرتضىٰ: ٩٢، وعرائس المجالس: ٣٢٢، وابن كثير ٢: ٢٦٧، وتفسير الطبري ٢٣: ١٠٠، وتاريخ الطّبريّ ١: ٤٩٦، وتفسير القرطبيّ ١٥: ١٩٩.

(**) قال القاضي عبد الجبّار الهمذاني في تنزيل القرآن عن المطاعن: «وربما قيل في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسداً ثُمَّ أنابَ﴾ كيف يصحّ أن يُعزل عن النبوّة ويصير على كرسيّه بعض الشياطين على ما يُروى في ذلك؟

وجوابنا أن الذي يُروى في ذلك كذب عظيمٌ. والصحيح ما رُوي من أنه تفكّر في كثرة نسائه ومماليكه فقال ـ وقد آتاه الله من القوّة ـ إني لأطؤهنّ في ليلة واحدة فيحملن ويحصل لي من الأولاد العدد الكثير ففعل، ولم تحبل إلا واحدة وألقت جسداً غير كامل الخلقة فَحُمِلَ ذلك الجسد إلى كرسيّه فتنبّه عنده على أن الذي فعله من التمنّي كالذّنب، وأنه كان من حقّه أن ينقطع إلى الله تعالى فيما يرزق من الأولاد: قلّ أوكثر فأناب عند ذلك، وتاب مما كان منه.

فأمّا أن يُعزل ويؤخذ خاتم ملكه ويصير إلى بعض الشياطين، وأنْ يَطَأ ذلك الشيطان نساءه فذلك ممّا لا يجوز على الأنبياء، وقد رفع الله قدرهم عن ذلك.

(١) سورة ص: ٣٨/٣٤.

(٢) أي في أكثرها إمكان قَبُول؛ أو في أحسن أقوالهم.

(٣) من أزواجه الكريمات. وقيل في اسمها: الأمينة ـ وهذا كله من مختلقات الرواة، ومن دسائس الإسرائيليات.

(٤) في المخطوط: خطبها له.

(٥) اكترث له: حزن.

لأبيها، ورَغِبت إليه أن يصنعَ لها الجنُّ تمثالَ أَبيها حتىٰ تَنظرَ إليه وتتشَفّىٰ بعض الشّفاء ممّا تجدُ من وَحشتها لأبيها، ففعل ذٰلك لها. فكانت تدخلُ هي وجَواريها في بيت التّمثال وتسجدُ له وتعبُده هي وجواريها خفيةً من سُليمان ـ عليه السلام ـ ففعلت ذلك أربعين يوماً. فَسَلبه الله مُلكه أربعين يوماً.

وقيل أيضاً: إنه كان لها أَخٌ وكان بينَهُ وبينَ رَجُلٍ من بني إسرائيل خصومةٌ، فسألته أن يحكمَ لأخيها علىٰ خَصمه فأَنْعَم لها بذٰلك[٦].

وهاتانِ القِصّتان علىٰ خللٍ فيهما أَسلمُ من سِوَاهما في حَقّ سُلَيمان ـ عليه السَّلام ـ فإنّه يتصور الحقّ فيهما علىٰ وجوهٍ سَنذكرها فيما بعد إن شاء الله تعالىٰ.

قالوا: وكان عُقبىٰ أَمرِه معها في هذه القِصّة أنّه كان إذا دخل الخَلاء وضع عندها الخاتم تَنزيهاً له أَن يدخلَ بِه[٧] الخلاء لِمَا تضمّن من أسماءِ الله تعالىٰ. فلمّا أراد الله تَعالىٰ سَلْبَ مُلكه تمثّل لها علىٰ صُورة سُلَيمان ـ عليه السلام ـ شَيطانٌ يُسَمّىٰ صَخراً، وأَراها أنّه خارجٌ من الخَلاء فأَعْطَتْه الخاتم فطار به ورمَاهُ في البَحر، فخرج سُليمان ـ عليه السَّلام ـ فطلب منها الخاتم فأخبرتْهُ بما كان من أمره، فعلمَ أنه قد فُتِنَ من أَجلها، فخرجَ علىٰ وجهه إلىٰ الصَّحراء يَبكي ويرغَبُ ويُنيب.

ثم إنَّ الشَّيطان تصوّر علىٰ صورة جَسدِ سُلَيمان ـ عليه السَّلام ـ وقعدَ علىٰ كُرسِيّه الذّي كان يقعدُ عليه لِفَصْلِ القَضاء بين النّاس، وهو معنىٰ قوله ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسداً﴾ أي جسداً مثل جسد سُليمان ـ عليه السّلام ـ وبقي يَخلُفه علىٰ كرسيّه وَيعبث ببني إسرائيل غاية العَبث بأَحكامٍ فاسدة وأوامر جائرة أربعين يوماً؛ حتى وجَد سُليمان ـ عليه السلام ـ خاتمه في

---

(٦) أي أجابها إلى طلبها ووافقها (من قول: نعم).

(٧) في المخطوط «بها» وهو من سهو الناسخ.

بَطِنِ حُوت كان قد التَقَمهُ حين أَلقاه صخرٌ في البحر. فلمّا فطن الشّيطان بذلك فَرّ علىٰ وجهه، فجاءَ سُليمان ـ عليه السلام ـ فأخبروه بما فعَل الشّيطان بعده، فأمر الجِنّ بطلبه فجاؤوا به، فأمر أن يُعمل له بيتٌ منقُوب في حَجر صَلد وجعله فيه وأَطبق عليه بحجر آخر وأَلقاه في البَحر فبقي فيه إلىٰ يوم البَعث.

وهٰذا أَسْلَمُ ما قالوه في قصّته ـ عليه السلام ـ وزاد فيها الفجرة أن الشيطان كان يقع على نساء سليمان ـ عليه السلام ـ. وهُنَّ حُيَّض. ولذا تفطَّنُوا أنّه لم يكنْ سُلَيمان، وحاشىٰ وكلاّ من هٰذه الوَصمةِ الخَبيسة أَن يفعلها الله تعالىٰ مع أَنبيائه ـ عليهم السَّلام ـ وكيفَ، والأُمّة مُجمعة علىٰ أنّه ما زَنت امرأةُ نبيٍّ قَطّ: كانت مؤمنةً أو كافرة. وخيانةُ امرأةِ نُوح وامرأةِ لُوط ـ عليهما السّلام ـ إنّما كانت في إظهارهما الإيمان وإخفائهما الكُفر لا غير. وكُلّ ما ذكروه في هٰذه القصّة تُجُوِّزَ[٨] له علىٰ أَوجه سَنذكرها بعد إن شاء الله تعالىٰ، سوىٰ هٰذه القَولة الخبيثة.

وأما قصّة التّمثال الّذي صُنِع لها، وما قيل أنّه حكم لأَخِيها[٩]، فَيَتَصَّورُ فِيها الجَواز من وَجْهَين:

أحدهما: أَن يكون صنعُ التّمثال مُباحاً له كما كان مُباحاً لِعيسىٰ ـ عليه السّلام ـ قال تعالىٰ[١٠]: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّيْنِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيْهَا فَتكُوْنُ طَيْراً بِإِذْنِي﴾ فصَحّ من هٰذهِ الآية أَنّ عيسىٰ ـ عَليه السّلام ـ كانَ يُصَوِّرُ التّماثيلَ بإذن الله. وكذٰلك سُليمان ـ عليه السَّلام ـ إذا صَحّ أَنّه لم يُحَرَّمْ عَليه فِعْلُه في شَرعه. والأَظْهَرُ فيه أَنّه لم يُحَرّم بدليل قوله تعالىٰ[١١]:

(٨) أي: وقع له التأويل.
(٩) أصل هذه العبارة في المخطوط: «أو ما قال إنه يحكم لأخيها». وقرأتها على الوجه المُثبت.
(١٠) المائدة ٥/١١٠
(١١) سبأ ١٣/٣٤

﴿ يَعْمَلُوْنَ لَـهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيْبَ وتَمَاثِيْلَ ﴾ والتّماثيـلُ قد تكـونُ علىٰ صُوَرِ الأَناسِيِّ(١٢)؛ قال امرؤُ القَيس(١٣):

ويا رُبَّ يَومٍ قد لَهَوْتُ ولَيلةٍ ... بآنِسَةٍ كأنَّها خَطُّ تِمْثَالِ!

وأمّـا إنْ عَبَـدت هي صَنماً من غيرِ أَن يَشْعُرَ به سُليمان ـ عليه السلام ـ فلا بأسَ عَليه في ذلك، فإنَّ الأَنبيـاء ـ عليهم السلام ـ عُنوا بالظّواهر، وأَمْرُ البَواطن إلىٰ الله تَعالىٰ. وقد كان المُنافقون يُصَلُّون خلفَ رسول الله ـ صلّىٰ الله عليه وسلّـم ـ ويَعْبدُون الأَصنامَ في بيُوتِهمْ خِفْيَةً منه. جاء في الصّحيح عنـه ـ عليه السّلام ـ أنّه قال(١٤): «أُمرت أَن أُقاتِلَ النّاسَ حَتّىٰ يَقُولوا لا إله إلاّ الله» الحديث. . . إلىٰ قوله: «وحِسَابهُم عَلىٰ الله» يَعني فيما أَبْطَنُوه.

وأَمّا قولُهم: إنَّها طلبت منهُ أَن يحكمَ لأَخيها علىٰ خَصْمِـه فقال لها: نَعـم، فيَجُوز له أَن يقولهـا وهو يُضْمِرُ في نفسِـه: إذا كان الحقُّ له لا عَليه؛ ثم طَيَّب نفسهـا بِـ(نعم) لكونِ النِّساءِ تَطيبُ أَنفسُهنّ بمثلِ هٰذه المُشْتَبِهَات(١٥)، لضعف عُقولِهنّ وجَهْلِهنَّ بالحقائق. ولا يجـوز في حَقّه سوىٰ هذا، بدليل أَنّـه لـو أَضمر في نفسِـه أن يحكم له؛ والحُكْمُ عَليه(١٦)؛ لوقَع في كَبيرةٍ مُحرّمة؛ وهي أن يَنْويَ أَن يحكمَ بالجَوْر، وحاشَاه مِن ذٰلك، وهو لا يَجُوز عليه ذلك كمـا تَقدّم.

وأَمّا كونُ الشّيطان يَخْلُفه علىٰ كُرْسِيّه ويحكمَ بالبَاطِل، فليسَ علىٰ نَبِيِّ

(١٢) الأَناسي: جمع الإنسان.

(١٣) البيت لامرىء القيس (ديوانه: ٢٧) من قصيدة مشهورة أَوّلها:

ألا عم صباحاً أيها الطلل البالي ... وهل يعمن من بات في العُصُر الخالي

(١٤) في صحيح مسلم١: ٥١ وطد و٥٣، وصحيح البخاريّ ١: ١١:١، وروايته: «. . . حتىٰ يشهدوا أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمّداً رسول الله. . . . . . .».

(١٥) يعني فهمها هي من (نعم) الموافقة المطلقة (بلا شروط) وقصده: نعـم إذا كان الحقّ لـه. وهذا يَدْخُل في المَلاحِـن، والمعاريض، والكلام الذي يحتمل التّأويلين.

(١٦) الـواو في (والحكـم عليه) هي واو الحال.

الله ـ عليه السَّلام ـ لو صحّ في ذٰلك دقيقٌ ولا جَليلٌ[١٧] من الإثم، ؛ وهذا بمثاب عيسى ـ عليه السّلام ـ حين عُبِدَ من دونِ الله، كما جاء في الصّحيح[١٨] عنه ـ عليه السَّلام ـ قال: فَيأتون عيسىٰ ولم يذكرْ ذنباً، فيقولُ: لَسْتُ هناكم وقد عُبِدت أَناْ وأُمّي من دُونِ الله. فامتَنَع عنها[١٩] حَياءً من الله.

ومع ذلك فالخبرُ باطلٌ من وجهٍ آخر؛ وهو أنّه لو جازَ أن يخلفَ النبيّ شيطانٌ علىٰ صورتِه ويستنبطَ في شريعتِهِ أَحكاماً فاسدة، لكان ذٰلك إخلالاً بالنُّبوة إذْ كان يتخيّلُ النّاسُ ذٰلك في سائرِ أَحكامِ الأَنبياء حتىٰ لا يَتمـيّزَ حكـمُ النّبي من حكمِ الشّيطان؛ فيشكلُ الأَمر علىٰ المكلَّفين ولا يتقون أمراً بعد، وهذا بمثابة تقدير خرق العادة علىٰ أَيدي الكذّابين في ادِّعاءِ النُّبوة. وهٰذه **الأُلْقِيّةُ**[٢٠] في هذه القصّة من دَسائسِ البَراهِمة في إبطالِ النُّبوّات والله أَعلم.

وأَمّا ما يليقُ بِسُلَيمان ـ عليه السّلام ـ في بابِ الأَوْلىٰ والمُباح في هذه القِصّة، فهو أَنَّهُ ما كان يقولُ لامرأتِه في طلبِ الحكومةِ لأَخيها: نَعَمْ حتىٰ يَتبيّنَ لهُ الحقّ أو يَتبيّن لها ما أَضْمر، فيقول لها: نَعم، إذا وجَب له الحقّ فيها فإنه لا يَحْكُمُ بجورٍ ولا يَجُوز عليه ذلك.

وأَمّا صنعه لها التمثال علىٰ الوجهِ الذي تَقدّم فمَا عليه في ذٰلك ذنبٌ ولا عَتْب، ولو كانَ أَيضاً صنْعُه مُحَرّماً لما صَنعه لها أَصْلاً. فإنَّ صُنع التّمثال

---

(١٧) أي ليس عليه إثم: لا صغير ولا كبير.

(١٨) انظر صحيح مسلم ١: ١٨٥، وصحيح البخاريّ ٥: ١٤٧ و٢٢٦، ومسند الإمام أحمد بن حنبل ٢: ٤٣٦، والعبارة: «وقد عُبِدْتُ أنا وأمّي من دون الله...» لم ترد في الكتب الثلاثة.

(١٩) أي امتنع عن طلب الشّفاعة.

(٢٠) الأُلقيّة: ما أُلقي. والمقصود ما أُلقي ـ أي ما دُسَّ ـ في قصّة سليمان عليه السلام من أقوال البراهمة، الذين لا يؤمنون بالنبوّات؛ ويبطلونها جملةً. وهذه واحدة من ضلالات الوثنيّة وفي تفسير أبي حيان الغرناطي، وقد جاء بعد مؤلف هذا الكتاب بزمان، أنّ فيما نقله بعض المفسرين في قصة الكرسي أقوالاً يجب البراءة منها، «وهي ممّا لا يحلّ نقلها، وهي إمّا من أوضاع اليهود أو الزنادقة». قال: ولم يبيّن الله تعالى الفتنة ما هي ولا الجسد الذي ألقاه على كرسي سليمان، وذكر كلاماً مشابهاً لما قال المؤلف رحمه الله.

من الكبائِر التي أتىٰ فيها الوعيدُ الكثيرُ في الحـديث المشهور[٢١] في الثلاثة الأصناف الذين تلتقطهم أعناقُ النـار في المَحْشَر.

ومنهم من قال إنّما وقع العتاب عليه من جِهة اشتغالِه بِعَرْض الخَيل عليه حتىٰ غربت الشّمس وفاتته صلاةُ العشاء، وهذا أيضاً إذا صَـحّ فليسَ له في تَركهـا كسبٌ ولا عُلْقَةُ طلب[٢٢]، فإنه ناسٍ، والنَّاسِي لا طلبَ عَليه فيمـا نَسِيه، بالإجماع، قال تعـالىٰ مُخبراً عـن مُوسىٰ ـ عليه السـلام ـ أنّه قال[٢٣]: ﴿لَا تُؤاخِذْنِي بما نَسِيْتُ﴾ وجاءَ عنه ـ عليه السَّلام ـ أنـه قال[٢٤]: «إنّما أنا بشَرٌ كمـا تَنْسَوْن».

ومنهم مـن قـال: «إنّما كانت وَهْلَتُه[٢٥] لِمَا وردَ بِهِ الخبرُ[٢٦] في قوله: لأُطِيفنَّ اللّيلةَ بمئةِ امرأةٍ تلدُ كلّ امرأةٍ غُلامـاً يقاتلُ في سبيـل الله، فقالَ له صاحبِهِ: قل إن شـاء الله، فلم يَقُل ونَسِي؛ فأَطاف بهنّ ولـم تلد منهنّ إلا امرأةٌ نصفَ إنسان»! قال النبيّ ـ عليه السلام ـ لو قال إن شاء الله لم يَحنث وكان أرجى لحاجته.

(٢١) في مسند أحمد ٢: ٣٣٦ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وسلّم: «يخرج عنـق من النـار يوم القيامة، له عينان يبصر بهما، وأذنان يسمع بهما، ولسـان ينطق به، فيقـول: إنّي وُكِّلت بثلاثة: بكلّ جبّار عنيد، وبكلّ مَـن ادّعىٰ مع الله إلهاً آخر، والمصوّرون».

(٢٢) ليس له عُلْقَةُ طلبٍ: أي ليس عليه شيء من المؤاخذة.

(٢٣) الكهف: ١٨/٧٣.

(٢٤) صحيح مسلم ١: ٤٠٢

(٢٥) الوهل: السّهو، والغلط، والنّسيـان.

(٢٦) في حديـث أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلـم قـال سليمان لأطوفنّ الليلة على تسعيـن امرأة كلّها تأتي بفارس يقاتل في سبيل الله. فقـال له صاحبه قـل إن شاء الله، فلـم يقل إن شاء الله فطاف عليهنَّ جميعاً فلم تحمل منهنّ إلّا امرأة واحدة جاءت بشقّ رجل! وايم الذي نفس محمّـد بيده لو قال إن شـاء الله لجاهدوا في سبيـل الله فرساناً أجمعون». صحيح مسلم: ١٢٧٦.

قالوا: وهو الجَسدُ الذي أُلقي علىٰ كُرسِيِّه(٢٧). وهٰذا يعضدهُ الخبرُ الصّحيح. ويُتَصوّر العتابُ فيه مِنْ تَرْكِ الاستثناء فإنّه أولىٰ. فإنْ كانَ تَرَكَهُ بعدما أُمِرَ بهِ، فتركَهُ ناسياً.

وقد ذكر المُفَسّرون أنّ النبيَّ ـ صلىٰ الله عليه وسلّم ـ لمّا طلب منهُ اليَهود أن يُخبرهم عن قِصّة أصحابِ الكهف، فقال: غَداً أُخبركم بِها ونَسِي الاستثناء أبطأ الوحيُ عنه أيّاماً حتّىٰ نزلت عليه القِصّة. وقيل له مع ذٰلك(٢٨): ﴿ولا تَقُوْلَنَّ لِشَيْءٍ إنِّيْ فَاعِلٌ ذٰلِكَ غَداً.إلاّ أَنْ يَشَاء الله وَاذْكُرْ رَبَّكَ إذَا نَسِيْتَ﴾ معناه: إذا نسيت الاستثناء ثم تَذكّرت فاستَثْنِ بالمَشِيئة. وفي هٰذا أنّ الاستثناء بعد مُدّة يَرفَعُ الحَرَج ولا يرفَعُ الكَفّارة. ولِذا أَجازه ابنُ عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ بعد سنة(٢٩).

فخرجَ من عُموم ما ذكرناه في جميع القِصّة أن العِتابَ من الله تَعالىٰ لسليمانَ ـ عليه السلام ـ إذا صحّ إنّما كان علىٰ تركه الأَوْلىٰ من المُبَاحات.

والأَظهر في هٰذا الحديثِ أنّه تَرك مندوباً إليه، ومَنْ ترك المندوبَ فلا إثْمَ عليه، فهو بمثابة تَرك المُبَاح في نَفِي الذّنب كما تَقدَّم، والله المُوَفّق للصَّواب.

---

(٢٧) وقيل في (الجَسَد) المذكور أقوالٌ منها:
ـ أن الجسد هو آصف بن برخيا الصدّيق كاتب سليمان.
ـ وقيل هو سليمان عليه السلام نفسه، وذلك أنه مرض مرضاً شديداً حتى صار جسداً. وقد يوصف به المريض المضنى فيقال: كالجسد الملقى.

(٢٨) الكهف: ١٨/٢٣ ـ ٢٤
وفي كتب التفسير وأسباب النّزول ـ والعبارة في القرطبي ١٠/٣٨٥ ـ: عاتب الله تعالى نبيه عليه السَّلام على قوله للكفار حين سألوه عن الرُّوح والفتية وذي القرنين: غداً أخبركم بجواب أسئلتكم ولم يستثن في ذلك. فاحتبس الوحي عنه خمسة عشر يوماً حتى شقَّ، ذلك عليه وأرجف الكفار به فنزلت سورة الكهف مفرّجة.

(٢٩) حكي عن ابن عباس (رض) أنه إن نسي الاستثناء ثم ذكر ولو بعد سنة لم يحنث إن كان حالفاً. قال القرطبي: وهو قول مجاهد.

شَرْحُ قِصّة يُوسف(*) عَلَيه السلام

في إضافَةِ الله تَعالىٰ لَهُ الهَمّ عند مُراودةِ امرَأَةِ العَزيز له عن نَفْسِه، والـذي ينبغي أَن نقدّمَ أَوّلاً، الإعلامُ بأَنّ يوسف ـ عليه السَّلام ـ كان نبيّاً قـبل المُراوَدة والهَمّ؛ والدَّليلُ علىٰ ذلك أنّـه لو لم تَثبِتْ نُبوّته قبلَ ذلك لم تهتـمّ الأُمّـة بـذكر هَمّـه، لأنّ العِصمةَ المُجْمَع عليها لا تُشترط للنّبيّ إلا بعد ثُبوت نبوّته لا قَبلها. ومع ذٰلك فإنّ النبيَّ لا تَثبتُ لهُ معصيةٌ مشروعٌ تركُها قبل النّبوة ولا بَعدها. وسَنُشبِعُ القَول في ذٰلك في قصّة آدم ـ عَليه السّلام ـ إن شـاء الله تعـالىٰ.

وأمّـا إثباتُ نُبوّته قبلَ هَمّه من الكِتـاب فمن قـوله تعـالىٰ(١): ﴿وَلَمَّـا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وعِلْماً﴾.

وأَجْمَعُوا علىٰ أَنَّ هٰـذا الحكمَ والعلمَ في حـقّ يوسف ـ عليه السلام ـ أنهـما النّبوة(٢)، ثمّ قـال تعـالىٰ بعدما ذكرَ الحُكم والعِلم(٣): «﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي

(*) قـصة يوسف عـليه السـلام في تنـزيه الأنـبياء للشريف المرتـضى: ٤٦، وعـرائس المجـالس: ١١٨، وابن كـثير: ١: ٣١٧، وتـفسير الطبريّ ١٢: ١٠٦، وتـاريخ الطبريّ ١: ٣٣٧، وتفسير القرطبيّ ٩: ١٦٢.

(١) يـوسف: ٢٢/١٢

(٢) ومن قـال إنه أُوتـي النبوّة صغيراً قـال: لمّـا بلغ أشدّه زدنـاه فهماً وعلماً. وقـال ابن عطية الأنـدلسي صـاحب المحـرّر الوجيز: إن كـون يـوسف (ع) نبـيّاً في وقـت هذه النـازلة لم يصحّ، ولا تظاهرت به روايـة. وإذا كـان كـذلك فهـو مؤمـن قـد أوتـي حـكماً وعـلماً. ويجـوز عليه الهـمّ الـذي هـو إرادة الشيء دون مواقعته وأن يستصحـب الخـاطر الرديء على ما في ذلك من الخـطيئة، وإن فرضنـاه نبيّاً في ذلك الوقت فلا يـجـوز عليه عندي إلاّ الهـمّ الذي هـو خـاطر. ولا يصح عليه شيء مما ذكر من حـل تكـته ونحـوه لأن العصمة مع النبوة. قـال القرطبي: لكن قـوله تعـالى: ﴿وأوحـينا إليه﴾ يـدل على أنه كـان نبياً... وإذا كان نبيّاً فـلم يـبق إلا أن يـكون الهـمّ الـذي هـمّ به ما يخـطر في النفس ولا يثبت في الصـدر، وهـو الـذي رفع فيه الله المؤاخـذة عن الخـلق...

(٣) يـوسف: ٢٣/١٢.

هوَ فِي بَيْتِها عَن نَّفْسِهِ﴾». الآيـة.

وأَمّا هَمُّه فأَوّل ما ينبغي أنْ نُقدمّ أَنّ الهَمَّ في اللِّسان: الإرادَة لا غير، فإنْ سُمّي الفعلُ هَمّاً فمَجازٌ من باب تَسميةِ الشَّيء باسمِ الشَّيء إذا قارَبَه أو كانَ منهُ بِسَبب. فلمّا كانت الأَفعالُ مرتبطةً بالإرادة التي هي الهَمُّ سُمّيت هَمّاً. فَيُقال لمن نصَب أَوانِي الخَمر وما يحتاجُ إليه شرابها: هَمّ، وكذلك يُقال لِمَن خَلاَ بامرأةٍ فلاَعبها؛ وذٰلك لأَنَّ الهَمَّ الحقيقيَّ مَحلُّه القلب؛ وهو غير مَحسوس، فلما لم نُدركه بالحواسّ لم نَعلمه، فإذا أَدركنا أَسبابَه الدالَّة عليه بالحواسّ قلنا: هَمَّ، أي فعلَ أَفعالاً دلّت علىٰ هَمِّهِ بها في باطنِه، فثبتَ أَنّ الهَمّ الحقيقيّ هو الإرادَةُ لا الفِعل.

جاء في الصحيح عنه ـ عليه السّلام ـ أنه قال[٤]: «مَن هَمّ بِحَسنةٍ فلَم يَعملها كُتبت له حَسنة، فإنْ عَمِلها كُتبت له عَشراً. ومن همّ بسيّئةٍ فلم يَعملها لم تُكتب شيئاً، فإن عَمِلها كُتِبَت سيّئة واحِدة» الحَديث.

فهذا أدلُّ علَىٰ أَنَّ الهمّ غيرُ الفِعل، قال الشاعر[٥]:

هَمَمْتُ ولمْ أَفعلْ وكِدْتُ وَلَيْتني　　تركتُ علىٰ عُثمان تَبكي حَلائِلُهْ!!

فأَخبر أَنّه همَّ ولَم يَفْعل[٦]، وإذا كان هٰذا هكذا فما بالُ الجَهَلة باللِّسان المُقَلِّدين المُجازِفين في الحَقائق يقولون: قَعد منها مقعدَ الرَّجلِ من المرأة، وحلّ عَقد نطاقِها وهو ينظرُ إلىٰ أَبيهِ تارةً وإلىٰ المَلِك أُخرىٰ ثُمَّ يعودُ لِحَلّ العَقد!!

---

(٤) في صحيح مسلم ١: ١٤٧ في حديث الإسراء.

(٥) البيت لضابىء بن الحارث البرجميّ، في الكامل في الأدب: ٤٩٦، ٥٠٣، وانظر تخريجاته.

(٦) في اللسان: الهمّ: (ما همّ) به في نفسه.
وهمّ بالشيء: نواه، وأراده، وعزم عليه.

ونحنُ مع ذٰلك نَعْلَمُ قَطعاً أَنّ أحدَنا؛ علىٰ جَهلنا وعدمِ عصمتنا وسُوء أَدبنا؛ لو كان علىٰ تلك الحالة وكشفت عليه أَمَتُهُ لانْقَبَض وتغيَّر عليه حالُه، فكيف بنا إذا كشف علينا آباؤنا وكُبَراؤنا؟! فكيفَ الملائكة؟!

فانظرْ إلىٰ مَقْتِ هٰذه القَوْلة وماذا جَمعت من الاجتراء والافتراء علىٰ أنبياء الله تعالىٰ، مع صفَاقةِ الوجوه وعدم الحَياء، والتّهاون بذكر المُصطفين الأخيار. وقد ذكرها الهَمداني وغيره[٧] في شرح قصّة يُوسف ـ عليه السلام ـ مع أَنَّ الهمّ في اللّسان: هو الخَاطر الأَوّل، فإذا تَمَادىٰ سُمّي إرادة وعَزْماً، فإنْ لم يعترضْهُ نقيضُ سُمِّي نِيَّة. ثم إنَّ الله تعالىٰ وصَفه بالخاطر الأَوّل فقال: ﴿همَّ﴾ وهُمْ يقولون: فعَلَ وصَنع! لا لَعاً[٨] لِعَثْرتهِمْ ولا سَلامة!

فصل

فإن قيل: فما الحقّ الذي يُعَوّل عليه في هٰذا الهمّ؟!

فنقول؛ أَوّلاً: إنّ بعضَ الأئمّة ذكروا أَنّ الإجماع منعقدٌ علىٰ عصمةِ بواطنهم من كُلّ خاطر وقَع فيه النَّهي. وللمحقّقينَ أَقوالٌ في هذا الهمّ نذكر المختار منها إن شاء الله تعالىٰ.

فمنهم من قال: إنّ في الكلامِ تَقديماً وتأخيراً، وترتيبُه أن يكون: ولقد هَمّت به، ولولا أن رأىٰ برهانَ ربّه لَهمّ بها. ويكون البُرهان هنا النُّبوّةَ والعِصمةَ وما كاشفَ من الآيات وخَوارق العادات. والتّقديمُ والتّأخير في لسان العرب سائغ.

(٧) وهي شائعة في كتب التفسير، تُذكر من المفسّرين بين سرد وتلخيص، وردّ واعتراض، وحاكمها كثير منهم؛ وردّها بجملة من وجوه الاعتراض.

(٨) العرب تدعو على العاثر فتقول: لالعاً لكَ؛ أي: لا أقامك الله. وتدعو له فتقول: لعاً لك؛ أي: أقامَ الله عثرتك.

ومنهم من قال: هَمّ بِحُكم البشريّةِ مع الغَفَلة عن ارتكابِ النّهي. ثم ذَكّره الله تعالى الإيمان وتحريمَ المَعصية وشُؤمَها والوعيدَ عليها؛ وهو البرهانُ الأعظم فَصَرف عنه السُّوء والفَحشاء، ولذا قال بعضُهم: هَمّ وما تمّ؛ لأن العنايَة من ثَمّ!

ومنهم من قال: كاد أن يهمّ لولا العِصْمَةُ السَّابقة، فيكون الهمُّ هنا مجَازاً.

ومنهم من قال: همَّ هَمَّ الفُحوليّة، وذلك أنه كان ـ عليه السلام ـ فحلاً شابّاً خلَت به امرأةٌ ذاتُ جمالٍ وغُنج، وطالَبَتْه تلك المطالَبة، فاهتزّ هزّة الفحلِ بهزٍّ ضَرُوريٍّ غيرِ مُكتسب[٩]، فسُمّي ذٰلك الاهتزازُ هَمّاً لكونهِ من أسبابِ الهمّ كما تَقَدّم. ويكونُ الهمُّ علىٰ هٰذا التّفسير ضروريّاً ولا طَلَب في الضّروريّات، وأقولُ إنه إنْ كانَ همّ مُكْتَسِباً لهمّه ولم يفعل فلا لَوْمَ ولا ذَنْبَ؛ بدليل الحديث المتقدّم الذي منهُ قوله ـ عليه السّلام[١٠] ـ «ومَنْ هَمّ بسيّئةٍ فلم يعملها لم تُكتب شيئاً» معناه: لم يُكتب له صغيرةٌ ولا كَبيرة. وجاء في حديثٍ آخر[١١]: أنّ تارك الخطيئة من أجلِ الله تُكتب له حسَنة، بدليل قوله تعالىٰ للملائكة: اكْتُبوها له حسَنة فإنما تركَها من جَرّاي، أي من أجلي. وهذا ينظرُ إلىٰ قول الله تعالىٰ[١٢]: ﴿فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ الله سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ وإذا كان هٰذا في حق الرعية،

(٩) هو ما يدعى الطبيعي والغريزي.
ـ وقوله: لا طَلب: أي لا مؤاخذة.
(١٠) سبق الحديث.
(١١) في صحيح مسلم ١: ١١٨ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّه قال: «قالت الملائكة: رَبِّ! ذاكَ عبدُكَ يريد أن يعمل سيِّئةً (وَهُوَ أَبْصَرُ به)؛ فقال: ارْقُبُوه، فإن عَمِلَهَا فاكتبوها له بمثلها، وإن تركها فاكتبوها له حسنةً، إنَّما تَرَكَهَا مِنْ جَرَّايَ».
(١٢) الفرقان: ٢٥/٧٠

فالأنبياءُ ـ عليهمُ السَّلامُ ـ أَولىٰ بهٰذا التَّرك لا محالة، كيفَ وقد أثنىٰ الله تَعالىٰ عليه ونزّهه بقوله عندما قالت[١٣] ﴿هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ الله إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾. فهٰذا مما يَدُلُّ علىٰ أنّه تركها من أجل الله، وأنه مأجورٌ في تركها.

وإذا كان هٰذا فلا ذَنْبَ ولا عَتْبَ يلحَقُ يوسف ـ عليه السلام ـ صغيراً ولا كبيراً، بل يكون مأجوراً في التَّرك.

فهٰذه أقوالٌ تُشَاكِهُ[١٤] الصَّواب وتليقُ بالأكابر.

والأَظهَرُ القولُ الأخير من هٰذه الأقوال لكونه معضُوداً بالخَبرِ والآية. والله أعلم.

فإن قيل: فإذا لم يُتَصَوَّر في حقّ يُوسفَ ـ عليه السَّلام ـ ذنبٌ ولا عَتبٌ فلأيّ شَيءٍ قال بعدما أَنصفَتْهُ امرأةُ العزيز وأَقَرّت بِفعلها[١٥]: ﴿وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِيْ إِنّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إلاّ مَا رَحِمَ رَبِّي﴾.

قلنا: ومن أَين لكَ أَن تقولَ إنّه قالها والآيةُ تَقتضي أَنّها من قول امرأةِ العزيز وذٰلك أنّه لمّا تأدَّب معَها بآداب الأَحرار حيث قال لِرسول الملك[١٦]: ﴿ارْجِعْ إِلىٰ رَبِّك فَاسأَلْهُ ما بالُ النِّسْوَةِ اللاّتي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾؛ فَخَلطها مَعهُنّ وذكرَ فِعلهُنّ وأَضرب عن ذكر فعلها تَنَاصَفت[١٧] هي وأَقَرَّت بأنّها رَاوَدَتْهُ فقالت: ﴿وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي﴾.

علىٰ أنّه لو ثَبَتَ أنّه قالها لخرَجت له أحسن مخرج؛ وذٰلك أنّه لمّا

(١٣) يوسف: ١٢/ ٢٣.
(١٤) أي تشابهه.
(١٥) يوسف: ١٢: ٥٣
(١٦) يوسف: ١٢: ٥٠
(١٧) وقفت موقف الإنصاف.

أَنصفتْهُ بإقـرارها وتبرئتـه قـال هـو: ﴿وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِـي﴾ علىٰ أَصلِ الجِوَارِ لا عَلىٰ نَفْسِ الوقوع، كما قـال الخليل ـ عليه السَّلام ـ[١٨] ﴿وَاجْنُبْنِيْ وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُـدَ الأَصْنَـامَ﴾ وهـو قد أَمِـن بالعِصمةِ من عِبادَتها، وقـال تعـالىٰ[١٩] لنبيّنـا ـ عـليه الصّلاة والسلامُ ـ ﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْـكَ﴾ وهـو تعـالىٰ قد شاء أَلّا يُذهـبه. والعِصمـةُ والنَّزاهـة له علىٰ كمالها.

فليتَ شِعري إذا كـان للتّأويل في هٰـذه القصـة وأَمثـالها مَجـرًى سحـب[٢٠]، ومجـالٌ للسَّلامـة رَحـب[٢١]، فما بالُهـم يُضَيِّقُـون هـذا الوَاسِع لولا الفضـول؟!

---

(١٨) إبـراهيم ٣٥/١٤

(١٩) الإسـراء ٨٦/١٧

(٢٠) سَحَبَ الشيء سَحْباً: جَرَّه؛ وأراد بقـوله: «مَجْرًىٰ سَحْب» أي يـطول الجـريُ فيه.

(٢١) المجـال الرَّحْب: الواسع.

شرح قصّة نبيّنا
عليه الصلاةُ والسلام(*)

مع زَيد وزينب في قوله تعالىٰ[١]: ﴿وَإِذْ تَقولُ لِلَّذِيْ أَنْعَمَ الله عَلَيْهِ وأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ واتَّقِ الله، وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ ما الله مُبْدِيْهِ وتَخْشَىٰ النَّاسَ والله أَحَقُّ أَن تَخْشَاه﴾. إلىٰ قوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ الله مَفْعُوْلاً﴾.

هٰذه من القِصص التي ٱمْتُحِن بها عَوامُّ هٰذه الأُمة ومُقَلِّدُوهُم المجازِفُون المُقتفون ما ليسَ لهم بِه علم!

والقصّة بحمدِ الله أَشْهَرُ وأَظهرُ من أَن يُتَقَوّل فيها بِزُور أو يدْلَى بِغُرور، والأَوْلىٰ أَن نقدّمَ ما صَحّ من القِصّة ثم نَرجع إلىٰ شَرح الآية.

والّذي صحَّ منها أَنّ المرأة هي زينبُ بنتُ جحش بن أُميمة بنت عبد المطلب جد رسول الله ـ صلّىٰ الله عليه وسلّم ـ وأَما بعلُها فهو زيدُ بن حارثة مولىٰ رسول الله ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ ومُعْتَقُهُ. وكان رسول الله ـ صلىٰ الله عليه وسلّم ـ قد رَبّاه وتَبَنَّاه، وكان يُسَمّىٰ ابنَ رَسُول الله حتّىٰ أنزل الله تعالى[٢]: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُم ذٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْواهِكُمْ﴾ فنفىٰ البُنُوَّة بالدعوىٰ وقال[٣]: ﴿ادْعُوْهُمْ لآبائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ الله﴾. الآية. فلما أَدرَكَ زَوَّجَه رسولُ الله ـ صلّىٰ لله عَليه وسلّم ـ زَينب المذكورة. وبقي مَعها حتّىٰ أَمَر الله تعالىٰ نبيّه ـ عليه السّلام ـ أَن يتزَوَّجَها أَو أَخْبَرُهُ بِهِ كما سيأتي في شرح الآية إن شاء الله تعالىٰ.

(*) قصة نبينا صلى الله عليه وسلم مع زيد، وزينب: في تنزيه الأنبياء، للشريف المرتضىٰ: ١٠٩، وتفسير الطبري ١٢: ١٠، وتاريخ الطبريّ ٢: ٥٦٣، وتفسير القرطبيّ ١٤: ١٨٨.

(١) الأحزاب: ٣٧/٣٣

(٢) الأحزاب: ٤/٣٣

(٣) الأحزاب: ٥/٣٣

ومـا تَقَوَّلَهُ المُنَافِقـون والجَهلةُ المُجَازِفُون من أَنّ رسول الله ـ صَلّى الله عَليه وسَلّم ـ رآها وأحبَّها وشُغِفَ بِحُبّها حتىٰ كان يضع يـده علىٰ قَلبِه ويقـول: يا مُقَلِّبَ القُلوبِ ثَبِّتْ قلبَ نَبِيّك! ؛ ويدخُل عليه زيدُ المسجـد ويقـول: «اِدْنُ منّي يا زيد» ؛ شَوقاً إليها! ؛ إلىٰ غير ذلـك من هَذَياناتٍ لا يَرْضَاهـا صُلَحاء المُسلمين لأنفسهـم فكيفَ سيِّد المرسلين!؟[٤] فكلّ ذلـك باطلٌ مُتَقَوَّل.

وكـذلك قَوْلُهم إنّه ـ عليه السّلام ـ رآها فأحَبَّها؛ تَخَرُّصٌ وزُور، وكيفَ وقد تَربَّت في حِجْرِ رسُول الله ـ صلىٰ الله عليه وسلّم ـ حتىٰ زَوّجها لزيد، علىٰ أنَّه لو أَحبّها كما اخْتَلَقُوه لم يُـدركه في ذلك لومٌ فإن الحبَّ أمرٌ ضروريٌّ لا يـدخلُ تحت الكَسب؛ جاء عنـه ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ أنه قـال[٥]: «اَللّٰهمّ إنّي عـدلتُ فيما أملكُ فاغفرْ لي ما لا أَملك». يعني: عدلت فيما أكسب فاغفرْ لي ما لا أكسب، فَلَمْ يَكْرَهِ العُقـلاءُ الحبَّ إلاّ لِمَـا يكونُ معـه للمحبّين من الطَّيشِ، والمَيل، والذكر بما لا ينبغي، وطلـب الظَّفر بالمحبُوب علىٰ الـوجوه الفاسدة.

وهٰذه الأُمور كلها لا تليقُ بصلحاء المسلمين، فكيـف بسادات المرسلين المعصُومين ممّـا دون ذٰلك كما تقدم؟!

جـاء في الأَثر: أن رسول الله ـ صلىٰ الله عليه وسَلّم ـ مَرَّ برجلٍ يُنشد[٦]:

أَقْـبَـلْت فَـلاحَ لَـهـا عَـارِضَـان كـالسَّـبَجِ

---

(٤) تنظر في المطوّلات من كتب التفسير؛ ومنه في القرطبي ١٤/١٨٨ ـ ١٩٦

(٥) ورد الحديث في مسند الإمام أحمد ٦: ١٤٤ برواية أُخرىٰ، من حديث عائشة رضي اللّٰه عنها، قالت: «كان رسول اللّٰه صلّىٰ اللّٰه عليه وسلّم يَقْسِمُ بين نسائِهِ، فيَعْدِلُ... ثمّ يقول: اللّٰهمّ هـذا فعلي فيما أملك، فلا تَلُمْني فيما تملك ولا أملك».

وقول المؤلّف: «فإنّ الحبّ أمرٌ ضروريّ» أي فِطريّ.

(٦) الخبر والشعر في الرسالة القشيرية: ٣٣٨ ـ بتحقيق معروف زريق وعلي عبد الحميد بلطه جي؛ وورد البيت الثالث في العقد الفريد ٦: ٨.

أَدْبَرتْ فَقُلْتُ لَهَا والفُؤادُ في وَهَجٍ
هَلْ عَليَّ وَيْحَكُمَا إن عشقتُ من حَرَجٍ ؟!

فقال له رسول الله ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ لا حَرجَ إنْ شاء الله، معناه: لا حَرج عليك إن كنتَ تكتمُ وتَصْبِرُ ولا تُؤذي محبوبَكَ بقولٍ ولا بِفعل، ولا يشغَلُكَ حُبُّه وذِكره عَمّا فُرِضَ عَليك.

ومصداقُ هٰذا الشّرح ما جاء عنه ـ عليه السَّلام ـ أنّه قال(٧): «مَنْ عَشِقَ وكَتم وعَفّ وماتَ ماتَ شَهيداً» وسببُ شَهادته أنّ النّفس الأمّارة بالسُّوءِ تُحِبُّ الشّهوة والتَّشَفِيّ بالفعل، فيحاربها الوَرِعُون المتّقُون بالكتمان والعَفاف حتىٰ يقتلهم.

وعلىٰ هٰذا مضت العادات وتناظَرت الحكايات، ولولا قَصْدُ الاختصار لأسمعتك في هذا الشّأن أخباراً وأشعاراً عن ظُرَفاء المُحِبّين المُتَدَيِّنين، وأهل الهمم من فتيان العرب. فقد قيل: إن قَيْس بني عامر(٨) تعرَّضَتْهُ ليلىٰ بأرضٍ فلاة فقالت له: ها أنا بُغْيَتُكَ ومَثار فِتنتك، ليلىٰ! جئتك ولا رَقيب ولا واسطة فاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ!

فقال لها: بِي منك ما شَغَلَنِي عَنْكِ! ثمّ سارَ وتركها. فَهٰذا من ظرفاء المُحِبّين.

وآخر رأىٰ غُبارَ ذيلِ(٩) محبوبه فَغُشِي عليه فهٰذا أظرف منه، إلىٰ غير

---

(٧) في الفتح الكبير، للسّيوطيّ ٣: ٢١٢: «مَنْ عَشِقَ فَكَتَمَ وَعَفَّ فَمَات فهو شهيد».

(٨) قيس بن الملوّح العامري، أحد بني عامر بن صعصعة، ومن مشاهير عشّاق العرب، عَشِقَ ليلىٰ بنت مهدي العامريّة، وكان يرعىٰ الغنم منذ الصِّغر عند جبل يقال له «التّوباد»، وقال فيها الشعر، وذاع شعرهُ فمنعه أهلها الاقتراب من ديارهم واستَعْدَوْا عليه الوالي، فأهدَرَ دَمَهُ إن زارها؛ وخَطبها فرفض أبوها، وزوّجها من رجل غنيّ من ثقيف فاختلط قيس، فكان يجيء جبل التوباد فيقيم به ثمّ يهيم على وجهه، ثمّ وُجِدَ ميتاً في أحد الأودية؛ وللمجنون ديوان شعر مطبوع بتحقيق الاستاذ عبد السّتّار فرّاج ـ رحمه الله ـ نشرته (مكتبة مصر) بالقاهرة.

(٩) غبار ذيل ثوبها.

ذلك. وجاء في الأَثر: أَنّ علياً ـ كَرّم الله وجهه ـ كانت له جاريةٌ تتصَرَّف في أشغاله. وكان بإزائه مسجدٌ فيه قَيّم، فكانت متىٰ مرّت به تلك الجارية قال لها: أَما إني أُحِبُّك، فشقّ عليها ذلك فأخبرَتْ عَلِيّاً ـ رضي الله عنه ـ بذلك، فقال لها: إذا قال لك ذلك فقولي له: وأَنا أُحِبُّكَ فأَيش تُريد بعدَ هٰذا[١٠]؟!

فلمّا مَرَّت به قالت له ذلك، فقال: نصبرُ حتّىٰ يحكمَ الله بَيننا. فلمّا أخبرت علياً ـ عليه السلام ـ بما قال لها دعَا بهِ وقال له: خُذْها إليك فقد حكمَ الله بينكما! فهذا شأنُ الظُّرفاء والمُتَدَيِّنين من المُحِبِّين.

ومع هذا فالرَّسول ـ عليه السّلام ـ أشرفُ وأَسْنىٰ من أن يُمتحن بمثل هذه النَّقيصة، ومع ذلك فما صَحّ أَنّ رسول الله ـ صلّىٰ الله عليه وسلم ـ أَحبّها ولا شُغِفَ بها في كِتابٍ ولا سُنّة سوىٰ ما تخيّله[١١] الجهلة، وكُلّ ما رَوَوْهُ في ذٰلك عن الصَّحابة فكذبٌ وزُور وجَهْل بِمُقتضىٰ الآية ومنصبِ النُّبُوَّة، وتخرّصٌ من أَهلِ النّفاق، وها أُبيّنُ لك ذٰلك في سياق الآية إنْ شاء الله تعالىٰ.

فصل

قال الله تعالىٰ[١٢]: ﴿وإِذْ تَقُوْلُ لِلّذي أَنْعَمَ الله عَلَيْهِ وَأَنْعَمتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ الله﴾.

ذكر بعضُ المفسّرين في أَشْبَهِ الأقوال أن قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ تَقُولُ﴾، تنبيهٌ من الله تعالىٰ لنبيّه ـ عليه السَّلام ـ علىٰ وجه العتاب في قوله لزيد: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾، وأقول إنّه تنبيه لنبيّه ـ عليه السَّلام ـ ليتهيّأ لفهم الخِطاب من غير عتاب، وهو الأَظهَرُ والأَوْلىٰ.

---

(١٠) فايش: فأيّ شيء.. (وهذا اختصار قديم من باب النّحت).
(١١) ما تخيّله الجهلة: من خيالهم المريض. وفي المخطوط بالحاء المهملة «تحيّله» ولها وجه أيضاً. ورجّحت الخاء المعجمة.
(١٢) الأحزاب: ٣٧/٣٣

وبذا تناصرت الآيات كقوله تعالىٰ[١٣] ﴿ إذ ابْتَلىٰ إبْرَاهِيْمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ ﴾ وقوله[١٤] ﴿ وَإذْ قُلْنا للمَلائِكةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ إلىٰ غير ذلك من الآي.

وأما قوله تعالىٰ[١٥]: ﴿أَنْعَمَ الله عَلَيْه﴾. ففي هذا الخبر معجزةٌ للرّسول ـ صلّىٰ الله عليه وسلم ـ وكرامةٌ لِزَيد، لكنّها من أعزّ الكراماتِ وأشرفها.

فأمّا المُعجزة فهي من باب إخباره ـ عليه السَّلام ـ بالغُيوب فتَقع كما أَخبر عنها. وذلك أَنّ الإنعام ها هنا إنّما هو في أَنْ وهَبه الله تعالىٰ إيماناً لا يُفارقه إلىٰ المَمات، إذْ لو كان في معلوم الله تعالىٰ أن يسلُبَه إيّاه عند الوفاة لم يسمّه نعمة، فإنّ ثمرة الإيمان إنما تُجتنىٰ في الآخرة، وإيمان زائلٌ لا ثمرةَ له في الأخرة ولا يُسَمّىٰ نعمةً بل هو نقمة. كإيمان بلعم بن باعُورا[١٦] وغيره من المخذُولين المبدّلين، نعوذ بالله من بَغتاتِ سخطه.

فخرج من فحوىٰ ذكر هذه النّعمة أَنّ زيداً يموتُ مؤمناً. فكانَ ذلك وزيادة. أنّه ماتَ أَميراً شهيداً مُقْدِماً بين الصَّفّين، في يوم مُؤتة. كان قد قدّمه رسول الله ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ علىٰ الجيش في حديث يطول ذكره؛ ثم قُتِل شَهيداً فنزل الوحيُ علىٰ رسول الله ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ فصعد المِنبر

---

(١٣) البقرة: ١٢٤/٢

(١٤) البقرة: ٣٤/٢ وفي سُور أُخَر.

(١٥) الأحزاب: ٣٧/٣٣

(١٦) بلعام بن باعوراء كان أيام موسى عليه السَّلام. قال القرطبي ٣١٩/٧ كان في مجلسه اثنتا عشرة ألف محبرة للمتعلّمين الذين يكتبون عنه. ثم صار بحيث أنه كان أول من صنّف كتاباً في أن: ليس للعالم صانع! وقال مالك بن دينار: بُعِث بلعام بن باعوراء إلى ملك مَدْيَن ليدعوه إلى الإيمان فأعطاه الملك وأقطعه فاتّبع دينه وترك دين موسى؛ ففيه نزلت هذه الآيات (يعني الآيات ١٧٥ ـ ١٧٧ من سورة الأعراف).

فحمد الله وأثنىٰ عليه ثم قـال(١٧): «أخذ الرّاية زيدُ فأُصِيب، إلىٰ قوله: لقد رُفِعوا لي في الجنة علىٰ أَسِرّةٍ من ذَهب». الحديث.

فهٰذه معجزة صَحَّت لهُ ـ عليه السّلام ـ من بـاب الإخبار بالغُيوب، فوقعـت بمحضر الأشهاد كما أخبر عنها، وكمـا وقع نقيضُها في قصّة أبي لهب(١٨) حيث أخبره ربه في قرآنٍ يُتلىٰ أنّه من أهلِ النّار، ومـاتَ كافراً فكانَ ذٰلك.

وأمّا كرامَةُ زَيد فبإعلام الله له في ضِمن الآيـة بسلامةِ العاقبة كما ذكرناه.

وأمّـا تصوّر العِتَاب إن صحّ في قوله: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ فقد يقع من باب ترك الأَوْلىٰ من المُبَاحات كما تَقدّم، وذلك أنّ الله تعالىٰ أمره بزواجها أو أخبره بـه حيـث قـال له في آخر الآية(١٩): ﴿وكَانَ أَمْرُ الله مَفْعُولاً﴾ وسيأتي بيانُ ذلك الأمـر عند فراغنا من شـرح الآية إن شـاء الله تعالىٰ.

وأما سببُ قولـه له أمسكها فهـو أن زيداً جاءه يتشكّىٰ لـه بها، فقال: يا رسـول الله زينب تَسُبُّني وتَستعلي عليَّ وتُعَيِّرُني وتَفْخَرُ عَليّ بِشَرَفها، إلىٰ غير ذلك، وأريد أن أُطلّقها.

فقد ربما كان الأولىٰ أن يقول لـه ـ عليه السّلام ـ مثلاً: أنت وشأنُكَ! أو ما يَقْرُبُ من هٰـذا من الأقوال، أو يسكت عنـه فلا يأمـره ولا يَنْهَاه لكونه ـ عليه السّلام ـ قد أمره الله تَعالىٰ بِتزويجها أو أخبره بذلك، فقـال له: أمسكها. والأَظْهَرُ أنّه قصد ـ عليه السّلام ـ بهذه القَولة خوف القالـة من السُّفَهاء أن يقولوا

(١٧) في مسند الإمام أحمد ٣: ١١٣ و١١٨، ولم ترد فيه العبارة: «لقد رُفِعوا لي في الجنّة علىٰ أسرّةٍ من ذهب».
(١٨) في سورة تَبّت يدا أبي لهب.
(١٩) الأحزاب: ٣٧/٣٣

ما قالُوه فيهلكوا بأَذِيَّتِه، فتصحّ عليهمُ اللّعنةُ في الدَّارَيْنِ، والعَذابُ الأليم؛ بدليل الكتاب؛ قال الله تَعالى[٢٠]: ﴿إنّ الَّذِيْنَ يُؤْذُوْنَ الله ورَسُولَه لَعَنَهُمُ الله في الدُّنيا والآخِرَةِ وأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُّهِيْناً﴾.

وأيضاً أنه لمّا سمع أنّ الله تعالىٰ عاتَب داوود ـ عليه السلام ـ في قوله[٢١]: ﴿أَكْفِلْنِيْهَا﴾، قال هو: «أمسكها»، وسَقط العتاب.

وأما قوله[٢٢]: ﴿وَاتَّقِ الله﴾، يعني في ذِكرها بالقُبح لغيبها في قوله: تقولُ لِي كذا وتفعلُ بي كذا؛ وهي غائبة، فنَهاه عن الغيبة المنهيّ عنها شَرعاً، بدليل أنّ قول زيد: أُطَلِّقُها، كلام مُبَاحٌ ليس فيه حَظْرٌ ولا كراهةٌ في الشرع.

وأمّا قول الله ـ عز وجل ـ لنبيّه ـ عليه السّلام[٢٢]: ﴿وتُخْفِي فِيْ نَفْسِكَ ما الله مُبْدِيْهِ﴾. يعني من تَزويجها الّذي أمرتك به أو أعلمْتُكَ به.

وأمّا قولُه تعالىٰ[٢٢]: ﴿وَتَخْشَىٰ النَّاسَ﴾، أي تخشىٰ من قولِ النَّاس، علىٰ حذف حرفِ الجر كأنه يقول: تخشىٰ من الناس أن يقولوا فيك فيأثموا ويهلكوا، والله أَحقُّ أن تخشاه.

أي تخشىٰ منه علىٰ النّاس وللّناس حتىٰ يقع مرادي فيك وفي الناس، إذ ليس احتياطُك يُغني عنهم من الله شيئاً، فلا عليك مِمَّن قال ولا مِمَّن أَثم، فأنا أعلم بما يقولون وبما أُجازيهم. كما قال تعالىٰ له[٢٣]: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾[٢٤] و﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾[٢٥] و﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِيْ مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ إلىٰ غير ذٰلك.

---

(٢٠) الأحزاب: ٥٧/٣٣
(٢١) ص: ٢٣/٣٨
(٢٢) الأحزاب: ٣٧/٣٣
(٢٣) آل عمران: ١٢٨/٣
(٢٤) البقرة: ٢٧٢/٢
(٢٥) القصص: ٥٦/٢٨

وأمّا أن يكون الرسول ـ صلىٰ اللّه عليه وسلم ـ يخشىٰ النّاسَ من غيرِ مُراعاةٍ لهذا القدر وما أَشبهه، فحاشا وكَلّا، وكيف وقد قال تَعالىٰ بعد هذه الآية(٢٥)*: ﴿ الَّذِيْنَ يُبَلِّغُوْنَ رِسَالاَتِ اللّه وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَداً إلاّ اللّه ﴾ فقد زكّىٰ الله تَعالىٰ أنبياءَهُ بأنّهم أَفْرَدُوه بالخشية، فلو كان الرسول ـ عليه السلام ـ يخشىٰ النّاسَ لأجْلِ النّاس لَتناقَضَ الخَبر، والتّناقض في خبرِ الله ورسوله مُحَال.

وأمّـا ما خـاف أن يقولَهُ النّاس فيهلكوا، فهو علىٰ خمسة أوْجُه:

أحـدها: ما جَـرت به عاداتُ الجَهلة المتكبّرين علىٰ المَوالي فيقولون: كيفَ يَسُوغ لَهُ أَن يعمـدَ إلىٰ كريمةٍ من كرائمِه وأقرب النّاس إليه نَسبـاً فيزوّجهـا لِعبده؟!

والثاني: وهو أشدُّ عليهم في الإنكـار أن يقولُوا: كيف رَضِيَ أن يتزوَّجَهـا بعـد عَبْدِه؟!

الثالث: أن يقولوا: إنّما حمله علىٰ ذلك حُبُّه لها وشغَفُه بها.

الرّابع: قلّـة المُرَاعاة لأَمر الله، وعدم التّسليم لِحُكمه، إذْ لو كانُوا يذعنون لأحكام الله تعالىٰ ويُسلمون له لم يُنكروا شيئاً ممّـا فعلـه نبيهم ـ عليه السلام ـ

الخامس: وهو أصلٌ لكلّ رذيلة، وهو مُرَاعاة التَّحسين والتَّقبيح وردّهـما إلىٰ العُقول القاصـرة، ومـا جـرت به العَادات، وهو دَاءٌ عُضَال نَغلَتْ بهِ(٢٦) قلوبُ الجَهلةِ الضّالين، فَفنَّدُوا حكمَ اللّه تعالىٰ واعْتَرضُوا لفعاله في خلقه.

---

(٢٥)*الأحزاب: ٣٣/٣٩

(٢٦) النّغل: الفَسـاد، وفـي الحديث (في النهاية واللّسان): «رُبّما نظر الرجل نظرة فنغل قلبـه كما ينغـل الأديم في الدِّباغ فيتثقّب».

وكان أوّل من سَنّ هذه الداهية الدهياء إبليس، حيث قال[٢٧]: ﴿ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً﴾، [٢٨]و﴿ قَالَ لَمْ أَكُنْ لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِن حَمَأٍ مَسْنُوْنٍ ﴾، [٢٩]و﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾، [٣٠]و ﴿ أَرَأَيْتَكَ هٰـذا الَّذِيْ كَرَّمْتَ عَلَيَّ ﴾ إلىٰ غير ذلك من أقوالِه السَّخيفة. فانظرْ ـ رحمك الله ـ إلىٰ أهـل هـذه المذاهب الخسيسة بمن اقتدوا فيها وعلىٰ من عَوَّلُوا في اقتدائهم، قاتلهم الله أنىٰ يؤفكون.

ومما قيل في معنىٰ قولـه: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ﴾، أنه يخشىٰ النّاس أن يقـولوا: كيف يحرّمُ عَلينا أزواجَ البنين وهو مع ذٰلك يتزوّج زوجَ ابنِه؟ فلأجل هٰذه الأقوالِ كانت خشيته ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ علىٰ النّاس؛ إذْ ليس منها واحدةٌ إلاّ وهي تحملُ إلىٰ سِجِّين، فإنّها كلها معارضَةٌ لِقوله تعالىٰ[٣١]: ﴿ومَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوْهُ وَمَا نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾.

وقوله تعالى[٣٢]: ﴿ مَن يُّطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ الله ﴾.

وقـوله تعالىٰ[٣٣]: ﴿قُل إن كُنتُمْ تُحِبُّوْنَ الله فاتَّبِعُوْنِي يُحْبِبْكُمُ الله﴾.

وقـوله تعالىٰ حيث أقسمَ بذاتِه المُعَظَّمة فقـال[٣٤]: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لا يُؤمِنُونَ حَتّىٰ يُحَكِّمُوْكَ فِيْمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ، ثُمّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيْماً﴾.

فمن أَجل هذه الآي وأَمثالِها خشِـي رسولُ الله ـ صلىٰ الله عليه وسلم

(٢٧) الإسراء: ٦١/١٧
(٢٨) الحجر: ٣٣/١٥
(٢٩) ص: ٧٦/٣٨
(٣٠) الإسراء: ٦٢/١٧
(٣١) الحشر: ٧/٥٩
(٣٢) النساء: ٨٠/٤
(٣٣) آل عمران: ٣ /٣١
(٣٤) النساء: ٦٥/٤

ـ أن يقع فيه النّاس، وقد وقعوا فيما ذكرناه وفيما هو أشدُّ منه.

قال تعالىٰ[٣٥]: ﴿فَلَمّا قَضىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا﴾ الوَطَرُ هنا: النِّكاح.

واعلمْ ـ رحمك الله ـ أنّ في هذه الآية فوائد جَمّة منها أنّ الله تعالىٰ جَعل فيها لزيدٍ صِيْتاً وشَرفاً خصَّه بـه عـن جُملةِ الصَّحابة ـ رضي الله عنهم ـ وذلك أنّه لم يذكُر في الكتـاب منهم أحَداً باسمِـه العَلَم إلا زيداً، وسَببُ ذلك ـ والله أعلم ـ أنّ النبيَّ ـ صلّىٰ الله عَليه وسلَّم ـ كان قد تبنّاه قبل ذلك، فكان يُدعىٰ بابنِ رسُول الله حتىٰ نَزَل عليه[٣٦]: ﴿ادْعُوْهُمْ لآبائِهم هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ الله﴾.

فَسُمّي بعد ذلك زيـدَ بْنَ حارِثَة، فعوّضه الله تعالىٰ بأنْ سَمّاه في كتابه باسمِه العلَم.

وهذه القَولةُ ليسـت لي ولا يبلغُ نظري إلىٰ هـذا القدر، وإنّما ذكرها الإمام أبو بكر بـن العربي[٣٧] في بعض تواليفه، ولا أعلم هل هي له أو لغيره[٣٨]، ولأنَّ مَنْ غاصَ عَلَيْهَا لَغَوَّاصٌ من باب الإشارة.

وقد يُحتمل أن تخرج من باب الفِقه، وهو أنْ يكـون تسمية زَيْدٍ بالعَلمِيَّة ليتبين في الآيـة ثبوتُ هـٰذا الحُكم ووقوعُه في أبناءِ التَّبَنِّي، إذْ لو قـال تعالىٰ: فلما قضىٰ بعلها، لم يُعلم مَن البعل من مُقتضىٰ الآية.

ومنها: أنّ الله تعالىٰ سَنّ لرسوله ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ هذه السُّنَّة علىٰ

---

(٣٥) الأحزاب: ٣٧/٣٣

(٣٦) الأحزاب: ٥/٣٣

(٣٧) هـو القاضي أبو بكـر محمد بن الله المعافري الإشبيلي الأندلسـي المعـروف بابن العربي (ولد ٤٦٨، وتوفي ٥٤٣) من أعيان علماء الأندلس، ومن كبـار المصنفين البارعين. ومن كتبـه أحكام القرآن، والعواصم من القواصم، وعارضـة الأحوذي على كتاب الترمذي. وغيرها.

(٣٨) لم أر هـذا في (أحكام القرآن) ولعله من كتاب آخر.
ونقله القرطبي في تفسيره ١٩٤/١٤ عن أبي القاسم السهيلي (ولد ٥٠٨؛ وتوفي ٥٨١).

رغم أَنفِ المتكبّرين، فمن لامَ بعد هٰـذه السُّنَّةِ أَحَداً في أن يزوّج مَثلاً بنته لعبده أو يتزوّج امرأةَ عبدِه من بعده فَلْيُفْغَر فوهُ بِفهْرٍ يكسرُ قَواضِمَهُ وخَواضِمَهُ، ويُطرح في أُمِّـه الهاوية(٣٩)! إذْ ليس بعـدَ رسول الله ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ شارعٌ ولا فوقَ شرفه شَرف.

ومنها: قولُه تعـالىٰ لرسوله ـ صَلّىٰ الله عليه وسلم(٤٠) ـ ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾

فأضاف تَعـالىٰ تزويجها لنبيّه إلىٰ نفسِه، وما أضاف الله تَعالىٰ لنفسِه شيئاً إلّا وشرَّف ذٰلك الشَّيء، كما قـال تعالىٰ(٤١): ﴿روحـي﴾ و(٤٢) ﴿بيتي﴾ و(٤٣)﴿جنتي﴾، و(٤٤) ﴿عذابي﴾، و(٤٥) ﴿ناقة الله﴾، و(٤٦) ﴿نار الله﴾، والكلُّ مخلوقٌ ومربوب، ولكنّ الله اختصَّ بالشَّرف الإضافي هـٰذه المخلُوقات.

وفي هٰـذا التّزويج شرفٌ لرسول الله ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ مِن كون تـزويج النّاس أجمـع من عِندهم وباختيارِهـم واجتهادهم، وهٰذا التزويجُ بأمر الله علىٰ الخُصـوص، واختياره وإكرامِه لنبيّه ـ عَليه السَّلام ـ.

ومنها: تشريفٌ لزينبَ زوجِه، وذٰلك أنّ الله تعالىٰ ما اخْتَارها لنبيّه ـ عليه السلام ـ حتىٰ علم حَصانتها ودِينها وورَعها وحفـظَ أَدبها لِمُرَاعاة خُلطةِ سيّـد المُرسلين. ولهـا أيضاً علىٰ سـائر نسائِه في هٰذا التّزويج مزِيّة، وإن كُنّ كلّهن

---

(٣٩) الفِهْرُ: الحجر يملأ الكف. والقواضم: الأسنان؛ مأخوذ من القَضْم، وهو أَخْذُ الشيء وأَكْلُه بأطراف الأسنان. والخواضم: الأضراس؛ مأخوذ من الخَضم، وهو أَخْـذُ الشيء وأَكْلُه بأقصىٰ الأضراس. وأمّـه: أي أمّ رأسه، وهي الدِّماغ، أو الجِلْدَة الرّقيقة التي عليها. والهاوية: جهنّم.

(٤٠) الأحزاب: ٣٣/٣٧

(٤١) الحجر: ١٥/٢٩

(٤٢) البقرة: ٢/١٢٥

(٤٣) الفجر: ٨٩/٣٠

(٤٤) الأعراف: ٧/١٥٦

(٤٥) الشمس: ٩١/١٣

(٤٦) الهمزة: ١٠٤/٦

مُطَهّرات مَحْفُوظات. وقد ذكرت هي ذٰلك لرسول الله ـ صلىٰ الله عليه وسلّم ـ فقالت له: يا رسُول الله أما إنّي لأُدِلُّ علَيك بثلاثٍ لا يدلّ بها عليك واحدةٌ من نسائك.

فقال لها: وما هي؟

فقالت: **إحداها**: أنّي أقربُ إليكَ نَسباً من جميعِ نسائك، لأنّ جَدّي وجدّك واحد؛

والثانية: أنْ الله تعالىٰ زَوَّجني إيّاك؛

والثالثة: أنَّ كان السّفير بيني وبينك جِبريل ـ عليه السَّلام ـ.

فيا لها من حُرَّة! فلَقد فَخرت وصَدقت، مع أنها أغفلت رابعاً يؤكّد ثبوتَ هٰذه الثلاثة وهو: كونُ قِصَّتها مُسَطَّرةً في قُرآنٍ يُتلىٰ إلىٰ الأَبد.

إذ لو كانت من خَبرِ الواحد لاخْتَلَجَتْهَا الظُّنون.

ثم قال تعالىٰ(٤٧): ﴿لِكَيْلَا يَكُوْنَ عَلَىٰ المُؤمِنِيْنَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعيائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ الله مَفْعُوْلاً﴾.

عَلّل الله ـ عَزَّ وجل ـ هذا التزويج ليعلم النَّاسُ أنّ من تَبَنّى أَحداً ثمّ تزوَّج امرأتَهُ مِن بعدهِ فلا حَرجَ عَليه، فإنَّ مَن تَبَنَّاه ليسَ كابنِه الّذي لِصُلْبِه.

قال تعالىٰ في تحريم أَزواجِ الأَبناءِ للصُّلب(٤٨): ﴿وَحَلَائِلِ أَبْنَائِكِمُ الَّذِيْنَ من أصلابكم﴾ وقال(٤٩): ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾. فرفَع الله الحرجَ بهاتين الآيتين في التبَنيّ، ثم قال تعالى ﴿وكَانَ أَمْرُ الله مَفْعُوْلاً﴾.

---

(٤٧) الأحزاب: ٣٣/٣٧
(٤٨) النساء ٤/٢٣
(٤٩) الأحزاب : ٣٣/٤

الأمرُ هنا يحتملُ الحقيقةَ والمَجاز، فإنْ كان الله أمَرَهُ بتزويجها فيكون وكأنّ المأمور به مَفْعولاً: أي واقعاً في معلوم الله تعالى، ويسمى المأمورُ به أمر المناسبة بين الآمر والمأمور، فإنّ الأمر من الله تعالى يستحيل أنْ يكون مفعولاً لكونه يرجِعُ لكلامه الأزليّ، وإنْ كان أمْر بمعنىٰ المُراد على سبيل المجاز، فيكون وكأن ما أخبرك الله تعالى به من المُراد واقعاً؛ إذ ما أراد الله تعالى وقوعه فلا بدّ من وقوعه. فتأمَّلْ ـ رحمكَ الله ـ هٰذه القصّة العجيبة فإنّها تتضَمَّنُ خمس عَشْرَة فائدة، منها في جانب الرَّسول ـ عليه السلام ـ ستّة:

إحداها: المُعجزة في إخباره بالغُيوب فوقَعتْ كما أخبر عنها.

الثانية: تواضُعه ـ عليه السلام ـ أنْ زوَّج كريمَته بعبده.

الثّالثة: انقياده لأمر الله في تزويجها بعبده.

الرابعة: إثباتُ هٰذا التَّزويج سنة.

الخامسة: قمع المتكبّرين وإرغام أُنوفهم في هذه السُّنّة.

السَّادسة: في الردّ على مَنْ قال بتحسين العَقل وتقبيحه.

والتي من جانب زَيد أربع:

إحداها: بشارة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلّم ـ له بسلامة عاقبته.

الثّانية: موتُه شهيداً بين الصَّفيّن.

الثالثة: ما أخبر عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنّه في الجنة.

الرّابعة: تسميته في الكتاب بالعَلَمِيَّةِ على الخُصوص.

والّتي في حَقّ زينبَ[٥٠] ـ رضي الله عنها ـ خَمس:

---

(٥٠) قال الشعبي: كانت زينب رضي الله عنها تقول لرسول الله صلى الله عليه وسلّم إنّي لأدِلُّ عليك بثلاث ما من نسائك امرأة تدل بهنّ =

إحداها: أَنّ الله تَعالىٰ رَضِيَها لِنبيّـه ـ صَلّى الله عَليه وسَلَّم ـ أهلاً.

الثّانية: أَنْ صَيَّرها أُمَّ المُؤمنين.

الثّالثة: أَنْ كانَ خطيبَها جِبريلُ ـ عليه السَّلام ـ.

الرّابعة: أَنْ كان وَلِيَّها رَبُّ العَالَمين.

الخامسة: أنْ كانت قِصَّتُها قرآناً يُتلىٰ.

فهٰذه خمسَ عَشْر فائدة صَحّت في هٰـذه القصة، شاملة لرسول الله ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ ولأُمتـه، سوىٰ ما أغفله الخاطر.

والجهَلةُ يَخْبِطُون عَشواء الدُّجـون[٥١].

فهٰذا ما مَنَّ الله تعالىٰ به من ثَمراتِ النَّظر في هٰذه القِصص الأَرْبَع في حَقِّ السَّادةِ القادة ـ صَلواتُ الله عليهم.

ونسأل الله تَعالىٰ ـ مع هٰذا التحفُّظ علىٰ مَناصِبهم السَّنية ومناقبهم الرَّضِيّة ـ العَفْوَ عَمّا وقع فيها من الخَطأ والخَطل بحوله وطَوْله[٥٢].

= ـ أنَّ جدّي وجدّك واحد؛
ـ وأنَّ الله أنكحك إياي من السماء
ـ وأنَّ السفير في ذلك جبريل.

(٥١) العشواء: النّاقـة التي لا تبصر أمامها ليلاً. والدُّجـون: جمع الدُّجُنّة، وهي الظُّلْمَة؛ ومن أمثـال العرب السّائرة: هو يخبط خبط عشواء، يُقـال للّذي يركب رأسَهُ ولا يهتمّ لعاقبته.

(٥٢) الطَّوْل: المَنُّ.

فصل

ولنذكر الآن ما وقَع من بعض قِصص الأنبياء ـ عليهمُ السَّلام ـ في القُرآن، وهي القصص التي اعترَضها أهلُ الزّيغ والإلحاد في أَقوال الأنبياء ـ عليهم السَّلام ـ وأَفعالهم، بما مَنّ الله بهِ، والله المُستعان.

وقد كنّا نرتّب الكلام فيها علىٰ ترتيب الزَّمان، فنبدأ بقصة آدم ـ عليه السّلام ـ ونختم بقصّة نبيّنا ـ صلى الله عليه وسلم ـ لكنّا قدَّمنا هذه القصص لتأكيد اعتراض السَّفلَة عليهَا وشناعة طبعهم فيها كما تقدَّم.

فنذكر قصة آدم ـ عليه السّلام ـ في أكله من الشَّجرة المنهيّ عنها.

وقصّة نُوح ـ عليه السلام ـ في قوله[١]: ﴿إِنَّ ابْنِيْ مِنْ أَهْلِي﴾، وفي دعائه على قومه.

وقصة إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ في الثَّلاثة الأقوال التي عدّها[٢] هو كذبات، وفي الثلاثة الكواكب والأَنوار، وقصّته ـ عليه السلام ـ في قوله[٣]: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِيْ المَوْتَىٰ﴾.

وقصة عُزَير ـ عليه السّلام ـ في قوله[٤]: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِي هَـٰذِهِ الله بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

وقصّة أَيُّوب ـ عَلَيْه السَّلام ـ في مِحْنَتِه.

وقصّة يُونس ـ عليه السَّلام ـ ومُغاضَبتهِ لقومِه وفراره منهم، ولومه، وتَوْبته، وقبول توبته.

---

(١) هود: ٤٥/١١
(٢) في الأصل المخطوط: عددها.
(٣) البقرة: ٢٦٠/٢
(٤) البقرة: ٢٥٩/٢

وقصّة موسىٰ ـ عليه السّلام ـ في قتل الكافر.

ثم نختم هذه القصص بقصة مريم عليها السّلام ـ في هَزّها الجِذع، وغَلِط مَنْ حَطّ من مَقامِها من الجمع إلىٰ الفرق في ذٰلك الوقت إن شاء الله تعالى.

وكذلك قصّة إخوة يُوسف ـ عليه السَّلام ـ والرَّد علىٰ مَن اعْتَرض عَلينا فقال: إنّهم عندما واقعُوا ما وَاقَعُوا مع أَخيهم وأبيهم كانوا أنبياء، والله المُستعان.

شرح قصة آدم(*)
عليه السلام

في أكله من الشّجرة بَعْدَما نُهِيَ عَنها.

اختلف النّاس في هٰذه القصّة اختلافاً لا يكاد ينضبط. وذلك لأنّ الله تعالى ما نصّ علىٰ معصيةٍ لنبيٍّ إلا لآدم ـ عليه السّلام ـ خُصوصاً. فلمّا كان ذلك وجَد أهلُ الدّعاوى وأَهْلُ الحَيرة مع ما دَهاهُم من عَدم التّحقيق وكَيد الوَسواس سبيلاً إلىٰ الإخلالِ بحقّه ـ عليه السَّلام ـ حتىٰ سَطّروا في الضَّبائر[1] وأَفْصَحُوا على المَنابر بأَنْ قالوا: إذا كانَ رأسُ الدَّنِّ دُرْدِيّاً[2] فما ظَنُّك بِقَعْرِه!

وهذه وصمةٌ تَجُرُّ إلىٰ تنقيصه وتنقيص مَنْ بَعْدَهُ مِنَ الأَنبياء ـ عليهمُ السَّلام ـ وهو مقصودهم في ذلك، وشَرَحُوا قوله تعالىٰ[3]: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾ أَنهما لَمّا عَصيا سَلَبَ الله عنهما أَنوار الرُّبوبيّة الرَّوْحانِيّة التي كانت فاضَت علَيهما منه تعالى عمّا يصفون. فظَهر لَهُما الجِسمَ التُّرابيّ المجبُول على المَعصية، فعلما إذْ ذاك أنّه منه أُتِيَ عَلَيهما. فأَوْجَبُوا المَعاصي للأَجسام التُّرابية. وأَنبياءُ الله تعالىٰ كلّهم أَجسامٌ ترابيّة، وهي ظاهرةٌ لهم.

وهذا أقلّ ما نَسَبُوه لآدم ـ عَلَيْه السَّلام ـ.

(*) شرح قصّة آدم عليه السّلام في: تنزيه الأنبياء للشريف المرتضى: ٩، وعرائس المجالس: ٣٠، وابن كثير ١: ٥٠، وتفسير الطبريّ ١: ١٨١، وتاريخ الطبري ١: ١٠٦، وتفسير القرطبيّ ١: ٢٩٨ ـ ٣٢٣.

(١) الضّبائر جمع الضّبيرة، على وزن فعيلة، والمشهور في ذلك: الإضبارة، وهي الحزمة من الصُّحُف.

(٢) الدُّرديّ عكر الزّيت؛ ويكون ـ لثقله ـ في قعر الدَّنّ أو الظَّرف.

(٣) الأعراف: ٢٢/٧

فصل

وأوَّلُ ما يَنبغي أن نقدّم أَنّ آدم ـ عليه السَّلام ـ لم يكن عندما أكل من الشّجرة نبيّاً، والعِصمةُ لا تُشترط للنبيّ إلا بعد ثُبوت النبوّة له. فمن النّاس من ذكر الإجماع علىٰ أنّه لم يكنْ نبيّاً عندما أَكل من الشجرة، ومنهم من اكتفى بظاهر قوله تعالىٰ(٤): ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ وهذا عطفٌ بـ (ثم)، التي تُعطي المُهلة. ثم ذكر الاجتباءوالهِداية.

والاجتباء هنا: النُّبوّة: بدليل قوله تعالى في سورة مريم: عليها السلام، عندما عَدّد الأنبياء، عليهم السلام، ومناقبهم علىٰ التّفصيل، قال(٥): ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ يعني من النَّبيِّين أجمعهم.

وقال في قصة يُونس ـ علَيه السَّلام ـ بعد قصة الحوت(٦): ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾ وهذا وجهٌ من الوُجوه يُثبت أكله من الشجرة قبل نبوته.

فصل

والذي ينبغي أن يُعَوَّل عليه في قصة آدم، عليه السَّلام، أَنّ نهيه عن الشجرة كان نهيَ إرشادٍ وإعلام على جهة الوصيّة والنَّصِيحة لا علىٰ جهة التَّكليف؛ فإنّه ما صَحّ تكليفُه في الجَنّة ولا نُبُوّتُه لا في كتابٍ ولا سنة. والأوامر والنّواهي تنقسم إلى مشروعٍ وغير مشروع، كالأوامر اللُّغوية، فإن السَّيِّد قد يقول لعبده والأخ لأخيه والصّاحب لصاحبه علىٰ جهة الإعلام والإرشاد والنَّصيحة: افعَلْ كذَا، واتْرُك كذا تَسْلَمْ من كذا وتَظْفَرْ بكذا. وكذلك أوامر الأَطباء للعليل بالحِمْيَةِ والدّواء والغذاء إلىٰ غير ذٰلك.

---

(٤) طه ١٢٢/٢٠
(٥) مريم ٥٨/١٩
(٦) القلم ٥٠/٦٨

فكان أمر الله تعالى لآدم عليه السلام بِسُكنىٰ الجنان والأكل الرغد ونفوذ المشيئة من باب الإعلام والتّأنيس بالبِشارات بأنه لا يجوعُ فيها ولا يَعْرَىٰ ولا يظمأ ولا يَضْحَىٰ. وكان نهيه له علىٰ جهة الإرشاد المتقدّم ذكره، أو التّحذير ممّا تؤول إليه عُقباه إن فعل ما نُهي عن فعله في خُروجه عن الجنّة وشقائه في الدّنيا، والإعلام بمكيدة الشيطان، والتحفظ منه، وكونه عدواً حاسداً له.

وهذا معلومٌ في اللّسان. وما جَرت به العادات. وقد أَمَر الله تعالى إبليسَ بقوله(٧): ﴿واسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ وشَارِكْهُمْ في الأَمْوَالِ والأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ﴾ فهذه أوامرُ علىٰ جهة الوعيد له والتّهديد، كقوله تعالى للكفَرة(٨): ﴿ اعْمَلوا ما شِئْتُمْ﴾ وليست بتكليفٍ، إذْ لو كانت على جهة التّكليف بفعلها لكان وقوعُها منه طاعة، وهو عاصٍ في هٰذه الأفعالِ إجماعاً.

وقد أَمرَ الله موسى عليه السّلام بأخْذِ الحَيّةِ ونَهاهُ عن الخَوف منها حيث قال له(٩): ﴿ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ﴾ والخوفُ أمرٌ ضروريّ فلا يقع الأَمر به جَزْماً. فكان الأمر له علىٰ جهة التّأنيس والإعلام بأنّها لا تُؤذيه إذا أَخذها. وكان مكلّفاً إذ ذاك ولم يكن ذلك الأَمر والنّهي له مشروعَيْن. وكذلك قوله تعالىٰ(١٠): ﴿اسْلُكْ يَدَكَ في جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوْءٍ﴾ وقوله تعالىٰ لأُمّ موسىٰ(١١): ﴿فَإذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيْهِ فِي اليَمِّ وَلَا تَخَافِيْ وَلَا تَحْزَنِي﴾.

(٧) الإسراء: ٦٤/١٧
(٨) فصّلت: ٤٠/٤١
(٩) طه: ٢١/٢٠
(١٠) القصص: ٣٢/٢٨.
(١١) القصص: ٧/٢٨

وكـذلك قـوله عـليه السَّلام في الصّحيح إذْ رأى رجـلاً يقطعه الآل(١٢) فقـال: «كُنْ أَبَا خَيْثَمَة» فـإذا هو أبُو خَيثمـة. فهـذا أمرٌ علىٰ وجـهِ الخبَر، كأنّـه يـقول: هـذا أبو خـيثمة، إلى غير ذلك.

ويـكفيك أنّ الآخـرة ليست بـدار تـكليف وفيها أوامرُ ونَواهٍ مـثل قـوله تعـالىٰ للمؤمنـين على جهـة البشارة(١٣): ﴿ادْخُلُوا الجَنَّـةَ أَنْتُـمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾، وقـوله تعـالى(١٤): ﴿ادْخُـلُوْهَا بِسَلامٍ آمِنِيْنَ﴾، وقـوله تعـالى للكـافرين على جهـة الإغـلاظ والتّرويع(١٥): ﴿فادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّـمَ خَـالِدِينَ فيها فَبِئْسَ مَثْوَىٰ المُتَكَبِّرِيْنَ﴾، وقـوله تعـالى(١٦): ﴿اخْسَؤُوا فِيهـا وَلَا تُكَلِّمُوْنِ﴾ عـلى جهـة التَّحـقير والخِزْي والطَّرد. وقـوله تعـالىٰ علىٰ جهـة التَّصَيُّرِ لأصحـاب السُّبت(١٧): ﴿كُوْنُوْا قِرَدَةً خَاسِئِيْنَ﴾، وقـوله تعـالىٰ علىٰ جهـة

(١٢) انظر خَبَرَ الحـديث في سيرة ابن هـشام ٢: ٥٢١
(١٣) الزخـرف: ٤٣/٧٠
(١٤) الحـجر ١٥/٤٦
(١٥) النحـل ١٦/٢٩
(١٦) المؤمنون ٢٣/١٠٨
(١٧) البقـرة ٢/٦٥
- وهـم الـذين اعتدوا في السَّبت.
- وقـول المؤلف رحـمه الله: «عـلى جهـة التَصَيُّر» يـشير إلى مسخ المُخـالِفين قـردةً خـاسئين. وتـمام الآيـة الكريمة ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الّذينَ اعْتَدَوْا مِنْكُم في السَّبتِ فَقُـلنا لهـم كُونُوا قِرَدَةً خَـاسِئِيْنَ﴾ أي انتـقلوا من حـال البشرية الإنسـانية إلى حـال الحيوانيـة عقوبة ونكـالاً.
وفي سـورة الأعـراف ﴿واسألهـم عن القرية التي كـانت حـاضرة البحـر إذْ يَعْدُون في السَّبتِ إذ تأتيهـم حيتانُهُـم يوم سـبتهـمْ شُرعاً ويَوْمَ لا يسبتون لا تأتيهـم كـذلك نبلوهـم بما كانوا يفسقون. وإذ قـالت أمّـة منهم لِمَ تَعِظُـونَ قـوماً الله مُهْلِكُهُـمْ أو معذّبهـم عذاباً شديداً قـالوا معذرةً إلى ربـكم ولعلهـم يتّـقون﴾ الآيتـان ١٦٣ - ١٦٤.
أي واسأل اليهـود جـيرانك عن أخـبار أسلافهـم، وما مسخ الله منهـم قردة وخنـازير. وهـذا سؤال تقـرير وتوبيخ. وفيه دلالة على صدق النبي صلى الله عليه وسلم ونبوّتـه. أي سَـلهم يـا محـمد عن القرية أما عذّبتهـم بذنوبهـم؟ وذلك بتغيير فرع من فـروع الشريعة؟ وكـان اليهـود يكتسمون هذه القصّة لما فيهـا من السبّة عليهـم. =

التَّعجيز[١٨]: ﴿كُوْنُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيْداً﴾. إلى غير ذلك من أَنْواع الأوامر والنَّواهي.

وإذا كان هٰذا هٰذا، فمن أَين لقائلٍ أن يقول: إن نَهي آدم عليه السلام كان علىٰ جهة الحَظْر أو الكَراهة؟. فإن احتجُّوا بقوله تعالىٰ[١٩] إنّه: عصى وغوى وظلم نفسه.

قُلنا: إذا لم يثبت تكليفُه في الجنة فتخرج هذه الألفاظ على مُقتضىٰ اللُّغة؛ فإنّ المعصيةَ في اللّسان عدمُ الامتِثال: كانت مقصودة أو غير مقصودة. وظُلم النفس: غبنها وبَخسها في مَنافعها، لكونه وضع الفِعل في غير موضعه. وكذٰلك غَوى: أَدْخَل علىٰ نَفْسِه الضَّرر، يقال: غوىٰ الفَصِيلُ: إذا رضع فوق حَدّه من اللبن فَبَشِم، فعلىٰ هذه الوجوه تُخَرّج هذه الألفاظ.

فإن قيل: إذا خَرَّجتم هذه الألفاظ علىٰ هٰذه الوجوه فما قولكُم في

= وكانت قرية إلى جانب البحر. وقد خالف فريق من أهلها واعتدوا في السبت، واصطادوا ـ وقد نهوا عن الصّيد في ذلك اليوم ـ ولقوا جزاءهم. وكان الفريق الآخر من أهلها ممّن لم يخالفوا شهوداً على ما جرى لهم.
ـ ومعنى خاسئين: مُبعدين.

(١٨) الإسراء: ٥٠/١٧، والخطاب للمشركين، وسياق الآية مع ما قبلها: ﴿وقالوا أإذا كنّا عظاماً ورُفاتاً أإنّا لمبعوثون خلقاً جديداً. قل كونوا حجارةً أو حديداً. أو خلقاً ممّا يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أوّل مرّة فسيُنغضون إليك رؤوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريباً﴾.
والمعنى: إن عجبتم من إنشاء الله لكم عظاماً ولحماً فكونوا أنتم حجارة أو حديداً إن قدرتم. وقيل: لو كنتم حجارة أو حديداً لم تفوتوا الله عز وجل إذا أرادكم. وقيل: لو كنتم حجارة أو حديداً لأعادكم كما بدأكم ولأماتكم ثم أحياكم. وقيل: المعنى كونوا ما شئتم فستعادون.

(١٩) في سورة طه: ١٢١/٢٠ ﴿وَعَصَىٰ آدم ربه فغوى﴾.
وفي سورة الأعراف: ٢٣/٧ في خبر آدم وحواء ﴿قالا رَبَّنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننّ من الخاسرين﴾.

قـوله تعـالى[٢٠]: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَـا فَأَخرَجَهُـمَا﴾ وفي قـوله[٢١]: ﴿فَدَلاّهُمَا بِغُرُوْرٍ﴾ إلى غير ذلـك. فنقـول: تخـرج هـذه الألفـاظ أيضاً علىٰ جهـة قـصد الشَّيطان، والتّعـريض بالوسوسة إليه لا عـلى قـصد القَبُول من آدم عَلَيه السَّلام لِوَسْوَسَتِهِ وَخِدَعِه. فإنّ الشَّيطان قد يُوسوس إلى الأَنـبياء ولكنْ لا يقـبلون منه. قـال تعـالىٰ لنبيّنـا عليه الصلاة والسـلام[٢٢]: ﴿وَإِمَّـا يَنْزَغَنَكَ من الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فاسْتَعِذْ باللهِ﴾، وقـال له[٢٣]: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ لشَّيَاطِيْن. وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُوْن﴾.

وسنحيلُ ذٰلك فيمـا بعد إن شـاء الله تعـالى.

وجـملة الأَمـر أنه إذا لـم يثبت تـكليفٌ لم يثبت إيجـابٌ ولا حَـظر ولا طاعـة ولا معصـية يقـع فيها ذمٌّ شرعيّ ولا مدحٌ ولا ثوابٌ ولا عِقَـاب. وهـذا ما أَجْمَع عليه أَهْلُ السُّنّـة.

فصـل

فـإن قـيل: فـإذا كـان ذلك كما زعمتـم، فـما المُخـتار عند أَهـل الحـقّ في هذه القـصة، وما مُعتقدهـم فيها، وكـيف التخـلُّص منها؟

فنقـول: التخـلُّص منها عند أَهـل الحـقّ إن شـاء الله: أَن الله تعـالى نهـاهُ عـلىٰ جهـة الإرشـاد والإعـلام والنَّصيحـة لا عـلىٰ نهـي التكـليف. ووسوسَ إليـه الشَّيطانُ على جهـة الإغـواء والحَسَد والمَكْـر فلم يَقْبَل منه. ثم

(٢٠) البقـرة: ٣٦/٢
(٢١) الأعراف ٢٢/٧.
(٢٢) الأعـراف ٢٠٠/٧
(٢٣) المؤمنـون ٩٧/٢٣ـ ٩٨

أنساه الله تعالى بعد ذلك إرشاده إياه ووصيّته له، ووسوسة الشيطان إليه، فأكل منها غافلاً عن الوصية والوسوسة.

وإذا كان ذلك لم يُبَلْ هل كان عند ذلك نبيّاً أو لم يكنْ نبياً؛ فإن النّاسي لا طَلَب عليه في الشّرع ولا ذمَّ، بالإجماع. والدّليلُ على أنّه نسي قوله تعالى(٢٤): ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ من قبلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ يعني: عَهِدنا إليه في أمر الشجرة فنسيَ العهدَ فأكلَ منها من غير عزم على أكلها [ولا] متعمّداً لاطّراح الوصية والنّهي، أو نسي المراقبةَ لِتلك الوصيّة، ولم نجد له عزماً على المراقبة؛ فألقي عليه النسيانَ بتركه المراقبةَ، فأكل منها. ولا يصحّ في حقّه عليه السّلام مع شهادة القَرائن وعِظَمِ المكانة غير هٰذين الوَجْهين. مع أنّ العزْمَ في اللّسان هو: الإرادة التي يقع معها الفِعل، وقد نهاه تعالىٰ عنه، فلم يبق إلا أنّه أكل ناسياً من غير عزم.

فإن قيل: وما دليلكُم على أنّ العَهْدَ المنسيَّ إنما كان في أمر الشّجرة، والعُهود كثيرة كعهده له في حَمل الأمانة وغيرها؟

فنقول: دليلُنا علىٰ ذلك أنه لو قصد ارتكاب نهي الله تعالىٰ وترك نصيحته له مراعاةً لمكيدة الشيطان ومكرِهِ به وقبوله منه فأكل منها متعمّداً لصحّة قول اللّعين، تاركاً لوصية الله ونهيه، متعمّداً لتركهما لكان مُتّهماً لخبره تعالىٰ مفنّداً لحكمه، مُرتكباً لنهيه، وهٰذه كانت فعلة الشّيطان عند امتناعه من السُّجود حَذْوَكَ النّعل بالنّعل، وبها حُكِمَ بِكُفره.

فمن اعتقد هذا في حَقّه عليه السّلام فقد رماه بِرجام الكُفر، والإبتراك(٢٥) في أوضار الجهل، ودَحضْ المزلّات(٢٦). فأما ما كان يَبْترك

---

(٢٤) طٰه: ٢٠/١١٥

(٢٥) يقال: ابْتَرَك أي أسرع في العَدْو وَجَدَّ؛ وابترك الرجل في عِرض أخيه يقصّبه: إذا اجتهد في ذمّه.

(٢٦) الأوضار: الأوساخ.

=

فيه من الجَهالات: ففي تقليده عدوّه الشّيطان، وقبول قوله من غير دليل في أنّها شجرة الخُلد التي توجب المُلك الدّائم والحياةَ الدّائمة. وهذا هو القول بالطّبع فإنه لا يخلُو أن تفعل الشّجرة ذلك باختيارها أو تُوجبه بنفسه، ومحال أن تفعل باختيارها فإنّها جماد، ولو قُدرت حيّاً لم يصحّ فعلُها في غيرها، فإن القدرة الحادثة لا تتعلّق بما خرج عن محلها، فلم يَبْقَ إلا الطّبع؛ والقول به كفر. فمن قال إنّه أكلها قاصداً لِمَا ذَكرناه، أُلزم اعتقادَ وُقوع هٰذه الجَهالات كُلّها من آدم عليه السلام وهي لا تجوزُ عليه؛ فإنّها تؤدّي إلى الكُفر الصُّراح.

ومعلومٌ من دين الأُمّة أنّه ما كفَر نبيٌّ قطّ، ولا جَهِلَ الله تعالىٰ، ولا سَجَدَ لِوَثن، ولا أخبر تعالىٰ عن واحدٍ منهم بالكُفر، ولا بما دون الكُفر من المعاصي قبل النبوة وبعدها؛ سوى قصة آدم عليه السّلام، فمَنْ قال بِسوىٰ هذا فعليه الدَّليل، ولا دليل!

فإن قيل: ولعلّه كان يعتقد أَنّ إبليس أُعلم أنه من أَكل منها يَخْلُد في الجنّة بإرادة الله تعالىٰ لا بالطبع والإيجاب.

قلنا: باطل، فإن الله تعالىٰ أَعلمه قبل ذلك بنقيض قول الشّيطان في أن الأَكل منها سبب الخروج، فلو اعتقد الخُلود فيها إذا أكل من الشَّجرة بقولِ الشَّيطان لكان مكذِّباً للخبر السابق من الله تعالى، وهو الذي فَرَغْنا من استحالته عليه. فلم يبقَ إلاّ أنه أكل منها ناسياً فإنّه إذا لم يصحّ العمد لم يَبق إلا النِّسيان. علىٰ أنّا لو قدّرنا وقوع هٰذه القبائح من أَدنى عاقل مؤمن من البُلْهِ مِنّا لم يصح، فكيف يصحّ ممن خلقه الله تعالى بيده، وأسْجَد له ملائكته، وجعَله قبلةً لهم، وعلّمه الأسماء كُلّها، وجعلَه معلّماً

= ـ والدحض: الزَّلق. وفي حديث أبي ذرّ (رضي الله عنه) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن دون جسر جهنم طريقاً ذا دحض.

لهم، كلّمه بلا تَرْجُمان على جهة الإكرام والإعلام والنّصيحة. جاء في الصّحيح عن أبي هُرَيرة رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال[٢٧]: آدم نبيّ مكلم؛ يعني بغير واسطة، إذْ من الأنبياء غيرُ مكلّمين، قال الله تعالى[٢٨]: ﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ﴾، فكيف يكون آدمُ عليه السّلام مكلّماً على هٰذه الوجوه كما تقدم، ثم يقعُ في مثل هذه الجَهالات قاصداً متعمّداً، حاشى وكلا! فيَا لله لما يرتكبه الجاهلُ من نفسه، من حيث لا يشْعُر!

فخرج من مجموع ما ذكرناه، أنّه أكل منها ناسياً، وعُوتب على نسيانه الوصيّة، إذ لو كان مُراقباً لم ينسها على مَجرى العادة، فهذا هو الحقُّ الذي يُرغب فيه ولا يُرغب عنه. ولا يصحّ أن يُعتقد في حقّه، ولا في حق نُظَرائه من النّبيين والمُرسلين سوى ما ذكرناه، أو ما يُضاهيه من الشّروح التي لا تُخِلّ بقدره، ولا تغضّ من جاهه واجتبائه واصطفائه كما أخبر تعالى عنه.

فإن قيل: ولعلّه أكل منها غير قابلٍ لمكيدةِ الشّيطان، ولا رادٍّ لوصيّة ربه وإرشاده إياه، أو ناسياً لمكيدة الشّيطان عالماً بوصيّة ربه، لكن لشهوةٍ غلَبت علَيه، حتى هانَ عليه الخُروج من الجَنّة، لتحصيل تلك الشّهوة.

قلنا هذا لا يصحُّ في حَقّه عليه السّلام، لأنه مُؤذن بضعف عقل فاعله وشدّة شَرهه وسُوء رأيه، وقلّة علمه والتقحُّم على خَسيسِ الشّهوة

---

(٢٧) قال في الجامع لأحكام القرآن:
المكلّم موسى عليه السلام؛ وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن آدم أنبيٌّ مرسل هو؟ فقال: نعم نبيٌّ مكلّم. قال ابن عطيّة: وقد تأول بعض الناس أن تكليم آدم كان في الجنّة. فعلى هذا تبقى خاصية موسى.
- و: «من كَلَّمَ» أي: من كلّمه الله.

(٢٨) البقرة: ٢٥٣/٢

رضىً بالنّقمة. وليست هٰذه أخلاقه ولا شيمته، بل كانَ رأس العقلاء، ورئيس الحكماء، ومعلّم الملائكة، ولو حُكِيَ هذا عن عاقل من لفيف الناس لاستبعد في حقه، فكيف في حقّ مَنْ كَلّمه الله بلا تَرْجُمان على جهة الإكرام؟ فلم يبقَ إلا أن النّسيان الذي أخبر الله عنه، وعَدمُ العَزم، إنّما كان في أمرِ أكل الشّجرة لا غير.

فهذا هذا، ولم يبقَ بعد الخُروج عن هذه الإلزامات، في أنه أكَل منها ناسياً مَطْعَنٌ لطاعن. والله أعلم.

ولْتَعلموا أرشدنا الله وإياكم، أنّ هذه النّكتة الغريبة في أمر النِّسيان، الذي خلّص هذه القصة من التخيُّلات الفاسدة، والآراء المُضطربة، قد تقدّم إليها غيرُ واحد من العلماء وذكرها، لا سيما مشايخ الصُّوفية، فإنّهم على هٰذه القولة عَوَّلوا لكنهم لم يتخلّصوا منها كل التخلّص بل نَزَّهُوه عنها تَنزيهاً جُملياً غير مفصّل بمثل هذا التفصيل.

ولقد تحيّرت في إثبات هذا التخلص، على هذا الوجه منذ سنين لمعارضة هذا النسيان، بذكر المعصية والغواية والظُّلم، حتى تذاكرت يوماً فيها مع الفَقيه العالم المتفنّن أبي العباس أحمد بن محمّد اللَّخمي(٢٩) أدام الله كرامته، فكان منه في درج المذكّرة ما يليقُ بمثله من التّنبيه فيها على بعض نكتٍ نادرة مؤيّدة بالتّوفيق الرباني، فثلج بها الصّدر إذ لا يصح سواها كما قدمناه.

وأخبرني مع ذلك أنه أتعبه النّظر في حَلّ مُشكلاتها مدة طويلة، حتى فُتِحَ عليه، فشارك بحمد الله وأعانَ على ما كان تعذّر منها، بارك الله له فيما

(٢٩) أبو العباس أحمد بن محمد اللَّخمي: أرجِّح أنّه من علماء الأندلس، ولم يتعيَّن لديّ؛ فقد وجدتُ في كتاب الذَّيل والتكملة لابن عبد الملك نحو عشرة ممّن يكنون بأبي العبّاس ويتَسَمَّوْن بأحمد بن محمّد اللّخمي، ولا مُرَجِّحَ أو دلالة على المقصود فيهم.

منَحـه، وبـارك لنافي حياته وبقائه وصحّـة مُعامـلته ومعونـته. فانظرْ أيُّهـا اللّبيب الفَطِـن إليها، نَظر المُتَناصف ولا تعـدل عن هذا الشَّرح إلى سـواه، لئلا يُفتـح عليك بابٌ من الفساد ولا يـمكنك سدّه؛ فـإنه إذا جُوِّزَتْ عليه المعصيةُ المَنْهِيُّ عنها شَرعاًجـازَت على من بعده من الأَنـبياء عليهم السّلام. وإذا لم تَجُـز عليه فأحـرى أَلَّا تَجُـوز على مَنْ بَعْدَه مِنهـم، لكونهـم لم يُذكـر لواحـدٍ منهم معصيةٌ في الكتـاب ولا في السُّنّـة ضِمنـاً ولا تَصريحـاً؛ ولا يجـوزُ وقُوعها عليهـم كما قَدَّمناه.

ثـم إنّ الله تعـالى لَطـف بآدم عليه السّلام، في أَكـله من الشّجـرة بعد النّهـي عَنهـا، من ستـة أوجـه:

أَحـدها: أنّـه لما أَسجـد له ملائكتـه على جـلالة قدرهـم، وصيّره قبلةً لهـم ومعلّماً، لـطف بقلبه ألا تخـطر به لفتـة عُجـب، فامتحـنه بأكل الشجـرة، فلمّـا أكل منها عُوتـب عليها فتواضع.

الثاني: أنه كان مُنـبسطاً، فلمّـا أَكـل منها انقبضَ، فسَلِمَ من وَهـلات البسط لأنّ الله تعـالى لا يعامل إلا بالخَـوف والقـبض.

الثـالث: أنه امتُحِنَ التكـليف وكدّ المعيشة في الدُّنيـا، ليحـصل له مقـام الصـبر.

الرابع: أنّه رُزِقَ من طيبات ثَمراتها ليلتذّ بهـا، فيشكـر نِعَمَ الله تعـالى عليه فيَجـمع بين الصَّبر والشُّكـر.

فـإن قيل: فقد كان يتنعّـم في الجـنة بأكثر مما يتنعّـم في الدُّنـيا، قـلنا: كـان يتنعـم من غير تعبٍ سـابق، ونعيمُه في الدُّنيـا ممزوجٌ بالمشـقة، والتنعـم بعد المشـقة يؤكـد خـالص الشُّكـر؛ وأيضاً فإنّـه لم يكلّف في الجـنّة كما تقدم، فما كـان يؤجـر على شُكرٍ لو وقع منه.

الخـامس: أنه لما خَرج من دار التنعُّـم والدَّعـة إلى دار المَشَقَّـة

والتّكـليف صحّـت له المُعامَـلة بالكـسب والدَّرجـات بالطاعـة وميزان الجـنّة بالعـمل.

السادس: أن تَحـصَّل له أُجُـور ما يَنتهـكُ بعضُ ذريته من حُـرمة عِرضـه في هذه القصّة، فإنهـم يغتابونَهُ في اقتفـاء ما ليسَ لهـم به عـلم. وكـفى بالمرء عـقوقاً أن ينتهـك عرض أبـيه.

فهـذه، رحـمك الله، ستّة ألـطاف به في ضمن كلّ لـطف منها مقـام كـريم لآدم عـليه السلام كما قيـل(٣٠):

لعـلَّ عتبـكَ محـمـود عـواقِبُــه فربّمـا صَحّـت الأجـسامُ بالعِلَلِ!

(٣٠) البيت للمتنبّي من قـصيدة في ديوانه (بشرح العكبري): ٣/٨٦.

شرح قصّة نوح(*) عليه السلام

في محاورته مع ابنه الكافر وسؤاله ربّه في أمره. وكذلك في دُعائه على قومه.

قال تعالى(١): ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وكانَ فِي مَعْزِلٍ يا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الكَافِرِينَ. قال سَآوِي إلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ المَاءِ قَال لا عَاصِمَ اليَوْمَ من أَمْرِ الله إلّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا المَوْجُ فَكَانَ مِنَ المُغْرَقِيْنَ﴾.

قالوا: كيف يصحّ أن يقول له ﴿ارْكَبْ مَعَنَا﴾، فيأبىٰ ويظنّ أنّ الجبال تعصمه من الغرق، مع قول أبيه له ﴿وَلَا تَكُنْ مَعَ الكافِرِيْنَ﴾ وفي إبائه أن يركب مع أبيه السّفينة مع عُقوق أبيه والرّد عليه واعتصامه بغير السّفينة، دليلٌ على إثبات كُفره، إذ لو صدَّق أباه في أنّ النجاةَ في السفينة والهلاكَ في غيرها لم يَقُلْ ذلك.

وفي قوله أيضاً مع اعتقاده أنّ الجبال تعصمُ من الماء، تسفيهُ حلم أبيه، إذْ لو كان الاعتصام بغير السّفينة، لكان الاعتصامُ بالسّفينة سَفَهاً من جهة الضّيق والتّعزير. ونوحٌ عليه السلام أعلمُ النّاس بهذه الوجوه، وهذه القرائن من أحوال ولدِه وأقواله، فإنّها تدلُّ على كفره بتكذيبه إياه وتسفيه حِلمه. وإذا كان هذا فكيف يَسُوغ له عليه السّلام أن يقولَ بعد ذلك(٢) ﴿رَبِّ إنَّ ابْنِيْ مِنْ أَهْلِيْ وإنّ وَعْدَكَ الحَقُّ﴾ يعني في سلامة أهلي. وقد

(*) شرح قصة نوح عليه السلام في: تنزيه الأنبياء للشريف المرتضى: ١٧، وعرائس المجالس: ٥٤، وابن كثير ١: ١٠٤، وتفسير الطبريّ ١٢: ٢٥، وتاريخ الطبريّ ١: ١٧٩، وتفسير الطبّري ٩: ٣٠.

(١) هود: ١١/٤٢ - ٤٣.

(٢) هود: ١١/٤٥

قيل له قبـل ذلك[٣]: ﴿إلاّ من سَبَقَ عَلَيْهِ القَوْلُ﴾ وأقـوالُ ابنِهِ وأحـوالُه تدلّ علىٰ أنه مِمَّـن سَبـق عَليه القَوْل. وكـذلك قـولهُ تعـالىٰ له[٤]: ﴿وَلاَ تُخـاطِبُنِيْ في الَّذِيْنَ ظَلَمُوا إنَّهُـمْ مُغْرَقُوْنَ﴾ وهو من الـذين ظَلَمُوا.

فالجـواب: أنَّ نُوحـاً عليه السّلام حـين ركـب السَّفينة وأَدْخَـل فيها المؤمنـين وأَهـله كما أُمِـر، رَأَىٰ ولـده في جهـةٍ من خـارج السَّفينة وبمقرُبةٍ منها حـيث يسْمَعُ النِّـداء، ولم يَر امرأتـه، فيـئس من سلاَمتها، وظَنَّ أنها هي المُستثنـاة وَحـدها وأنّهـا هـي التـي سَبَق عليها القول من الله تعالى بختم الكُفـر والعَـذاب فقط، وطمع في إيـمان ولـده الذّي كـان عهد منه قـبل ذلك، وكـان ولدُه يُظهر له الإيمانَ ويُبْطِنُ الكُفر. والأنـبياء عليهمُ السّلامُ إنما عُنُوا بالظَّواهـر والله يتولّى السَّرائر. فـلما لَمْ يَـر امرأته يَئِسَ منْ سلامتهـا. ولمّا رأىٰ ولدَه بمقربةٍ من السّفينة حـيث يسمعُ النِّـداء طَمِعَ في سلامته وحَسَّن الظَّنَّ أنّـه مُؤمـن، فقـال[٥]: ﴿يـا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا﴾ يعني في السَّفينة ﴿وَلاَ تَكُنْ مَعَ الكَافِرِينَ﴾ أي لا تَبْقَ في الأرض فتهـلِكَ مع الكَفَرة. [و] في قـوله لـه: ﴿وَلاَ تَكُنْ مَعَ الكَافِرِينَ﴾ دليلٌ علىٰ أنّـه كان يعتقدُ إيمـانـه. فلمّا قـال له[٦]: ﴿سَآوِي إلىٰ جبَلٍ يَعْصِمُنِيْ مِنَ المَـاءِ﴾ حَسّن أيـضاً بِهِ الظَّنَّ بأنه كـان يعتقدُ أنّ ما أخـبر به أَبُوه من هـلاكِ الكَفَرة صحـيح، وأنّ المؤمن يسلَمُ بإيمـانه، فظنّ هو أنّه يَسْلَمُ في السَّفينة وغيرها فقـال له أَبُوه[٧]: ﴿لا عَاصِمَ اليَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ يعني من مُـراد الله هـلاكَ الكفـرة. ﴿إلاّ مَنْ رَحِـمَ﴾[٧] يَعـني من رحـمهُ الله فسَلِمَ بإيمـانه. ولم يقـل: إلاّ من ركـب السَّفينة. فاحتـملَ القـول جـوَاز سلامةِ المُؤمـن في السّفينـة وغيرها، فـلم يقـع من الولد تكـذيبٌ ظاهـرٌ لأبيـه في هٰـذه

(٣) هود: ١١/٤٠
(٤) هود: ١١/٣٧
(٥) هـود: ١١/٤٢
(٦) هـود: ١١/٤٣
(٧) هـود: ١١/٤٣

المُرَاجعة مع هذه الاحتمالات، ثمّ ﴿حَالَ بَيْنَهُمَا المَوْجُ﴾(٧) في الحين، فظنّ نوح عليه السَّلام أنّه قد كان يدخلُ معه السّفينة لولا ما حال بينَهُمَا الموج. فلمّا حال بينهما الموجُ لم يَدْرِ ما صَنَعَ الله بهِ وبقي مُستريباً في إيمانه، فقال بعد ذلك(٨): ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾، يعني في النّسب وظاهر إيمانه ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الحَقُّ﴾ في سلامة أهلي بإيمانهم ﴿وَأَنْتَ أَحْكَمُ الحَاكِمِين﴾(٨). إن كان الحكم هُنا من الحكمة التي هي العِلّة فمعناه: أنت أعلمُ العالمين بحالِه ومُعتقده؛ وإن كان الحكمُ: القَهر بالإرادة والقُدرة فمعناه: أنت أقهَرُ القاهرين الذي لا رادَّ لأمرك ولا مُعَقِّبَ لِحُكْمِك.

وفي ضمن هذا كُلّه سؤاله ربّه ورغبته [في] أن يُطلعه على عاقبة أمر ولده كيف كانت؟ فأطلعه الله على ذلك فقال(٩): ﴿يا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ يعني في الدِّين لا في النَّسب(٩) ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ﴾ يعني أن عمله غيرُ صالحٍ، لكنْ سَمَّاه باسم صِفته الغالبة عليه. وقد قُرِىء(١٠): (إِنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ) بفتح اللّام على معنى الخَبر عن عمله، فأعلمه الله تعالى بحاله ومآله ثمّ أدّبه تعالى ووعَظه وعَلّمه فقال له(١١): ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ نَهَاهُ رَبُّه أن يسأله تحصيلَ عِلم ما لَمْ يُكَلَّف علمه، إذْ ليس يجب على المكلف أن يَسأل علم ما لم يكلّف العلم به.

---

(٨) هود: ١١/٤٥

(٩) هود: ١١/٤٦

(١٠) في الجامع لأحكام القرآن ٩/٤٦ «قرأ ابن عباس وعروة وعكرمة ويعقوب والكسائي: «إنّهُ عَمِلَ غَيْرَ صَالح» أي من الكفر والتكذيب، قال: واختاره أبو عُبيد. وقرأ الباقون «عَمَلٌ غيرُ صالح» أي ابنك ذو عمل غير صالح؛ فحذف المضاف، قال الزجّاج وغيره.
قال القرطبي: وهذا القول والذي قبله يرجع إلى معنى واحد. ويجوز أن تكون الهاء للسؤال، أي إن سؤالك إياي أن أنجيه غير صالح.
ونقل وجوهاً أخرَ نكتفي بما أوردنا منها.

(١١) هود: ١١/٤٦

ومن هٰـذا الوجـه تخـرج قـولة خِضر لموسى عَليهـما السّلام[١٢]: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً﴾ وذٰلك أَنَّ مُوسى عـليه السَّلام طَلب منه علماً لم يكـلّف طلبه؛ إذْ لا يجـوزُ لطالبِ العـلم المكلّف بطلبه السكوتُ عن سُؤالِ علم يـلزمه، ولا يجـوز للمعلّم أيـضاً أن يَنْهَـاه عن السّؤال فيما كُلّف العلمَ به.

فخـرج من ذٰلك أنّ نُوحـاً عليه السلام سَأَل في أَمْرِ ولـده عن علمٍ لا يـلزمـه، فنَهـاه الله تعـالى أن يسـأل عَمّـا لم يُكَلَّـف العلمَ بـه. ثـم حَذّره تعـالىٰ أن يفعلَ ذٰلك، علىٰ جهـةِ النَّزاهة لا عَلىٰ الحَظْر، فقـال:[١٣] ﴿إنّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُوْنَ مِنَ الجَاهِلِيْنَ﴾ يعني الّذين يتعصَّبُوْنَ لعاطفـة الرَّحِـم حَتّىٰ يسـألوا عَمّـا لم يُكَلَّفُوا العلمَ بِه.

فقـد قـامَ بحـمد الله عُذر نوح في سُؤاله عن رَفع الإشكـال، وإجـابة ربّـه تعـالىٰ إيّـاه في إعـلامه بمآل وَلـده، وعتبـه ألاّ يعود لمثـل ذلك. واستعـاذ هـو بربّـه ألاّ يفعل مثل ذٰلك.

ولله تعـالى أن يعتب أَنبيـاءه، ويؤدّبهـم، ويُحَذّرهـم، ويُعَلّمهـم، من غير أن يـلحق بهم عتبٌ ولا ذنـب.

فهـذا هٰـذا، والجَهـلة يخبِطُون عَشْواءَ الدُّجـون.

---

(١٢) الكهـف: ١٨/٧٠

(١٣) هـود: ١١/٤٦

فصل

في شرح ما جاءَ في الكتاب من دُعَائه على قَومه، وامتِنَاعه الشّفاعة الكُبرى في الآخرة من أجله.

وأمّا قصّته عليه السّلام في دُعائه على قَوْمه حين قال[١٤]: ﴿رَبِّ لاتَذَرْ عَلَىٰ الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِيْنَ دَيّاراً﴾ فأجابه ربُّه فيهم، فجاء في الخبر أنه احتمل أَذَايَتَهُم ألفَ سنة إلاّ خمسين عاماً، كما أخبر تعالى، وهو يقُول مع ذلك ربِّ اهدِ قومِي فإنهُم لا يَعلمون، فبينا هو ساجد يوماً إذ مرّ به رجلٌ من كُفّار قومه وعلىٰ عُنقه حفيدٌ له، فقال الجدُّ للحفيد: يا بُنَيّ، هٰذا هو الشّيخ الكذاب الذي دَعَانا إلىٰ عبادة ربٍّ لا نعرفه وأَوْعَدنا وعيداً بلا أَمَد، فتحفّظْ منه لئلاّ يُضِلّك، فقال الحفيدُ له: إذا كان علىٰ هذه الحالة فَلِمَ تركتمُوه حَيّاً إلى الآن؟ فقال له الجَدّ: وما كنا نصنعُ به؟ فقال: أنزلني حتّى ترىٰ ما أصنع به، فأنزله، فأخذ صخرةً فصَبَّها على رأسه فتلَقّفَها المَلَكُ، وقيل: شجّ رأسه، فلما سمع نوحُ عليه السّلام قوله ورأىٰ فعله، علم إذْ ذاكَ أَنّ الحفيد أَطْغىٰ من الجَدّ، فدَعَا في تلكَ السّجدة فكان ما كان[١٥]. ثم نَدِمَ علىٰ دُعَائِه حتّى إذا سُئِلَ الشّفاعة في الآخرة امتنع منها واعْتَذر بأنّه دَعَا على قَومه بالإهلاك[١٦].

ومعلومٌ أنّ دعاء المؤمن على الكافر مباحٌ لا ذنبَ فيه صغيراً ولا كبيراً،

---

(١٤) نوح ٧١/٢٦

(١٥) الخبر في القرطبي ١٨/٣١٢

(١٦) في سُورة نوح: ﴿وَقَالَ نُوْحُ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكافِرِيْنَ دَيّاراً. إنَّكَ إن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ ولا يَلِدُوا إلاّ فَاجِراً كَفّاراً﴾.
وقيل في التفسير:
- دعا عليهم حين يئس من اتّباعهم إيّاه.
- دعا عليهم بعد أن أوحى الله إليه «إنه لن يؤمن من قومك إلاّ مَنْ قد آمن». فأجاب الله دعوته وأغرق أُمّته (يعني كفّارهم).

لا سيّما بعدما قيل له[١٧]: ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾. فلما قَطَع بكفرهم دَعَا عَليهم..

وإذا كان الدُّعاء علىٰ الكَفرة علىٰ الإطلاق مُباحاً كان أَحْرَى إذا وقع القَطع على كفرهم بالخَبر الصّدق.

وقد دعا رسولُ الله صلى الله عليه وسلَّم على مُضَر[١٨]. وكذلك موسىٰ عَلَيه السَّلام دَعَا على فرعون ومَلئه[١٩].

علىٰ أَنَّ دعوة نوح عليه السلام رحمةٌ عَلّلها هو إذْ دَعا فقال[٢٠]: ﴿إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ﴾ يعني يُضِلّوا مَنْ آمَنَ مِن قومه بكثرة الأَذاية، فربما رجَع منهم إلى مَذْهَبِهم. وقد يكون العبادُ هنا: المولودين على الفِطرة الّذين إذا أَدْرَكوا يكفُرون بِكُفر آبائهم[٢١] كما ورد في الخبر.

﴿وَلَا يَلِدُوْا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً﴾ يعني: من يكفر في ثاني حال، لصحّة الخبر أنهم لا يُؤمنون؛ ولِمَا رأى من الصّبيّ الذي طرَح على رأسه الصَّخرة، إنْ صحَّ الخبر.

---

(١٧) هود: ٣٦/١١

(١٨) في صحيح مسلم ٤: ٢١٥٧، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم دعا على قريش لمّا استَعْصَتْ عليه بسنينَ سبعٍ كسنيّ يوسف، فأصابهم قحطٌ وجَهْدٌ، حتّى أكلوا العظام، حتّى أتى رَجُلٌ (قيل هو أبو سفيان) قال: يا رسول الله، استغْفِرْ لِمُضَر، فإنَّهُمْ قَدْ هَلَكُوا، فلم يستغفر لهم رسول الله، ولكنْ دعا الله لهم فَمُطِرُوا. (نقلتُ الحديث بمعناه) وانظر مسند الإمام أحمد ١: ٣٨٠، ٣٤١، ٤٤١.

(١٩) قال تعالى في سورة يونس ٨٨/١٠: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنا إِنَّك آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينةً وأَمْوَالاً فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيْلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلى قُلوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوا العَذَابَ الأَلِيْمَ﴾ ومعنى: اطمِسْ على أموالهم: عاقبهم على كفرهم بإهلاك أموالهم.

(٢٠) نوح: ٢٧/٧١

(٢١) إشارة إلى الحديث المشهور: كلّ مولود يولد على الفِطرة:
ـ وقوله: «إذا أدركوا» يعني بلغوا مبلغ الرجال، وصاروا في سِنّ التكليف الشرعي.

وإذا كان كذلك وطال مكثهم يتوَالَدُون فيكثُر سوادُ أهل النّار بطول مُكثهم.

وهذا دُعاءٌ مُبَاحٌ مع ما فيه من الرِّفق بالغَير وطلب السَّلامة للبعض. وقد عدّه هو ذنباً، وذلك لأنّه رأى أنّ سكوته وصبره عليهم كان أولىٰ به، حتى ينفذ فيهم حُكم ربّهم بما شاء.

ويُحتمل أن يعدّه ذنباً لكونه لم يُؤمر به، كما عدّ موسىٰ عليه السّلام قَتَل الكافر ذَنباً لكونه لم يُؤمر به فيقول: قتلت نفساً لم يأمرني الله بقتلها.

فهذا رَحِمَكَ الله، أدلُّ دليلٍ علىٰ صِحَّة ما ذَكرناه في أنّ الأكابر يصيّرون بعضَ المُباحات ذنوباً من باب الأَوْلىٰ والأَحْرىٰ، إذِ الدُّعاءُ على الكَفَرَةِ مُبَاحٌ إجماعاً[٢٢].

فصل

ثم إن لله تعالى أن يعتب أنبياءه وأصفياءه، ويؤدبهم كما تقدّم، ويطلبُهم بالنَّقِيْرِ والقِطْمِير[٢٣]، من غير أَن يَلْحَقَهُم في ذلك نقصٌ من كمَالِهم، ولا غَضٌّ من أقدارهم، حتىٰ يَتَمَحَّصُوا للعُبوديّة، والقيام في نطاقِ الخِدمة، والقُعود على بِساط القُربة.

أَلا ترىٰ كيف نَهىٰ الله تعالى نبينا صلى الله عليه وسلّم عن النّظر

(٢٢) عَلّق في الجامع لأحكام القرآن بعد آية سورة يونس الثامنة والثمانين قال: «استشكل بعض الناس هذه الآية فقال: كيف دعا عليهم وحُكم الرسل استدعاء إيمان قومهم؟».
فالجواب: أنه لا يجوز أن يدعو نبيّ على قومه إلا بإذن من الله، وإعلام أنه ليس فيهم من يؤمن ولا يخرج من أصلابهم من يؤمن، دليلُ قوله لنوح عليه السلام: «إنَّه لن يؤمن من قومك إلّا من قد آمن» وعند ذلك قال: «ربِّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديّاراً» والله أعلم.

(٢٣) يضربان مثلاً في القليل والذي لا شأن له:
فالنقير: النُكْتة (النُّقْرَة) في ظَهْرِ نواة التَّمْرَة.
والقِطمِير: القشرة الرقيقة على نواة التمرة كاللّفافة لها.

لبعـض المُبَاحـات فقـال[٢٤]: ﴿لَا تَمُـدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ ما مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجَاً مِنْهُـمْ﴾ الآيـة. ونهـاه أن يُتبـع النظرة الأُولى ثـانيةً؛ فقـال له[٢٥]: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَـاكَ عَنْهُـمْ تُرِيـدُ زِيْنَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَـا﴾ مع قـوله تعـالى في مقـامٍ آخـر[٢٦]: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِيْنَةَ الله الَّتِيْ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ والطَّيِّبـاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾.

فـإذا لـم يحـرّم أكـل الطيّبـات والتمتّـع بالزّينـة إذا كـانت من كَسْبِ الحــلال، ـ والنّظر في الحُسن من التمتّع والزّينة ـ فكيف يحرم النّظر إليها؟ لكنْ كمَا قـال المشايخ: حَسَناتُ الأبـرار سيّئات المُقَرَّبين!

جاء في الصحيح، أن النـبي صلى الله عليه وسلّم قـال يوم الفتح[٢٧]: «مـا كان لنبيٍّ أن يـكونَ لهُ خـائنةُ الأَعْيُن».

يعني الإشارة بالعَين في الأوامـر حـتّى يُفصح بها.

والإشارة بالعين في الأَوامر مُبَاحـة، لكنّه يجـري[٢٨] عنها تنزُّهـاً وتأكيـداً لرفعِ الالتبـاس، وهي مباحـةٌ لغير الأنـبياء.

(٢٤) الحجر: ١٥/ ٨٨.
(٢٥) الكهـف ١٨/ ٢٨
(٢٦) الأعـراف: ٧/ ٣٢
(٢٧) في سنن أبي داوود ٤: ١٢٨، ونصّه: «إنَّـه لا ينبغي لنبيّ أن تـكون له خـائنـة الأعـين».
(٢٨) في الأصـل المخـطوط كـلمة رسمها (يجـري) بـلا نقـط.

شَرْحُ قِصّةِ ابْرَاهِيْم(*) عَلَيْهِ السّلام

بِما تَقْتَضِيْه الآياتُ الثَّلاث.

إحداهـا: في استدلاله بالثّلاثة الكواكـب.

الثانية: فـي الأَقـوال ،لثّلاثة التي قـال إنها كذبات.

الثالثة: في قوله[1]: ﴿رَبِّ أَرِني كَيْفَ تُحْيِي المَوْتىٰ﴾

فَمِمّا تَخَيَّلُوه في استِدلاله بالكواكب أنّهم زَعَمُوا أنّ أُمّه فَرَّت به صغيراً إلىٰ مغارة خوفاً من النُّمرود، فإنّه كان يذبح أبناءَ العَماليق ويستحيي نساءَهُم، خيفةً علىٰ خرابِ مُلكه علىٰ يدِ مولودٍ فيهم. كما كان يفعلُ فرعون ببني إسرائيل، خيفةً من خرابِ مُلكه علىٰ يد مولودٍ منهم.

فألقته في المغارة، وكـانت تختلف إليه[2] فَتُرضعه فيها، وكان يشقُّ عليها ذلك خيفةً من أن يظهر أمرُها معه لقومها بالتّكرار إليه، إلىٰ أن جاءت يوماً فوجدَتْهُ يرضع ظَبية، فطابت نفسُها وعلمت أنّه محفُوظ، فتركته ولم تعد إليه، فبقي كذلك حتىٰ حصل في حَدِّ مَنْ يَعقل، فخرج ليلاً من المغارة ليطلب العِلم بصانعه ومعبوده، فرأىٰ كوكباً وَقّاداً فقال: هٰذا رَبيّ إلىٰ آخر ما قال.

فأما قولهم في قصّة المغارة والظَّبْيَة، فهو قليلٌ في كَرامته وجائزٌ عليه.

وأما قولهم: نظر في الكوكب فقال: «هذا رَبيّ»، مُعتقداً لِذٰلك فباطل، فإنّ هذا القول كفرٌ صُرَاح، وما كَفَر نبيٌّ قطُّ ولا سَجَد لِوَثَنٍ قبل النُّبُوّة ولا بَعْدَها،

(*) شـرح قـصة إبـراهيم عليه السـلام في: تنـزيه الأنـبياء للشريف المرتـضى: ٢٠، وعـرائس المجـالس: ٧٣ - ٧٩، وابـن كـثير ١: ١٩١، وتـفسير الطبريّ ٣: ٣٢، وتـاريخ الطبري ١: ٢٣٣ و٧: ١٥٨ و١٧: ٢٨، وتـفسير القرطبي ٣: ٢٩٧ و٧: ٢١ و١١: ٢٩٩

(١) البقـرة: ٢ / ٢٦٠

(٢) أي تأتـي مرّة بعد مَرّة؛ بحـسب الاقتضـاء والضـرورة.

ولا تَفَّوه أحدٌ من الأُمّة بذلك قَطّ، كان مُحِقّاً أو غيرَ مُحِق.

جاء في الأَثر في خُروج نبينا صلىٰ الله عليه وسلّم صغيراً مع عمّه أبي طالب إلىٰ الشام، أنَّه لما مَرَّ بصومعةِ بَحِيْرَا الرّاهب(٣) نزل إليه في حديثٍ يطول ذكرُه، إلىٰ أن قال له: باللّاتِ والعُزّىٰ يا غُلَامُ ما اسْمُكَ؟

فقال له: إليكَ عَنّي، فوالله ما تَكلَّمت العربُ بكلمةٍ هي أَثْقَلُ عَليَّ مِنْ هٰذه الكلمة!

فحاشا لِأَنبياء الله تعالىٰ من اعتقادِ الكُفر في وقتٍ من الأَوقات!

وكيف، وقد جاء في الصّحيح أنّ النبي صلىٰ الله عليه وسلم إذ كان غلاماً كان يوماً ينقلُ الحجارةَ مع عَمّه أبي طالب لإصلاح ما ثلم في الكَعبة(٤)، وهو عارٍ؛ فسقط علىٰ وجَهه في الأَرض مغشِيّاً عليه، فلما أَفاق قال له عمُّه: ما بالك؟ فقال: رأيتُ شخصاً أَشار إليّ أن اسْتَتِرْ. وكان ذٰلك الشّخص المَلَك. فهٰذا صغيرٌ ينبّهه الملَك علىٰ أَدبٍ من آداب الشَّريعة قبل التّكليف. فما ظَنُّك بحمايتهم من الكُفر؟ علىٰ أَنّ مِنهم من أُوتي الحُكْمَ صَبِيّاً، كيحيى عليه السَّلام. قال تعالىٰ(٥): ﴿وَآتَيْنَاهُ الحُكْمَ صَبِيّاً﴾ وعيسىٰ عليه السلام تكلّم في المهد صبِيّاً بالحكمة، حيث قال(٦): ﴿إِنِّيْ عَبْدُ الله..﴾ الآية؛ والذبيح أُوتي العِلْمَ والحِلْمَ غُلاماً؛ قال(٧): ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيْمٍ﴾ وفي آية

(٣) انظر السيرة النبويّة ١: ١٨٢

(٤) انظر السيرة النبويّة ١: ١٨٣، ومسند الإمام أحمد ٣: ٢٩٥

(٥) مريم: ١٢/١٩

(٦) مريم ٣٠/١٩

(٧) الذاريات ٢٨/٥١

- «عليم» أي يكون بعد بلوغه من أولي العلم بالله ودينه.

قال في الجامع لأحكام القرآن: الجمهور على أن المبشّر به هو إسحاق. وقال مجاهد

أخرىٰ[٨] ﴿حَلِيْمٍ﴾.

فهذا هو الّذي يصحُّ من أَحوالهم، ويُعتقد في جانبهم الكريم.

وإذا كان هـذا شأنهم في حال الطُّفولِيّة، فما ظَنُّك بهم في حال الإدراك وكمال العقل؟!

فحاشاهُم أَن يكفروا اعتقاداً أو يتلَفَّظُوا بكلمةِ كُفر: كانوا صغاراً أو كباراً.

فإن قيـل: فمن أين عَرفُوا الله تعالىٰ قبل النُّبوة؟!

فنقول: بالنَّظر والاستِدلال.

فإن قيل: فقـد كانوا زمنَ النّظر غيرَ عالِمين بالله تعالىٰ!

قلنـا: كذلك هو. لكنْ ما دام المحلّ معمُوراً بالنَّظر لم يحكم له بكفرٍ ولا بإيمان، إلا أنّه كان آخر نظرهم مُتّصلاً بالعِلم، ففي أثر ما نظروا عَرفُوا الحقّ حقاً من غير أن يَعْتَقدوا جهلاً أو يتلفَّظُوا بكلمةِ كُفر.

ومن الناس مَنْ قـال: إنّهم عَلِمُوا خالقهم بعلومٍ ضروريّة علىٰ جهة الخَرْقِ والإكرام لهم.

وهذا سائغٌ في المقدُور لائقٌ بهم، إلّا أنهم يفوتُهم في ذلك أَجْرُ الكَسب، إذْ ﴿ليس للإنسان إلّا ماسعىٰ﴾.

ومنهم مَنْ قـال: إنهم اكتَسَبُوا العلم من غير تقدّم نظرٍ علىٰ جهة الخَرق، إكراماً من الله تعالىٰ لهم؛ والله أعلم.

ولَهُم في هـذا كلامٌ لا تحتمل هذه التّعاليق بَسْطَهُ، لكنهم مُجمعون

= وحـده: هـو إسماعيـل. قـال: وليس بشيء فـإن الله تعـالى يـقول: «وبشّرناه بإسحـاق» وهـذا نصّ.

(٨) الصافّات: ١٠١/٣٧ ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُـلامٍ حَلِيْمٍ﴾ أي يكونُ حليماً في كـبره، فكأنه بُشّر ببقـاء ذلك الولـد لأن الصغير لا يوصـف بـذلك.

علىٰ أنهم علموا من أول وهلة، علىٰ أيّ وجهٍ علموا: نَظراً أو ضرورة.

فصـــل

وأول ما ينبغـي أن نقدّم قبل الخَـوض في هٰذه المَسائل الإعلام بأنّ إبراهيم عليه السَّلام كان نبيّ الحُجَّـةِ، وهو أوّل من أَصَّلَ أُصول الدِّين بالاستِدلال على عِلم التَّوحيد. وبه اقْتَدى رؤساء المتكلّمين في استِدلاله بالثّلاثة الكواكب التي ورَدت في الكتابِ كما سيأتي فيما بعد إن شاءَ الله تعالى.

قـال تعالى(٩): ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْناهَا إِبْرَاهِيْمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ درَجَـاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيْمٌ عَلِيْمٌ﴾.

نرفع درجـات من نشاء، أي بالحُجّة البالغة والعلوم العالية، فكان قومه حَرَّانِيِّيْنَ(١٠) ينظُرون في النُّجوم ويردّون لها القَضاء في الأَفعال، ويعبُدون بعضهَا. فكان هو يقصد الاحتجاج عليهم في حُدوثها بتغيرها وتبدّل أحوالها، فخرج مع أهل الرّصد ليلاً لينبّههم على حدوثها بتغيّرها مع تسليم مذهبهم الفاسد لهم جَدَلاً؛ وقصدُه: مقابلةُ الفاسِد بالفاسِد فإنّه من وُجوه النظر. والأَظْهَرُ في طريقة التّنبيه على الحُدوث الاستدلال بالأكوان، فإنّ الحركة يُعْلَمُ حُدُوثُها ضرورةً لكونِهَا تقطع الحَيِّزَ بعد الحيِّز بحركةٍ بعد حركةٍ. فمن رأى ساكناً يتحرّك عَلِمَ تَغَيُّرَهُ ضرورةً، فنظر عليه السَّلامُ فرأى كوكباً فقال لقومه: ﴿هٰذا رَبّي﴾ يعني على ظنّكـم وحِسابِكم. ففرحوا بقوله وظَنُّوا أنّه رجع إلى مذهبهم، فلمّـا أَفـل رجع لهم عن قـوله الأَول بقولـه: ﴿لا أُحِبُّ الآفلين﴾!

فعلموا إذ ذاك أنّه رجع عن مذهبهم بحجّةٍ بالغة، والدّليل على صحة ما

---

(٩) الأنعـام: ٦/٨٣

(١٠) الحـرّانيون نسبة إلى مـدينة حَرّان؛ وهـي مدينة مشهـورة، تقـع اليوم في تركـية، فُتِحَـتْ أيـام عمـر بن الخـطاب رضي الله عنه (وانظـر معجـم البلدان: حَـرَّان).

رُمناه من أنّه قال﴿هذا ربي﴾على جهة التَّعْنِيْتِ لهم، وإقامته الحُجّة عليهم لعلهم يتفطّنون ويتعلمون منه وجوه الاستدلال.

ويتصوّر الردّ فيه عَلى القائلين بأنّـه استَدَلّ وغَلِطَ وتَحَيّر من ثلاثةِ أوجه:

أحدها: أنّه لو قـال:﴿هٰذا ربي﴾على جهة الاعتقاد والتّصميم لكان كافراً في تلك اللّيلة إلى حين غُروب الكوكب. وكذلك يلزم في قوله في القمر والشّمس، ومن اعتقد هـٰذا فقد أعظمَ عليه الفِرْيَة، وردّ ما عُلِم من دين الأُمّة في أَنّ نبياً ما كَفر قَطّ عَقداً ولالفظاً كما تَقدّم. وغايته أن لو كان ما زعموه لتوقف على دؤوب النّظـر حتى يعلم الحق حقاً لكون الناظر في حال نظره لا يُحكم له بكفرٍ ولا بإيمان كما تقدّم.

الثاني: أنّه لو كان يُثبت إلٓهيّة الكوكب عند الطُّلوع من أَجل ظهوره وينفيها عند الغروب من أَجل غـروبه لقامت عليه حُجّة الخصم بأَنْ يقول له: إذا أثبتّ إلٓهيّة الكوكب عند الطّلوع ونفيتها عند الغروب فالكوكبُ يَسْرِي على ما هـو بـه، وإنّما غاب عنك وسيطلع غداً ويظهر لك فيلزمك أن تُثبت الآلٓهيَّة له عند كلّ طُلوع وتنفيها عند كُلّ غروب. وهذا تناقضٌ بيّنٌ مع تساوي الغُروب والطُّلوع لـه في التَّغَيُّر.

الثالث: أن الكواكب لا تكاد تُعَدُّ كثرةً فمن أَين له أَن يعيّـن أَحدهـا بالإلٓهيّة مع التّساوي بينهما في كل حال.

فَإِنْ قالُوا إن الكوكب كان من الدّراري السّبعة التي يعتقد قومه فيها الآلٓهيّة قبلُ.

قيل لهم: هذا باطلٌ من أَربعةِ أوجه:

أحدها: أنكم قُلتم إنّه عندما خرج في حال صغره من المَغارة رأى أوّل كوكب فقال هٰذا رَبيّ. فهو على قولكم لم يعلم الدّراري من غيرها رؤيةً ولا سَماعاً لكونه لم يَرَ أَحـداً يُخبره بذلك.

الثاني: أنه لو كان يقصد أحَد الدّراري لعلمه بأن قـومه عَبَدُوها وخَصصوها بالآلِهيّة فيقول﴿هـذا ربيّ﴾معتقـداً لذلك لكان مقلّـداً لقومه في الكُفر لكونه ما عِنْدَهُ إلّا ما سمع منهم بأنّها آلهةٌ. وهذا أشدّ عليهم في الإنكار من كل ما تَخيّلوه.

الثالث: أنّ الطُّلوع والغُروب في التّغَيُّر والحَركات على سَواءٍ في الاستِدْلالِ على الحُدوث؛ فلم استدلّ بأحدهما على نفي الآلهيّـة وأثبتها للثّاني؟

الرّابع: أنه قال في الشّمس والقَمر ما قاله في الكوكـب فصـار ينقـل الآلهيّة مِن جسمٍ إلى جسم، والكُلّ في حالةِ الطُّلـوع والغُروب على سـواء. وهٰـذه غايةُ الجَهل الّذي يُحاشى الخليلُ عليه السُّلامُ عنه قَطعاً.

فإنْ قالوا: لما رأى القَمر ظَـنَّ أنَّه لا يَغْرُب فقال ذٰلك؛ قُلنا: هذا باطـل فإنّـه قد جَرّب الكوكبَ وطلوعَـه وغُروبه ثمّ رأى القَمر طالعاً كالكوكب. فلو كان ما زعمتُمْ لتوقّف عن هٰذا القول حتى يرى هل يغرب أم لا يغرب، وأمّا قولُه في الشّمس فيجب أن يتأكّد الإنكار عليه لتأكّدِ تَكرارِ التجربة منه في الكواكب والقمر.

وهٰـذه الأَقوال كلُّها لو قُدّرت لأحدٍ منّا لأَنكرها كلّ الإنكار فإنّ فيها غاية الحَيرة وعدم الاستِدلال. فكيف تثبت لخليلِ الرَّحمنِ الّذي أَراه ملكوت السّموات والأرض حتى كان يرى ويسمع صَريفَ القَلم[١١] في اللَّوح المحفُوظ؟ وكان يُسمع خَفقات قلبه من خشية الله على فَرسخ؟ فإذا بطلت في حقّـه ـ بل في حَـقّ العُقَلاء المُستدِلّين ـ هٰـذه الأَقوال لم يبـق إلا أنّه قالها من باب مُقابلة الفاسِـد بالفاسِد ليقيم الحُجّة على قومه في التغيُّر بالأكوانِ الدالـة

(١١) صريف القـلم صوت صريره على الورق وما يُكتب عليه من أشيـاء.

على الحُدوث، ويعضد ذلك قوله لهم في الشمس(١٢): ﴿هٰذا رَبِّي هٰذا أكْبَرُ﴾ يعني أكبر جِرْماً وأبْهَرُ ضياءً، وأنفع لأهل الأرض، من كل ما دُونها من الكواكب، وهي تتغيّر كتغيرها، وليس بعدها ما ينتظر(١٢) ﴿يا قوم إنّي بَريءٌ مِمّا تُشْرِكُوْنَ﴾ الآيات إلى قوله(١٣) ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّيْ فِي الله وَقَدْ هَدَانِ﴾ الآية والباريءُ تعالى يُخبر أنّه نادى قومه وناجاهم، وحاجُّوه وحاجَّهم، وردَّ عليهم. وهم يَقُولُون إنّه خرج من المغارة وحده. واستدلّ وغلط وتحيَّر وقال: هٰـذا رَبيّ في الكواكب الثّلاثة؛ فلو كان صغيراً كما زعموا لم يكن له قومٌ يُناديهم ويُحَاجُّهم ويُحَاجُّونه، ولو كان أيضاً لم يَر الكواكب إلا تلك اللّيلة كما زَعَمُوا، لم يقل في الشّمس على الإطلاق «هٰـذا رَبّي هذا أكبر»، مع تجويزِ طُلوع أكبر منها فلولا ما رأى الكواكب قبلَ ذٰلك لم يقل: هذا أكبر.

وهذا جزآء من يتكلّم في أُمور الأَنبياء عليهم السّلام، قبل أن يَتمرّن في علم ما يجب لهم ويسْتحيلُ عليهم.

فصــل

فإن قالوا: فإذا زعمت أنه قال لقومه هذا، يعني ثلاث مرات معترضاً ومنبّهاً، ليقيم الحجّة عليهم وهو يعتقدُ خلافَ ما يقول، فَلِمَ لَمْ يعدّ هٰذه الأقوال في الكذبات التي يعتذر بها في المحشر، حين يُطالب بالشّفاعة(١٤) فيقول: كذبتُ في الإسلام ثلاث كذبات، وهي بالإضافة إلى هذه الثّلاث سِتّ؟ وكذلك جاء في الحديث أنّ إبراهيم عليه السلام لم يكذب إلا ثلاث كذبات، وما منها كذبة إلا وهو يُمَاحِلُ بها عن الاسلام أي يُدافع؟ فالجواب من ثلاثة أوجه:

---

(١٢) الأنعـام: ٦/٧٨
(١٣) الأنعـام: ٦/٨٠
(١٤) انـظر الحـديث بتمامه في مسنـد الإمـام أحـمد ١: ٢٨١

أحدها: أنّ الثلاث الكذبات التي عددها على أوجه مختلفة، فإحداها أنه لمّا دعوه للخُروج معهم لِمهرجانهم في سُدْفَةِ السَّحر، وفي باله أن يكيد أصنامهم بعد خُروجهم، كما أخبرهم حين قال[١٥]: ﴿وتَاللّه لأَكِيْدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِيْنَ﴾ فنظر إلى النُّجوم ليقيم عُذْرَهُ عندهم على زعمهم لكونهم يقولون بالقضاء في النُّجوم[١٦]، ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيْمٌ﴾ فاعتَقُدوا أنّه رأى في النُّجوم أسبابَ المرض، فَرَضُوا عنه بذلك وتركُوه!

وهٰذا من النّمط الذي قدَّمناه في الكواكب الثّلاثة، أنّ أقواله فيها إنما كانت علىٰ جهة الإبهام عليهم، والتّنبيه لهم لعلّهم يتفطَّنون في ثاني حال.

الثانية: قوله بعدما صيَّر أصنامهم جُذاذاً[١٧] حين سألوه[١٨]: ﴿مَنْ فَعَلَ هٰذا بِآلِهَتِنَا﴾؟ فقال: ﴿بل فَعَلَهُ كَبِيْرُهُمْ هٰذا﴾، وأشار إلى كبيرِ الأصنام، وهو قد شوّه صُورته، وسمَل عينيه[١٩] وجدع أنفه. ومقطوعٌ به أنّه قال ذلك ليقيمَ الحُجّة عليهم في نفي الإِلٰهيّة عما اعتقدوه من الكواكب والأصنام، فصارت هذه القولة في معناها، تُشبه تلك الأقوال الثّلاثة في الكواكب. فلمّا كانت الأقوال مع قوله في الصّنم على وجه واحدٍ من إقامة الحُجّة على مذهب الخَصم، ومقابلة الفاسِد بالفاسِد، صارت كالوَاحدة في المعنى. ثم أضاف لها القَوْلَتَيْن المُختلفتين، في النّظر في النُّجوم، وقولـه في أهله للملك الجَبّار «هي أختي»، فصارت ثلاثاً[٢٠].

---

(١٥) الأنبياء: ٥٧/٢١

(١٦) الصّافات: ٨٩/٣٧ وقبلها قوله تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً في النُّجُوم﴾ الصّافات: ٨٨/٣٧

(١٧) جُذاذاً: قِطَعاً مُكَسَّرَةً.

(١٨) في سُورة الأنبياء: ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هٰذا بآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِيْنَ. قالوا سَمِعْنَا فَتًى يذكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إبراهيم. قالوا فأتُوا بِهِ على أَعيُنِ النَّاسِ لعَلَّهُمْ يَشْهَدُون. قالوا أأنْتَ فعَلْتَ هٰذا بآلِهَتِنَا يا إبْرَاهِيْمُ. قال بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هٰذا فاسْأَلُوهُم إنْ كانُوا يَنْطِقُوْنَ﴾ الآيات: ٥٩ ـ ٦٣

(١٩) سمل عينيه: اقتلعهما.

(٢٠) انظر الحديث بتمامه في صحيح مسلم ٤: ١٨٤٠

وأمّا الثالثة التي هي قوله للملك الذي أراد أن يأخذ منه أهله عنوةً، فسأله: ما هٰذه التي مَعَك؟ فقال: هي أُختي؛ فكان قوله ذلك طَمعاً في تخليصها منه بهذه القولة ليقيم عُذره عند الملك، لكون الغَيرة على الأُخت، آكد منها على الزَّوج. فقال له ذلك لعلّه يتركُها له، كالّذي فَعل. فلو قال هي زَوجتي فربّما كان يقوُل له: انزلْ لي عنها أتَملّكْها على الوَجْه الذي كانت عندك فلمّا كانت القَولتان تخالف الواحدة التي اتَّحَدَتْ مع الثلاث في إقامة الحجّة على الخُصوم، بعد تسليم مَذهبهم لهم جَدَلاً عَدّ الكُلّ ثلاثاً، لاتّحاد الأَربعة الأقوال في المعنىٰ.

الوجه الثاني: أن تكون القولات الثلاث في الكواكب التي لم يعدها من الكذبات، بأمرٍ من الله تعالى، أُمِر أَن يقولها فقالها ولم يعدها كذبات لكونه مأمُوراً بها؛ وتلك الثّلاث التي عَـدّها كانت عن نَظَرِهِ واجتِهَاده فأبهمها بأنْ رأىٰ أَنّ السُّكوت عنها كانَ له أَولىٰ، علىٰ ما قَدَّمْناه في حَقّهم من مُراعاة الأَولىٰ.

وإذا كانت الثّلاث الأُخَرُ بأَمر الله تعالىٰ له فلا حَرج فيها لكونه مأموراً بها، فتخرج له مخرج قول المَلَك لِداوُود عليه السّلام(٢١): ﴿إِنَّ هٰذَا أَخِي﴾ ولم يكن أخاه حقيقة. وقوله(٢١) ﴿لَهُ تِسْعٌ وتِسْعُوْنَ نَعْجَةً﴾ ولم يكن له نعاج؛ إلىٰ آخر ما قاله.

وقول يوسف عليه السّلام لإخوته(٢٢): ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُوْنَ﴾ كما قدّمناه حرفاً بحرف.

والأَظْهَرُ من الوجهين الأَخيرُ منهما؛ ودليلنا عليه أن الستّة الأَلفاظ في التلفُّظ بخلافِ المُعتقد علىٰ سواء.

فَذِكْرُ الثّلاث والإِعْرَاضُ عن ذكر الثّلاث الأُخَر، مع ورعه عليه السّلام وشدّة مراقبته، دليلٌ علىٰ أنّ الّتي أعرض عن ذكرها كانت بأمرِ الله تعالىٰ.

---

(٢١) ص: ٣٨/٢٣

(٢٢) يوسف ١٢/٧٠

الثّالث: ما جاء في الصّحيح أنّ النبيّ صلّى الله عَليه وسَلّم قال(٢٣): «لم يكذب إبراهيمُ عليه السّلام في الإسلام إلاّ ثلاث كذبات، كلّها مَاحَل بها عن دِين الله: قوله في الكوكب ﴿هٰذا ربيّ﴾، وقوله في سارة «هي أُختي» وقوله في الأوثان ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هٰذا﴾».

فقد فسَّرها عليه السّلام حين عَدّها ثلاثاً، فصارت الثّلاثة القولات في الكَواكب كالواحدِ في العَددِ لكونها متّحدة في المعنىٰ. وانضافت إليها قولته عن سارة، وقولته عن الأوثان، فصارت ثلاثاً.

وتكون قولته: «إنِّيْ سَقِيمٌ» حقيقة، وتكون النُّجوم هنا ما يَنجم له من تفاصيل أَحْوَاله أي يظهر له. ويعضُد هذا الخبر ما ذكرناه من أنه قال في الكواكب ما لم يعتقده دِيناً كما زَعم الجَهلة.

فصل

وأما قِصَّتهُ عليه السَّلام في طلب رُؤية كيفية البَعث وجمع الأجسام بعد تبدّدها. وسَبب هٰذا الطّلب ما جاء في الخَبر عن سيّد البشر صلىٰ الله عليه وسلم أنّه قال(٢٤): «بينما إبراهيم عليه السَّلام يمشي علىٰ ساحل البَحر إذ مَرَّ بدابّةٍ

(٢٣) في صحيح مسلم ٤: ١٨٤٠، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال: «لم يكذب إبراهيم النبيّ ـ عليه السلام ـ قطُّ إلاّ ثلاث كَذَباتٍ؛ اثْنَتَيْنِ في ذاتِ الله: قوله: إنّي سقيم، وقوله: بل فعله كبيرهم هذا؛ وواحدة في شأن سارة...» وذَكَرَ خَبَرَ إبراهيم وسارة مع الجَبَّار.

(٢٤) ونقل القرطبي في الجامع، قال الحسن: «رأى إبراهيم ـ عليه السلام ـ جيفةً نصفها في البرّ توزّعها السباع، ونصفها في البحر توزّعها دوابّ البحر، فلمّا رأى تفرّقها أحبّ أن يرى انضمامها، فسأل ليطمئن قلبه برؤية كيفية الجمع كما رأى كيفية التفريق...».
ـ وفي تنزيه الأنبياء للشريف: وقد روى المُفَسّرون أن إبراهيم عليه السلام مرّ بحوتٍ نصفه في البر ونصفه في البحر، ودواب البرّ والبحر تأكل منه وأخطر الشيطان بباله استبعاد رجوع ذلك حيّاً مؤلفاً مع تفرق أجزائه وانقسام أعضائه في بطون حيوان البر والبحر... إلخ. وردّ الشريف على ذلك بوجوه مختلفة جاء المؤلّف هنا بما يشبهها أو يماثلها.

بعضُها ـ فـي البَرّ وبعضُها في البحر، فرأىٰ دوابّ البحر تأكُل مِمّا يليهـا، ودوابّ البَر تأكُل مِمّـا يليهـا ، فقـال: ليتَ شِعري، كيف يجمع الله هٰذه؟». . . الحديث.

فاشْتاق إلىٰ رؤية الكيفيّة فقـال إذ ذاك[٢٥]: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي المَوْتىٰ﴾. نُقل هٰذا الخبر علىٰ المعنىٰ.

فصـــل

اعترضت المُلحدة هذه القصّة ومن تابَعهم من اليهود والنَّصارىٰ والقَرامطة، ومَنْ قال من الباطِنيّة باستحالة حَشر الأَجْسَاد، والجهلةُ بعصمةِ الأنبيـاء عليهم السّلام، علىٰ الوجهِ الذي ذكرناه قبل.

فقالـوا: هـذا إبراهيم عليه السّلام علىٰ جلالة قدره قد اسْتَراب في البعث حتّىٰ طلب رُؤية الكيفيّة ليطمئنّ قلبُه بنَفْي الاستِرابة. وهذا أشدّ في الاعتراض من كُلّ ما ذكروه، فإن الشّكّ في البَعث كفرٌ صُرَاح بالإجماع من كل أُمّـة[٢٦]. فإنّ حقيقة الكُفر في الشرع تكذيب الله ورسله. وما ملئت طباق جهنّم[٢٧] إلاّ من هـذا الصّنف الشاكّ فيما جاءت به الرّسل عليهمُ السّلام.

فانظر عَصمنا الله وإياكـم إلىٰ مُعْتَقِدِ هٰـذه الوصمة في حَقّ الخليل صلىٰ الله عليه وسلم، أن تُؤوّل بـه. ولأَجلها جاء عنـه عليه السّلام أنّه قـال[٢٨]: «نَحْنُ أَحَقُّ بالشَّكِّ مِن إبْرَاهِيْمَ»؛ نَبّه ضعفاء العامـة أَنّ أنبياءَ الله تعالىٰ في العِصمة والنَّزاهة علىٰ سواء، فما جـاز علىٰ أَحدهم جـاز علىٰ الكُلّ. فكأنه

(٢٥) البقرة ٢: ٢٦٠
(٢٦) يقول: إن الإقرار بالبعث والنشُور أساس في كلّ عقيدةٍ في أديان الله.
(٢٧) طِباق جهـنّم: طَبَقاتُهَـا، طبقة فوق طبقة.
(٢٨) في صحـيح مسلم ١: ١٣٣

يقول: إيّاكم أن تجوّزوا الشكّ علىٰ إبراهيم عليه السلام فيما يوحىٰ إليه به، فإن جَوَّزْتُموه عليه فأنا أحقّ أن تُجَوّزوه عَليّ، وأنتم لا تجوّزونه عَليّ فلا تجوّزوه عليه. ثُمّ تأدّب عليه السَّلام مع الأب بقوله: نَحْنُ أحقّ.

فصل

في شرح الآية. قال الله تعالىٰ(٢٩): ﴿وإذْ قَالَ إبْرَاهِيْمُ رَبّ أرِني كَيْفَ تُحْيِي المَوْتىٰ، قَالَ أوَلَمْ تُؤمِنْ قَال بلىٰ ولكنْ لِيَطْمَئِنَّ قلبي، قَالَ فَخذْ أرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إلَيْكَ ثمّ اجْعَلْ علىٰ كُلّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأتِيْنَكَ سَعْياً، واعْلَمْ أنَّ الله عَزِيْزٌ حَكِيْمٌ﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿وإذْ قَال إبْرَاهِيْم﴾ تنبيهٌ لنبيّنا عليه السَّلام ليتهيّأ لقبول الخطاب، كما قدّمنا في قصة زَيد، فكأنه يقول له: وقد أُخبرك عن قول إبراهيم إذْ طلب أن أُرِيَهُ كيف أُحْيي المَوْتىٰ، فأَسعَفْتُه في ذلك وأَرِيْتُه الكيفيّة فذكره تعالىٰ إسباغ آلائه علىٰ أنبيائه وإسعافه لهم فيما يثلج به صُدورهم ممّا غاب عَنهم من بعض الجائزات في معلوماته تعالىٰ.

وأما قولة إبراهيم عليه السّلام: ﴿رَبِّ أَرِني كَيْفَ تُحْيِي المَوْتىٰ﴾ وأنه طلب أن يُريه تعالىٰ مَثلاً محسُوساً يُطلعه علىٰ كيفيّة الجَمع من أَقاصي الأَرض وبُطون الحَيوانات، وكيفية سُرعتها في الحَركات عند الاجتماع، ولأي أَصل تجتمع، وعلىٰ أيّ وجهٍ تتصوّر، إذ الجوازُ بَحْرٌ لا ساحلَ له.

وقد نبّه عليه السَّلام علىٰ بعض هٰذه الكيفيات فقال(٣٠): كلّ ابن آدم تأكلُه الأرض إلاّ عجبَ الذّنب فإنه منه خلق وفيه يركّب.

---

(٢٩) البقرة: ٢/٢٦٠

(٣٠) في صحيح مسلم ٤: ٢٢٧١، من حديث أبي هريرة، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال: «كلّ ابن آدم يأكله التراب إلاّ عجبَ الذّنب، مِنْه خُلِقَ، وفيه يُرَكّب».

ومعنىٰ (خلـق) هنا:(صَوَّر) لكونِ الشّيء لا يُخترع من الشّيء، وإنما يُخترع لا من شيء. وأخبر عليه السّلام أنّ عُجب الذَّنَب الذي هو وسطِ الجرْم منه بدىء تركيبه في الرَّحم، وإليه ترجع الأَجزاء الزّائلة عنه في نـواحي الأَرض إذا بُعِث.

وفي هٰـذا الحديث دليلٌ علىٰ أنّ أكل الأَرض إنّما هو عبارة عن تبدُّدِ الأَجزاء في الجهات لا عَدَمها البَتّة.

ويعضد ذلك ما سنذكره إن شاء الله تعالىٰ في هٰـذه القصّة من جمع أجزاءِ الطُّيور بعد تَفْرِيقها. وللنّاس في هذا عريضٌ من القـول لسنا الآن له.

وأمّـا قـوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلىٰ﴾.

سأله بالنَّفي فأجابه بـ «بلىٰ» التي هي جوابُ النّفي لإثبات المنفيّ. كأَنه قال له: ألستَ مؤمناً بالبعث؟ قال: بلىٰ، معناه: أَنا مُؤمن به كما علمت، لكنّني أُريد أن يطمئنّ قلبي برؤيةِ الكيفيّة، فقال تعالىٰ له: ﴿فَخُـذ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ أي: أَمِلْهُنّ إليك بالإحسان والتّعليم لكي تدعوها فتأتيك مُجيبة لدعائك. ففعل ذٰلك ثم أخذ الطُّيور وذَكّاها[٣١] وحَـزّ رؤوسَها، وأمسكها عنده، وهشم أجسامَها وخلَطها حتىٰ صارت جِسْماً واحداً لا يتميّزُ بعضُها من بعض، ثم فَرّقها علىٰ أربعةَ أَجْبُل، ثم قَعد هو في الجَبل الوسط الذي أَحاطت به الجبال الأَربعة، ثمّ دَعاها فطارت القَطْرَةُ من الدّم إلىٰ القَطْرة، واللّحمة إلىٰ اللّحمة، والرِّيشـة إلىٰ الريشة، وكذلك صكيك العِظام، وهو ينظرُ إليها حتّىٰ التـأم كُلّ جسد علىٰ ما كان عَليه من الأَجزاء التي كانت له قبل، ثم طار كلُّ جسدٍ إلىٰ رأسه فالتأم به.

---

(٣١) ذَكّـاها: ذَبَحَهَا. وصكيك العظام: المدقوق المهروس.

فصل

انظروا ـ رحمكم الله ـ إلىٰ وُقوع هٰذه الكيفيّة فإنّها تشبه بعث بعض الأجساد وجمعها وإحياءها وسُرعة مسيرها إلىٰ أرض المحشر حَذْوَكَ النّعل بالنّعل[٣٢].

فأما كونُ وقوع المثال بالطُّيور بَدلاً من سائر الحيوانات، فهو أن يقع الشّبَهُ فيها بأحوالِ البَعث من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنها تقبل التّعليم حتىٰ تُدعىٰ فتجيب، كالنّسر والعُقاب والبَازِي والسُّوذنيق[٣٣] والغُراب والطّاوُوس، إلىٰ غير ذلك.

وأنّها تُؤخذ أفراخاً فتربّىٰ وتُعَلّم فتَقْبَلُ التّعليم حتىٰ تَطِير، وترجع إلىٰ داعيها إذا دُعيت، وكذلك المَلَكُ إذا دعا المَوتىٰ من القُبور جُمعوا وحَيُوا وأَتَوْه.

والثّاني: أنّ الطُّيور إذا دُعِيت أَتت بسرعة تفوق بها سائر الحَيوانات، وكذلك المَلَك إذا دَعا الموتىٰ أَتوه بسرعة. كما قال تعالى[٣٤]: ﴿مُهْطِعِيْنَ إلىٰ الدَّاعِ﴾ أي مُسْرِعين. وقال تعالى[٣٥]: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُوْنَ من الأَجْدَاثِ سراعاً كَأَنَّهُمْ إلىٰ نصب يوفضون﴾.

الثالث: أنّ الطّير تأتي في الهَواء علىٰ خطّ استواء فتكون أَسْرع في الإتيان، وأَظْهَر للرّائي فإنّها لا تَفُوت بَصره. فلو كانت غير الطّيور من الحيوانات كالأرانب والثعلب والكلب والذّئب، إلىٰ غير ذلك، وجاءَتْهُ لكانت تَتوارىٰ في بعض الغِيطان وخلف الشَّجر والرُّبا إلىٰ غير ذلك ، فكانت تغيبُ عن بصر

(٣٢) الحَذْو: التقدير والقطع، وفي الحديث: «لتركَبُنَّ سَنَنَ من كان قبلكم حَذْوَ النعل بالنعل» أي تعملون مثل أعمالهم كما تُقطع إحدى النعلين على قدر الأخرى.
(٣٣) السُّوذنيق: الصَّقْرُ.
(٣٤) القمر: ٨/٥٤
(٣٥) المعارج: ٤٣/٧٠

إبراهيم عليه السلام تارةً وتظهَرُ أخرىٰ، فما كانت تتمُّ له الرؤية التي طلَب، إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِيْ﴾.

وأمّا كونُها أربعةً ولم يكن أكثر ولا أقلّ، فلأنْ يقَع الاكتفاء بها في الجهاتِ الأربع، وهو المقصود أيضاً بكون الجِبال أربعة؛ وذلك لأنّ الجهات سِتّ: فوق وتحت ويمين وشمال وأمام وخلف.

ومعلومٌ أنّ أجْزاء الحَيوانات الأرضِيّة إذا تَبدَّدت بعد موتها لا تصعد إلىٰ فوق، ولا تغوصُ إلىٰ تحت، وإنّما تتبدّد في الجهات الأربع.

فلذا كانت الطُّيور أربعة، والجبال أربعة. والله أعلم.

وأما كونُ إبراهيم عليه السّلام علىٰ الجبل المتوسّط منها فأشبه شيء بالملك الذي يقفُ علىٰ صخرة بيت المقْدس فيدْعُو الحيوانات فيأتون إليه من الأربع جهات مُسرعين كما تقدم.

وأمـا مجيء النُّقطة من الدّم إلىٰ النقطة، واللّحمة إلىٰ اللَّحمة، والرِّيشة إلىٰ الرّيشة، والعظم إلىٰ العظم، وهو ينظر إليها؛ فأشبه شيء بمجيء الأجزاء يومَ البَعث من الجهاتِ الّتي افترقت فيها حتّىٰ تجتمع كما كانت أوَّل مرّة لا يشذُّ مِنها شيءٌ عن صاحبه. وهو كان مطلوبه عندما رأىٰ الدّابّة تتبدّد أجزاؤها في بُطون حَيوانات مختلفة، كما جاء في الخَبر، فاشتاق إلىٰ رُؤية كيفيّة الجمع، فسألها فأُجيب فيها.

وأمّا فائدةحبس الرّؤوس عنده ومجيء الأجسام بأعيانها فلخمسة أوجه:

أحدها: أنّه لمّا كانت رؤوسُها عنده وجاء كل جسد إلى رأسه، وَقع له اليقينُ أنّها هي لا غيرها.

الثاني: أنّ في هذه القصّة رداً على من أنكر حَشر الأجساد من غُلاة الباطنيّة وغيرهم.

الثالث: ردّ على من زَعـم أن الأرواح تركّـب في أجسام ٍ أُخَر غير الّتي كانت مركّـبة عليها في الدُّنيـا، لكون الأرواح عندهم هي الحـيُّ النّاطق؛ والأجسـام ظُروفٌ متماثـلة فلا يُبـالي بإعادتهـا.

الرابع: ردٌّ عَلى مَن قـال من أَهـل الأَهـواءِ المُضلّـة؛ إن الحـيوانات لا تَحْـيَى دون الرُّؤوس، ولا يجـوزُ ذلك؛ فحـييت بلا رُؤوس.

الخـامس: قولُهـم: إنّـه لا تـكونُ الإدراكات والحـواسُّ إلاّ في الرُّؤوس على بِنيةٍ مخصُوصة، فأكْذَبهـمُ الله تعـالى بأَن سمعَتْ ورأَت بإدراكات خُلِقت في بعضِ أَجسامِها دونَ الرُّؤوس؛ فحَيِيَتْ وسَمِعَت حين دُعيت ورأَت، وجـاءت طائرةً بلا رُؤوس ولا عُيونٍ ولا آذان. وهٰـذا هـو مذهـبُ أَهـل الحقّ أنه لـيس للإدراكات شرطٌ في المحلّ سوى الحيَـاة.

وأمـا قـوله تعـالى[٣٦]: ﴿وَاعْلَـمْ أَنَّ الله عَزِيْزٌ حَكِـيْمٌ﴾؛ فقد يـكونُ أمـراً له عـليه السـلام بأن يَبقى عـلى معلُومـاته في إثـباتِ عِزّة الله تعـالىٰ وحِكمـته؛ لا أن يستجـدّ علماً بما لم يـكنْ يعـلم. ويُحـتمل أن يـأمره بأن يستجـدّ علُومـاً أُخَـر بأنـواعٍ من الحـكمة والعـزّة لم يـكنْ يعلمُهـا قبل.

وأمـا ذِكـره العزّة في هـذا المقـام فهـي الغَلَبُ والقَهـر؛ تقـول العرب[٣٧]: (مَنْ عَزَّ بَزّ) أي: مَن غَلب سَلب. فلمّـا كـان في جـمع الموتىٰ وإحـيائهـم دفعـةًواحـدةً غايةُ الغَلب والقَهـر والحُـكم والعِـلم والإتقـان والإحـكام تَمَدَّحَ البـاريء تعـالىٰ بصفاته العُـلى وعِزّة قهـره؛ فأَمـره أن يتزيَّد عـلماً بصـفات الجَـلال والجـمال.

وقـد يـكونُ الأَمـر بالعلـم فيما رأى من تفـاصيل عجـائب الكيفيّـات. فلمّـا أطلعه علٰى ذلك غايـة الإطـلاع، وعَلّمـه ما لم يـكن يَعـلم قـال له

(٣٦) البقـرة: ٢/٢٦٠
(٣٧) أي في أمثـال العرب. والبَزُّ: السَّلب. والقول مشهـور في كتب الأمثـال.

تعـالىٰ: ﴿وَاعْلَمْ أَنَّ الله عَزِيْزٌ حَكِـيمٌ﴾ أي: وابْقَ عالماً بمـا زِدتـك من العُـلوم الحِسيّـة التي لا يتأتّـى الجهـلُ بهـا ولا الشكُّ فيها في مستقرّ العادة، ولا يُتغافـل عنها.

فهذه - رحمك الله - قصص إبراهيـم عليه السَّلام في الثـلاث الآيات والتَّبرئة له[٣٨].

(٣٨) في النـص هنـا «على أوله صـلى الله عـليه وسـلم».

شرح قصة عُزَير عليه السلام(*)

في الآيـة التي وردت في إماتته وإحيائه.

قـال تعـالىٰ :(١) : ﴿أَوْ كَالَّذِيْ مَرَّ عَلىٰ قَرْيَةٍ﴾ الآيـة.

إلى قـوله تعـالى : ﴿أَعْلَمُ أَنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ﴾.

فَمِمَّـا اخْتَلَقُوْهُ عَليه ـ عليه السَّلام ـ أنّـه شكَّ في البَعْث بقـوله: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِي هٰـذِهِ الله بَعْـدَ مَوْتِهـا﴾ فأراه الله الآيـة في نفسِه حـيثُ أماتَهُ ثُمّ أَحْيَـاهُ، فحـينئذٍ أَيْقَـن بالبعـث فقـال: ﴿أَعْلَـمُ أَنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ﴾.

ومـا أرىٰ أنّ هَؤلاء الأوبـاش، الّذين يعتقـدون في عقائـد أنبـياء الله تعـالى مثلَ هٰـذا الاعتقـاد، إلا أنّهـم يقيسُونها بعقائدهـم الفاسدة وشُكوكهـم المضطربة!

كما قـيل(٢): رمَتني بدائِهـا وانسَلَّتْ!؛ وقيل(٣): وكلُّ إناءٍ بالّذي فيه يرشحُ!

(*) شرح قـصة عـزيز عـليه السلام في: عـرائس المجـالس: ٣٤٣، وابن كـثير ٢: ٣٢٤، وتـفسير الطبريّ ٣: ١٩، وتـاريخ الطبريّ ١: ٥٤٨ ـ ٥٥٧، وتـفسير القرطبي ٣: ٢٨٨.

(١) البـقرة: ٢/٢٥٩؛ والآيـة بتمامهـا:
﴿أو كالَّذِي مَرَّ على قريـةٍ وهـي خَاوِيَةٌ على عُروشهـا قـالَ أَنّـى يُحْيِي هـٰذه الله بعد مَوْتِهـا فأَمَاتَهُ الله مئـةَ عـامٍ ثـمّ بعَثَـه قـال كم لَبِثْتَ قـالَ لَبِثْتُ يـوماً أو بعضَ يـومٍ قـالَ بـل لبِثْتَ مِئةَ عَامٍ فانْظُرْ إلى طَعَامِكَ وشَرَابِـكَ لم يَتَسَنَّهْ وانظُرْ إلى حـمارك ولِنَجْعَلَكَ آيَةً للنّـاس وانظُـرْ إلى العِـظام كيْفَ نُنْشِزُهـا ثم نكسُوهـا لحـماً فلمّا تبيّن له قـالَ أَعْلَمُ أن الله على كُـلِّ شـيءٍ قديرٌ﴾.
* قـال جـماعةٌ هـو عُزَير: وقـال وهـب بن منبّه وغيره هـو إرمِيَـا وكـان نبيّاً. ـ وقـال ابن إسحـاق إرمـيا هو الخـضر ـ وعـن مجـاهد أنـه رجـل من بني إسـرائيل غير مسمّـى. قـال النقـاش: ويقـال هـو غلام لوط عليه السّلام، وقيـل هـو شعيا.
وعن ابن عـباس أنه عُزَيْر.

(٢) المثـل في مجـمع الأمثـال ١: ٢٨٦

(٣) المثـل في مجـمع الأمثـال ٢: ١٦٢، ونَصُّه فيه: «كـلّ إنـاء يـرشح بما فيه».

مع جهلهم بمقادير النُّبوة فيمشون فيهم مثل هذه الأقوال الحاسمة[٤] لأصل الإيمان.

ومنهم مَنْ قال: إنّه ما مات عُزَير ولكنْ غُشِيَ عَلَيه، بدليل أنّه لو مات لم يَحْيَ بعد.

وهذا هو التّنصيص علىٰ إنكار البعث واستبعاد إحياء الموتىٰ، وتكذيب الباريء تعالى حيث قال: ﴿فَأَمَاتَهُ الله مئة عامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾.

وقد قال كلبٌ من كلاب القُصّاص هذه القولة في هذا البلد[٥] على المنبر فما أنكروها عليه ولا طُولب بها، وما يمكن أن يَنْبو فهمُ مسلم عن فساد هذه القولة، فإنها ردُّ نصِّ الكتاب، ولكنها قُلوبٌ طَبع الله عليها بطابع الحِرمان.

فصل

وأمّا عُزَير عليه السَّلام فاخْتَلف النَّاسُ في نبوّته لكونه لم ينصّ عليه الكتاب. والأظهر إثباتُ نبوّته بدليل قوله تعالى[٦]: ﴿وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا المَلائِكَةَ والنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً﴾. وهذا خطابٌ لليهود والنَّصارى. واليهود عَبدت عُزَيراً بنصّ الكتاب. وممّا يَدُلُّ على نبوّته أيضاً من الكتاب أنّه ذُكِرَ مع الأنبياء في مَعرِض الفضيلةِ والإكرام في مَوْطِنين، ذكره تعالى مع إبراهيم عليه السلام في إحياءِ المَوْتى لهما. وذكره مع عيسى عليه السلام في أنْ عُبِدَ من دُون الله.

وسبب هاتين القصّتين نذكره الآن بعون الله تعالى.

---

(٤) الحاسمة: القاطعة.
(٥) زاد هنا كلمة لم تتضح لي بعد كلمة «البلد».
(٦) آل عمران: ٣/٨٠

جـاء في الأَثـر أنّـه كـان في بني إسـرائيل من بعد مُـوسى عـليه السّلام؛ نبيّاً، وكـان اسمُه دانيـال، وإنما سُمّي عُزَيراً لكـثرة تعـزير اليَهُـود له وإعظامهـم لِقْدرِه عليه السَّلام. ثم غَلَوا في تعظيمِه حـتى عَبدوه. وسبب ذلك لأنْ أماته الله مئـة سنَة ثم أحـياه، وأراه الآيـة في طعامِه وشرابه الّذي مرّت عليه مئة عـام ولـم يَتَّسَنَّـهْ، أي لـم يَتغيّـر. وفي حمارِه الّذي أَماتـه معه وتبدّدت أَجـزاؤه، ثـم أُنشِرَت وجُمِعَـت وحَيِيت وهو ينظُر إلى ذلك كُلّـه.

فقـال الجَهـلة: لـم يختـصه بهذه الكرامـات إلا لأن كان ولَده فعبَدوه! تعالىٰ الله عمّا يصفون.

فـلمّـا طغى بنو إسـرائيل وقتَـلوا الأَنبـياء بغير حَقّ، وبَدّلوا أَحـكام التَّوراة وأَخـبارها، سَلّط الله عليهـم بُخْـتَ نَصَّر البَابِليّ، وكـان مجوسـياً فأتـى إلى مدينة بيت القدس ودخـلها عُنـوةً، فـرأى دماً يترشّح فيها من الأرض، فجـمع بني إسـرائيل وسألهـم عن سـبب ذلك الدَّم، فأنـكروا سببه خيفةً منه أن يـقع ما وقع، فقال له بعضُ من يختصّ به: هنا رجل يزعُم أنّه نبيّ؛ والأَنبياء لا يكذبون، فسَلْه يُخْبِرْك! فأمـر بإحـضاره فجـيء بـه، فقـال له: أيُّهـا الشيخ، أُخـبرت أنـك تزعمُ أنـك نبيّ، والأَنـبياءُ لا يـكذبون، فأخـبرني عن سـبب هٰـذا الدم.

فقـال له: عسىٰ أن تُعفِيني أيهـا الملك!

فقـال: لا أُعفيـك حـتى تُخبرني، أو أعذّبـك حـتىٰ تموت.

فقـال له: أمّـا إذْ لا بدّ من القـول، فهـذا دمُ نبيٍّ قتله قومُه ظلماً.

فقـال له: وَمَن ذلك النبيُّ الذي قَتَله قومـه ظلماً؟!

فقـال: يَحـيٰ بن زكريّـا عليهـما السَّلام.

فقـال له: وَمَن قومُه الـذين قـتلوه؟!

فقـال: بنو إسـرائيل.

فقـال: والله لأقْتُلَنّ عليه خيارَهُـم، ولا أَرفع عنهم السَّيف حتى يجفّ هـذا الدم.

فقتـل عليه من خِـيارهـم سبعين ألفاً، وحـينئذٍ جفّ الدم.

ويعضد هذا الخبر ما جاء عنه عليه السلام أنّـه قـال[٧]: «دِيَةُ النبيّ إذا قتَله قومُه سبعون ألف رَجُـل من خِـيار قومه». فـلمّا رأى ذلك دانيـال عليه السّلام خـرج فارّاً بنفسه إلى بـلاد مصـر، فبقي فيها أربعينَ سنـة، ثمّ اشتـاق إلى موطنه ومسقط رأسه، وقـبور أسـلافه من الأَنبـياء والأوليـاء عليهـم السّلام، فركـب حـماراً له وأتـى نحـو بيت المقدس، فلما كـان بمقربـة منه رأى جـنّة كانت له وقد بقي فيها بعض علائـق من شجـر العنب، فأتـاها فوجـدَ فيها عنباً نضجـاً، فاقتـطف منها وأكـل وملأً سلّة كـانت معه، وركـب حـماره وسـار حـتى أَشرفَ علـى مدينة بيت المقدس، فرآهـا خَراباً يـباباً لم يـبق فيها رسمٌ ولا طللٌ. فتحسَّر علىٰ فقد الخلّان وخــراب الأوطـان، كما قيل[٨]:

أحـب بلاد الله ما بيـن منعجٍ إليَّ وسُلمـى أن يـصوبَ سحـابُهـا
بـلاد بها عَقّ الشَّبابُ تمائمـي وأوّل أَرضٍ مَسَّ جِـلدي تُرَابُهـا

فتحـرك قلبه تحسُّراً على فقد الخِـلّان وخـراب الأوطان فقال[٩]: ﴿أَنى يُحْيِي هَذِهِ الله بَعْدَ مَوْتِهَـا﴾ يعـني كـيف تعودُ هذه البـلدة على مـا كانت عليه بعد خَرابهـا؟! فاستبعـد أن تعـود علىٰ مـا كانت عليه من نَبـاتها وشجرهـا وبَساتينها. كما يستبعـد النَّـاسُ أن تعودَ البلادُ كمـا كانت عليه بعد خـرابها، علىٰ مجـرىٰ العادة.

---

(٧) حـديث.

(٨) البيتـان لرفاعة (وقـيل: رفـاع) بن قـيس الأسديّ، أو لأبـي النّضير الأسديّ، أو لامـرأة من طيّء (انـظر سمط اللآلي ٢٧٢، والكـامل في الأدب: ٨٤٢، ومعجـم البـلدان: منعـج).

(٩) البقرة ٢/ ٢٥٩.

وهـذا مـن الكلام المُبَـاح الـذي يقولُه النّـاس إذا خـربت البـلاد وكـانوا يعرفُونهـا عامـرةً من قـبل.

وكـثيراً ما قـيل هـذا في نـدب الأَطلال الخـالية والرسـوم البـالية. إلا أنَّ أهـل المُرَاقـبة يُطْلَبُـون بهـذه الأقـوال التي كـان غيرُهـا أُولى منها كما تقدّم.

فـإنّ مثـل أُولئك لا يستبعـدون كائنـاً في مقدورِ الله تعـالىٰ، كـان مُعتـاداً أوْ غير مُعتـاد، لما يعلَمُون مِن نُفـوذ إرادتِه ومَضَاء أَمـره، إذا أراد شيئاً فإنّمـا يقولُ له كُنْ فيكون.

كمـا عتب الملائكـة امرأة إبـراهيم عليه السّلام حـيث قالت (١٠):

﴿يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُـوْزٌ﴾ الآيـة؛ فقـالوا لها (١١): ﴿أَتَعْجَبِيْنَ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾؟!

أي: مثلك يـرى في فعـل الله عَجبـاً وأنت صِدِّيقـة!؟

قـال المشايخ: العَجبُ أن لا تـرى عجبـاً، فـإذا لم تـر عجبـاً كنتَ أنت العَجـب.

فـلما استَبْعَد إصلاحهـا على مَجـرىٰ العادة أراه الآيـة في نفسه، فأمـاته ثم أحيـاه بعد مِئة سنة، ثم أَطلعـه على ذلك بأَنْ أنشـأ له الحمارَ الـذي كان يركَبُه بعدمـا أَمـاته، ورَمَّ حـتى صـار تُـراباً، ثم أنشـأه له من التُّـراب وهـو ينـظر إليه، وأبقى عِنَبه كمـا كـانَ بعد مِئـة سنـة. ثم التفت إلى جهـة مدينة بيت المقدس فرآهـا أعْمَـر ما كـانت قبل، فنـدم على قـولته. فكأنّ الله عـز وجـل عَتبـه وأَدَّبه حـتىٰ لا يستبعـد وقوع مقـدور تحـت القَهـر: كان خـارِقـاً أو غير خَـارق.

فهـذا هو الّذي يجـوز في حـقّه عليه السلام لا ما اخْتَلَقُوه.

---

(١٠) هود: ٧٢/١١.
(١١) هود: ٧٣/١١.

شـرح قصّة مُوسى عليه السـلام(*)

في الآيـة المتضمنة قتـل الكافر. قـال تعـالىٰ[١]: ﴿وَدَخَلَ المَدِيْنَةَ عَلَىٰ حِيْنِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فيها رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هٰـذا مِن شِيْعَتِهِ وهَذٰا مِن عَدُوِّهِ﴾ الآيـة.

إلىٰ قـوله[٢]: ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾.

فمن أَقـوال المُخَلِّطة في هٰـذا القصّـة، أن موسى عليه السـلام قَتَلَ القِبطي من أَجْـل العِبـراني، لأنْ كـانَ العبرانيُّ من قبيله والقبطي من غير قبيله. فصيّروا الكـليم عليه السّلام متعَصِّباً لأجـل قبيله وعَشِيرتِه، وليسَ الأمرُ كـذلك، وحـاشاه من ذلك.

فـإنّ هـذه هي حميّة الجاهليّة، وإنما مَرّ موسى عليه السـلام برجـلين يقتتلان أَحـدهما يعرفُه مُؤمناً والآخـر يعرفُهُ كافراً، فاستغاثـه المُؤمـن على الكـافر، فوكز الكافرَ ليحـمي المُؤمن فصادفَ مَقْتَلاً من مقاتِله بتلك الوكْزَةِ فمَات.

فـصــل

فـإن قيـل: مـن أَيـن لـكم أن تحـكُموا بإيمـانِ أحـدهما وكُفر الآخـر، وإنّمـا نطق الكتـاب بـ «رجـلين» أَحـدهما من شِيعته، أي من بني إسرائيـل، والآخَرُ من عَدُوّه لكونـه من القِبْط؟!

(*) شـرح قـصة موسى عليه السّلام في: تنزيه الأنـبياء للشريف المرتضىٰ: ٦٧، وعَرَائِس المجـالس: ١٧٢، وابـن كـثير ٢: ١٢، وتـفسير الطبري ٢٨/٢٠، وتـاريخ الطبري ١: ٣٩٠، وتـفسير القرطبيّ ١٣: ٢٥٩.

(١) القصص: ١٥/٢٨

(٢) القصص: ١٥/٢٨

فنقول: ومن أين علمتمُ أيضاً أنّ أَحدهما [كان] قبطياً والآخر [كان] سِبطيّاً، والكتاب إنّما نَطق برجلين؟!

فإن قالوا: لقوله تعالى: ﴿هٰذا مِن شِيْعَتِهِ وهٰذا مِن عَدُوِّهِ﴾ والشّيعة: القبيلُ والرَّهط، فمن أين نَقلتم الحقيقةَ إلىٰ المَجاز، ومن أين صحّ لكم العِلمُ بكفر أحدهما وإيمان الثّاني؟!

فنقول: علمنا ذٰلك من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنّ شيعة الكافر قبيلهُ ونسيبُه وصِنفه. وشيعة المؤمن إنّما هو شريكُه في الإيمان؛ كانَ من قبيله أو من غير قبيله. قال تعالىٰ[٣]: ﴿إِنَّمَا المُؤمِنُوْنَ إِخْوَةٌ﴾.

وقال في قصّة إبراهيم عليه السّلام مع أبيه[٤]: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لله تَبَرّأَ مِنْهُ﴾.

وقال في الكَفرة[٥]: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّوْرِ فَلاَ أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يومَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُوْنَ﴾.

وقال تعالىٰ[٦]: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ المَرْءُ مِن أَخِيْهِ. وأُمِّهِ وَأَبِيْهِ. وصَاحِبَتِهِ وَبَنِيْهِ﴾.

والمرءُ هذا: الكافر، بدليل قوله تعالى[٧]: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاّ المُتَّقِيْنَ﴾.

والأَخِلاّء هُنا المُؤمنون.

---

(٣) الحُجرات: ٤٩/١٠
(٤) التوبة: ٩/١١٤
(٥) المُؤمنون: ٢٣/١٠١
(٦) عبس: ٨٠/٣٤ - ٣٦
(٧) الزُّخرف: ٤٣/٦٧

وقال تعالى(٨): ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِن غِلٍّ إِخْوَاناً عَلىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِيْنَ﴾.

وقال تعالى في الكافر(٩): ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾.

إلىٰ قوله: ﴿يَا لَيْتَنِيْ لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيْلاً﴾.

إلىٰ غير ذٰلك ممّا جاء في الكتاب والسُّنة من تبرّيءِ المؤمن من الكافر. ومجموعُ هـٰذا يدلُّ على أنَّ الذي استغاثَ بموسىٰ عليه السلام كان مُؤمناً علىٰ بقايا من دينِ يُوسف عليه السَّلام.

قال تعالىٰ(١٠): ﴿وقَالَ رَجُلٌ مُؤمِنٌ مِن آل فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيْمَانَهُ﴾.

فكان في بني إسرائيل وفي القِبط مُؤمنون يكتُمون إيمانهم. فكان هذا الرَّجُل المُستغيث بموسى عليه السلام منهم.

الثاني: قول الله تعالى لأم موسى عليه السَّلام(١١): ﴿يَأْخُذهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ﴾.

ومعلومٌ قطعاً أنَّ الله تعالى ما سَمّى فرعون عَدُوّاً له ولنبيّه إلا لأجل كُفره، فخرج من هٰذا أنّ هـٰذا القَبيل إنّما كان عدوّاً لموسىٰ عليه السَّلام من أجل كُفره، ولو اجتزأنا بهـٰذا الدّليل لاكتفَينا به عمّا سواه.

الثالث: أنّ الله تَعالىٰ قال: ﴿هـٰذا مِن شِيْعَتِهِ وهٰذا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ فلو كانَ المقصودُ بالشّيعة القَبيل لَقُوبل في النَّقيض بقبيلٍ آخرَ لا بالعَدُوّ، فإنّه ليس من وصفِ مَن لم يكن من القَبِيل أنْ يكونَ عَدُوّاً، ثم قد يكون

(٨) الحجر: ٤٧/١٥.
(٩) الفرقان: ٢٧/٢٥ ـ ٢٨.
(١٠) غافر: ٢٨/٤٠
(١١) طه: ٣٩/٢٠

العدوُّ من القبيل، بل من الأخ والوَلد؛ قال الله تعالى[١٢]: ﴿يَا أَيُّها الَّذِيْنَ آمَنُوا إنَّ مِن أَزْوَاجِكُمْ وأَوْلَادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ فاحْذَرُوْهُمْ﴾. فصحّت عداوةُ الدّينِ مع ثُبوتِ النَّسب.

فيخرج العدوُّ هنا مخرج قوله تعالى: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ﴾ حرفاً بحرف وكذلك قوله تعالى[١٣] ﴿فاسْتَغاثَهُ الّذي من شِيْعَتِهِ عَلىٰ الَّذِيْ مِن عَدُوِّهِ﴾ فخرج من مضمون هذا أنّ موسى عليه السّلام وكَزَ الكافرَ العدوَّ لأجل كُفره لا لغير ذلك؛ إذْ ليسَ للهِ تَعالىٰ شيعةٌ ولا قَرابة؛ سُبحانه وتعالى، وقد أثبت لنفسه عدواً.

فإن قيل: فإذا كان هٰذا هٰذا، فلِمَ ندم على قَتْله وتحسَّر واستغفرَ ربّه وغفر له، ومع هذا يمتنع يومَ القيامة من الشَّفاعة لأجل هذا المقتول، ويقولُ مُعتذراً ومعترفاً: «قتلتُ نفساً لم يأمرني الله بقتلها»؟ وأيضاً فإنّ الله تعالىٰ عاتبَه في الدنيا عند المُناجاة فقال له[١٤]: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسَاً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الغَمّ﴾.

فكيف يُعاتب كليمه علىٰ قتلِ كافر؟!

وأيضاً فقد قال هو لفرعون حين عَرَّض له بقتل القِبطي فقال[١٥]: ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الّتي فَعَلْتَ وأنت من الكافرين، قالَ فَعَلْتُهَا إذاً وأنا مِنَ الضَّالِّيْنَ ﴾.

فنقول: أمّا قولكم: لِمَ ندم وتحسَّر واعْتَذر واستغفر وغفر له فهذا من النّمط الذي قدَّمناه في حقّ غيره من الأنبياء عليهمُ السَّلام أنهم يتحسّرون ويَندمون ويَستغفرون على ترك الأَوْلَىٰ من المُباحات. فلا فائدة في إعادة تفصِيل ما فَرغنا من جُملته وتَفصيله.

(١٢) التغابُن: ١٤/٦٤
(١٣) القصص ١٥/٢٨
(١٤) طه: ٤٠/٢٠
(١٥) الشعراء: ١٩/٢٦ ـ ٢٠.

علىٰ أنّ ندم موسى عليه السّلام لم يكن على مُباح، وإنما كان ندمه على فعلٍ لم يُؤمر به. والأفعال قبل الشّرع إنّما هي مطلقةٌ لا غير. فإن المباح يقتضي مُبيحاً، فإذا لم يَثبت شرعٌ فلا مُبَاح ولا مُبِيح.

وهذا أوسعُ في عذر موسىٰ عليه السلام، إذ لم يكن مشروعاً له عندما قَتَله. وإن كان قد الْتَزَمَ شريعةَ يُوسف عليه السَّلام علىٰ وجهٍ من الوُجوه، فَتُخَرَّجُ له على الوَجْهِ المُتقَدِّم.

وأما قولكم: إنَّ الله تعالى عاتَبه عند المُناجاة على قتلِ القِبطيِّ فباطل، وإنما عَدَّد ربُّه تعالى عليه في ذلك المقام الكريم نِعَمه السّالفة عليه وآلاءه العميمة في قوله تعالى[١٦]: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ. أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ﴾ إلىٰ قوله تعالى[١٧]: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ ثم ذكر له من جُملتها كيف نجّاه من كيد فِرعون، وغمٍّ كان في قلبه من أجل طلبه إياه حين فرَّ بنفسه منه.

ولو عاتبه ربُّه علىٰ ذلك لخرج له مخرج ما قدّمناه من عتاب الله تعالى لأنبيائهِ علىٰ بعض المُبَاحات، من غير أن يلحق بهم ذنبٌ ولا عَتب.

وأمّا قوله عليه السلام لفرعون: ﴿فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ فيعني به: أنه كان عندما قتَله من الغافِلين الغير مكلفين[١٨]. فكأنه يقول له: فعلتُها قبل إلزام التكليف، وإذ كنتُ غيرَ مكلّف فلا تثريبَ عليّ؛ فإنه لا يقعُ الذّنب والطّاعة إلا بعد ثُبوت الأمرِ والنَّهي. والدليلُ علىٰ أنّ ضلال الأنبياء غَفلةٌ لا جهلٌ قوله تعالى لنبينا عليه السلام[١٩]: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاً

---

(١٦) طه: ٣٨/٢٠ - ٣٩.
(١٧) طه: ٤١/٢٠
(١٨) الفصيح أن يُقال غير المكلفين؛ ورووا: الغير المكلّفين.
(١٩) الضحى: ٧/٩٣
ووجدك ضالاً: أي غافلاً عمّا يُراد بك من أمر النبوة، فهداك أي فأرشدك. والضلال هنا =

فَهَدَىٰ﴾ يعني غافلاً عن الشّريعة لا تدري كيفيّة العبادة فهدَاك لها بالأمر والنَّهي. ثم قال له (٢٠): ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هٰذا القُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الغَافِلِينَ﴾.

والجاهل لا يُسَمَّىٰ غافِلاً حقيقةً لقيامِ الجهل به؛ فصحّ أَنّ ضلال الأَنبياء عليهم السَّلام غفلةٌ لا جَهْل.

وقال بعض مشايخ الصُّوفيّة: (وَجَدَكَ ضَالاً) أي مُحِبّاً له(٢١)، (فَهَدَى) أي اختصّك لنفسِهِ خصوصَ الهدايةِ والصُّحبة.

يعضد ذلك ما أخبر تعالى عن إخوة يوسف عليه السلام(٢٢) ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِيْنٍ﴾ أي في حُبّ مبين ليوسف. وكذلك قولُهم له بعد ذٰلك(٢٣): ﴿تَاللهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ القَدِيْمِ﴾. أي في حُبّك القديم له. ومن أَسماء المحبّة عند العَرب. الضَّلال.

ومع ما ذكرناه في هٰذه القِصّة من تبرئةُ مُوسىٰ عليه السّلام من الذّنب في قتلِ الكافِرْ أنّ قتله كان خَطأ. فإنّه ما طعنه بحديدةٍ ولا رماهُ بسهمٍ،

= بمعنى الغفلة، كقوله تعالى: ﴿لا يضِلّ ربّي ولا ينسى﴾. أي لا يغفل. وقال في حقّ نبيّه ﴿وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾.
- وقال قوم: ضالاً: أي لم تكن تدري القرآن والشرائع فهداك الله إلى القرآن. وشرائع الإسلام. وهو معنى قوله تعالى: ﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان﴾.
- وقال قوم: أي في قوم ضلال، فهداك إلى إرشادهم.
- ورويت وجوه أُخرى كثيرة (القرطبي ٢٠/٩٦- ٩٩).

(٢٠) يوسف: ١٢/٣

(٢١) في الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: وقيل: ووجدك محبّاً للهداية، فهداك إليها. ويكون الضلال بمعنى المحبّة. ومنه قوله تعالى: ﴿قالوا تا الله إنّك لفي ضلالك القديم﴾ أي في محبّتك. قال الشاعر:

هذا الضَّلال أشاب منّي المفرقا ... والعارضين ولم أكن متحقّقا
عجباً لعزّة في اختيار قطيعتي ... بعد الضلال فحبلها قد أَخْلَقَا

(٢٢) يوسف: ١٢/٨

(٢٣) يوسف ١٢/٩٥

ولا ضَربـه بفِهْـرٍ[٢٤] ولا بغيره، وإنمـا وكَزه، وما جـرت العادة بالموت من الوَكْـزَة، وإن مـات منهـا أحـدٌ فنادِرٌ، والنّـادر لا يُحـكم به. فقد تبرّأ موسىٰ عليه السـلام من الذّنـب في قتـلِ الكـافر بـراءة الـذئب من دم ابنِ يعقوب عليهـما السَّلام!

(٢٤) الفِهـر: الحَجـرُ يمـلأ الكـفّ.

شرح قصة يونس(*) عليه السلام

في قوله تعالى(١): ﴿وَذَا النُّوْنِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَن نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ الآية.

فممّا اختلقُوه عليه(٢) ـ عليه السّلام ـ في شرح هٰذه الآية أنْ قالوا: أنّه جاءه المَلَكُ بالوحي وهو يتعبّد في الجَبل فقال له: إنّ الله تعالى أمرني أن أُعلِمك بأنه أرسلك إلى أهل نِيْنَوىٰ، لتحذّرهم وتنذرهم. فقال له يونس عليه السّلام: الله أرْفَقُ بي، وأَعْلَمُ بِضَعفي ومَسكنتي، من أن يُرسلني إلى قومٍ جَبّارين مُتكبّرين، يُؤذونني ويقتلونني. فراجعْ رَبّك أيُّها المَلك في أمري، فلعلّه يُعفيني من ذٰلك ويلطف بي! فقال له الملك: الله تعالىٰ أعظم من أن أراجعه فيما أمرني به، وقد أمرتك، فسَلْ أنت ربك ذلك إن شئت، فقد بَلّغتك والسّلام. ثم صار المَلك إلى مقامه ففرّ إذْ ذاكَ يُونس ـ عليه السلام ـ على وجهه إلى جهةِ البَحر مُغاضباً لربه، وركب السفينة فالتقمه الحوت.

ومنهم من قال: إنه بلّغ قومه الرّسالة، فسبُّوه وضربوه وأَغْلَوا في أذيّته، فدَعَا عليهم، فأخبره ربُّه أنه ينزل البلاء عليهم في يوم كذا، فأخبرهم بذلك، فلمّا كان في ذلك اليوم، خرَج إلى أعلى الجبَل وقعد ينتظر الوعد، فإذا سحابةٌ عظيمة سوداء قد جاءت من ناحية البحر حتى

(*) شرح قصة يونس عليه السلام: في تنزيه الأنبياء للشريف المرتضى: ٩٩، وعرائس المجالس: ٤٠٦، وابن كثير: ٣٩٠، وتفسير الطبري ١٧: ٤٨؛ وتاريخ الطبري ٢: ١١، وتفسير القرطبيّ ١١: ٣٢٩.

(١) الأنبياء: ٢١/٨٧

(٢) ذو النون لقب ليونس بن متّى لابتلاع النون (الحوت) إيّاه.

قربت من البلد، ثم جاءت ريحٌ فهبت في وجهها فردّتها عنهم، فخرج فارّاً مغاضباً لربّه حيث ردَّ عنهمُ البَلاء.

فهذا من بعض أقوالهم الخبيثة في قصة يونس عليه السَّلام.

ومُقتضىٰ هاتين الكذبتين عليه أنّه سخط أحكامَ رَبِّه، ولم يَرْضَ بقضائه، ولا أَذْعَن لحكمه!

وحاشى وكلّا أن يفعل ذلك أنبياءُ الله تعالى مع العِصمةَ والنَّزاهة فيما دون ذلك كما قدمناه.

فإنَّ غضب العبد على ربه إنّما هو ألَّا يَرْضَى بحكمه ولا بإرادته. وهذه هي المُنَاقضة والكفر الصُّراح.

قال تعالى لنبيّنا عليه السلام[٣]: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُوْنَ حَتَّى يُحَكِّمُوْكَ فِيْمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾.

فنفىٰ الله الإيمان عَمَّنْ لم يَرْضَ بحكم الله تعالىٰ وحكم نبيّه عليه السّلام. وقال عليه السّلام في دُعائه[٤]: «لَكَ العُتْبىٰ حتىٰ تَرْضىٰ». والأمْرُ أظهَرُ من الاستدلالِ عليه.

فصل

فإن قيل: إذا لم تصح هٰذه المُغَاضَبَة لربّه على هذا الوجه، فما الصَّحيح الذي يُعَوَّلُ عليه فيها؟! وكذلك المطالبة في لَوْم الله

(٣) النساء: ٤/٦٥

(٤) لك العُتْبىٰ: الرُّجوع مما يكره إلى ما يحبّ.

ـ والدّعاء بتمامه في السيرة النبوية (١: ٤٢٠) وذلك في خبر وفوده عليه الصلاة والسلام على ثقيف في الطّائف.

تعالى له حيث قال[٥]: ﴿فَالْتَقَمَهُ الحُوْتُ وَهُوَ مُلِيْمٌ﴾. وكذلك في قوله تعالى لنبيّه عليه السّلام[٦]: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تَكُنْ كَصَاحِبِ الحُوْتِ﴾.

وكذلكَ في قولة نبينا عليه السّلام[٧]: حُمِّلَ أخِي يُونس أعباءَ الرِّسالة فانفسخ تحتها كما ينفسخُ الرُّبَعُ.

قلنا: أما مُغاضبته عليه السّلام، فكانت لقومه لا لِرَبِّه ولا يجوزُ ذلك عليه، وأنَّى وقد جاء في الخبر أنّه عليه السّلام قال[٨]: «والَّذِي نفسِي بيده لو لم يبلّغ نبيٌّ الرسالة إلى قومِهِ لَعُذِّب بعذابِ قومِهِ أجمعين»؛ ـ نقل على المعنى ـ وإنّما كانت لقومِهِ لِمَا نالَ مِنهم من الأذيّة، فاحتمل أذاهُم حتّى ضاق صدره، ويئس من فلاحهم، ففَرَّ بنفسِه بعدما بَلَّغ غاية التّبليغ كما أمره الله تعالى.

ثم غلب ظنّه لسعة حلم الله تعالى ألّا يطلبه بذلك الفِرار لكونه قد أدّى ما عليه، وهو معنىٰ قوله تعالى[٩]: ﴿فَظَنَّ أن لَن نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي أن لن نضيّق عليه. قال تعالى[١٠]: ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ أي ضُيِّقَ. وقال تعالى[١١]: ﴿أولَمْ يَعْلَمُوا أنَّ الله يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي يُضَيّق.

---

(٥) الصافّات: ١٤٢/٣٧

(٦) القلم: ٤٨/٦٨

(٧) نقل القرطبي: في الخبر في وصف يونس عليه السلام أنه كان ضيّق الصّدر، فلما حمل أعباء النبوّة تفسّخ تحتها تفسُّخ الرُّبَع تحت الحِمل الثقيل، فمضى على وجهه مضيّ الآبق النادّ.
ـ وفي اللّغة، تفسّخ الرُّبَع تحت الحمل الثقيل وذلك إذا لم يُطقه.
والرُّبَع: ما ولد من الإبل في الرّبيع.

(٨) حديث.

(٩) الأنبياء: ٨٧/٢١

(١٠) الطّلاق: ٧/٦٥

(١١) الزُّمر: ٥٢/٣٩

ويُحتمل أنه ظنّ أن قدرة الله تعالى لم تتعلّق بإيلامِه وسجنه تفضّلاً منه، وأنّه تعالى يعفو عنه في ذلك الفِرار، فوقَع خلافُ ظنّه.

وهذا هو الّذي يجوزُ أن يَعتقده الأنبياء، وأن يُعتقد فيهم.

وقال الفَجَرة: إنّه ظنّ أن لا يقدر الله عليه، أي لا يُمكنه أن يفعل فيه. وهذا كفرٌ صُرَاح لا يمكن أن يعتقده مقلّد في الإيمان، فكيف نبيّ؟

وقد تذاكرت مع طالبٍ من طلبةِ الأَنْدَلُس ملحوظ بالطّلب، فقال لي ذلك وبالاجماع أنه من ظَنّ أن لاّ يقدر الله - عزّ وجل - عليه على وَجه العجز عنه أو الفَوْتِ من قَضائه وقَدَرِه فهو كافر.

وأمّا قوله تعالى[١٢]: ﴿فالْتَقَمَهُ الحُوْتُ وَهُوَ مُلِيْمٌ﴾ أي أتىٰ ما يُلام عليه. وليسَ كلّ من أتىٰ ما يُلام عليه يَقعُ لَوْمُه. فإن كان تعالى لم يَلُمْه، فقد انْدَفع الاعتراض لعدم اللّوم. والأظهر أنه لم يَلُمه، إذْ لو وقع اللّومُ لقال: وهو مَلُومٌ، وإنْ كان لامَهُ فاللّومُ قد يكون عِتاباً، وقد يكونُ ذَمّاً، فإن صحّ وقُوع لومه فكان من الله عتاباً له على فِراره لا ذَمّاً، إذ المُعاتَبُ مَحْبُور[١٣] والمَذمومُ مدحور.

فاعلْم - رحمك الله - صحّة التّفرقة بين اللّوم والذّم. قال الشّاعر[١٤]:

لَعَلَّ عَتْبَكَ مَحْمُودٌ عَوَاقِبُهُ   فَرُبَّمَا صَحَّتِ الأَجْسَامُ بالعِلَلِ!

وقال آخر[١٥]:

إذا ذَهَب العِتَاب فليس وُدٌّ   ويبقىٰ الودُّ ما بَقِيَ العِتَابُ

(١٢) الصافات: ١٤٢/٣٧
(١٣) مَحْبُور: مسرور، ومُنْعَمٌ عليه.
(١٤) البيت للمتنبّي في ديوانه (بشرح العكبري) ٣: ٨٦، وقدسبق.
(١٥) البيت في التمثيل والمحاضرة: ٤٦٥، وفي الأمثال والحكم للرّازي: ١٠٣، ولم ينسباه.

وقال آخر[١٦]:

لو كنتِ عاتِبَتِي لسَكّن لَوعتي   أملي رضاك وزُرتُ غيرَ مُرَاقَبِ
لكنْ صددتِ فما لصدِّك حيلةٌ   صَدّ المَلُول خلافُ صَدّ العاتِبِ

ألا ترى كيف قال الله تعالى[١٧]: ﴿لَوْلَآ أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِن رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ معناه: لولا ما عصمناه ورحمناه لأتىٰ ما يُذَمُّ عليه على أصلِ الجواز لا على فَرع الوُقوع.

وهذا من النّمط الذي قدّمناه في قصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ حيث قال[١٨]: ﴿وَاجْنُبْنِيْ﴾ وهي أن يعبُدَ الأصنام وهو قد أُمِنَ من ذلك بالخَبر. وقوله تعالى في قصة شعيب ـ عليه السَّلام[١٩] ـ ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَعُود فِيْهَا إِلّاَ أَن يَشَاء الله رَبُّنَا﴾ الآية. وقوله تعالى لنبينا ـ عليه السَّلام[٢٠] ـ ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ وهو تعالى لم يشأ ذلك، بالخبر.

وأمّا قولُه تعالى لنبينا عليه السَّلام[٢١]: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تَكُنْ كَصَاحِبِ الحُوْتِ﴾ يعني كيونس عليه السَّلام في فِراره حين ضاقَ صَدْرُه كما قَدَّمناه. وقال تعالى[٢٢]: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنّكَ يَضِيْقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُوْنَ﴾ كما ضاق صدر يونس فلا تفرَّ كفراره.

ولذا جاء عنه عليه السَّلام[٢٣]: «لا تُفَضّلُوني على يُونس بن مَتّى»

---

(١٦) لم أعثر عليه.
(١٧) القلم ٦٨/٤٩
(١٨) إبراهيم: ١٤/٣٥
(١٩) الأعراف: ٧/٨٩
(٢٠) الإسراء: ١٧/٨٦
(٢١) القلم: ٦٨/٤٨
(٢٢) الحجر: ١٥/٩٧
(٢٣) في صحيح مسلم (٤: ١٨٤٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلّم أنه قال: «لا تفضّلوا بين أنبياء الله . . . ولا أقول إنّ أحداً أفضل من يونس بن:=

لما قيل له: ﴿ولا تكنْ كصاحِبِ الحُوت﴾ فنهاه أن يفعلَ فعله في قصّة مخصوصة خاف على قُلوبِ عَوامِّ أُمّته من اعتقادِ هذه القولة على خلاف ما هي به، فيعتقدون أنّها نهيٌ له على العُموم، وحاشى وكلا، وكيف يصحُّ فيها العُموم وقد أُمره تعالى أن يتخلّق ويقتدي ويهتدي بأخلاقِه وأخلاقِ نُظَرائه عليهم السَّلام، حيث قال له[٢٤]: ﴿أُولئك الَّذيْنَ هَدَىٰ الله فَبِهُدَاهُم اقْتَدِهْ﴾ فقال ذلك والله أعلم.

وأما قوله عليه السّلام[٢٥]: «حُمِّل أخي يونس أعباء الرسالة فانفسخ تحتها كما ينفسخ الرّبع» الحديث فهو في هذا المعنى أنّه كُلّف مقاساة الجَهلة، والصّبر على الأَذِيّة[٢٦]، فضاق صدرُه بذلك ولم يَحتمله ففرّ!

وعلى هذا يَنبغي أن تُحمل هٰذه الأَقوال، وعلى ما هو أغمض وأعلى في التّبرئة من هذا، لا وقُوّة إلا بالله.

= متّى عليه السلام». وفي صحيح مسلم أيضاً (٤: ١٨٤٦) من حديث ابن عبّاس رضي الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلّم أنّه قال: «ما ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متّى».

(٢٤) الأنعام: ٦/٩٠

(٢٥) سبق الحديث (وانظر فهارس الكتاب).

(٢٦) رسمت الكلمة هنا، وفي مواضع أُخر (أذاية) وصوابها أذيّة؛ ويقال أذاة أيضاً. وعددتها من سهو الناسخ.

شرح قصة أيوب(*)
عليه السلام

في قوله تعالى(١): ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ. ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هٰذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَشَرَابٌ﴾.

فممّا قالوه في سبب محنته عليه السلام، وهو أسلمُ ما نَسَبُوه إليه من الأقاويل، أنّه شوى حَمَلاً في منزلِهِ، وكان بإزائه جارٌ فقيرٌ، فتأذّى برائحة طعامِهِ ولم يُنِلْه منه شيئاً، فامتحنه الله تعالى بأن سلّط عليه الشّيطان!

ومنهم من قال: إنه دخل يوماً على مَلِكٍ جَبّار، فرأى في منزله مُنكراً فلم يغيّره، فلذا امْتُحِن!

وهاتان القولتان من أشبه(٢) ما قالوه في مِحنته عليه السلام. فأوّل ما يُطلبون بِهِ إثباتُ دعواهُم، وهم لا يُثبتونها في كتابٍ ولا سُنّة، سوى ملفقات من قَصَصِيّات هي أوهىٰ في الثُّبوت من خَيط العنكبوت!

فاخترنا الكلام في هاتين القصّتين لكونهما مما يصحّ معناهُما لو صَحّ أَثَرُهما. فلو صحّ ما قالوه من القَولتين أو إحداهُما لتصوّر الخُروج عنهما بأحسن مخرج.

فأمّا قصّة الحَمَل، فقد يكون يغلبُ الظنّ أن جاره ليس يحتاج إليه في ذلك الوقت، وقد نعلم(٣) أنّه يمكنه أن يصنع مثل ذلك، فإنّ ثمن الحَمل

(*) شرح قصة أيوب (ع) في: تنزيه الأنبياء للشريف المرتضىٰ: ٥٩، وعرائس المجالس: ١٥٣، وابن كثير: ٣٦٧، وتفسير الطبريّ ٢٣: ١٠٦، وتاريخ الطبري ١: ٣٢٢، وتفسير القرطبيّ ١٥: ٢٠٧

(١) ص ٣٨/ ٤١ - ٤٢

(٢) يعني من أخفّ ما اختلقوه، وهناك ما هو أدهى وأمرّ!

(٣) في الأصل المخطوط «نعلم» غير معجمة.

ولعل المعنى: «وقد نسلّم» أي نسلّم جَدلاً؛ واستجراراً للكلام.

يسير، وليس كلُّ فقير مُملقاً، وقد يُحتمل أنّه نَسِي أن يُواسيه منه، وليس يلحقه في ذلك عَتب ولا ذنب، على أنّه لو تَرك إعطاءه قاصداً لم يكن مُذنباً، فإنّ مؤاساة الجار مندوبٌ إليها، ومَن ترك المَنْدُوب فلا ذنب عليه.

وأما قولهم: إنه لم يغيّر المنكر علىٰ الملك الجبّار، فعينُ هذا القول عذرٌ عنه. فإنَّ لزوم تغيير المُنكر إنّما هو مع الإمكان؛ قال تعالى(٤): ﴿الَّذِيْنَ إن مَكَّنَّاهُم فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وآتَوُا الزَّكَاةَ وأَمَرُوا بالمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ المُنْكَرِ﴾. فلما علم جبروت(٥) الملك خاف على نفسه، ولم يُمكنه تغييره بظاهِره لئلاّ يقع من الجَبّار منكرٌ أكبر مِمّا رآه في منزله، فغيّر بقلبه.

ويُحتمل أن يكون ذلك الملك لم يكن من أُمّته، ولا أُرسل إليه، فلم يغيّر عليه، إذ لا يَلزمه ذلك.

كما مَرّ موسى عليه السّلام على قوم يعكفون علىٰ أصنام لهم فغيّر على قومه ولم يُغيّر عليهم، لكونه لم يُرسل إليهم؛ فإنّ النبيَّ لا يلزمه التّغيير إلاّ على من أُرسل إليه.

فقد خرجت القَولتان بحمدِ الله على أحسن مخرج إذا صَحّتا.

وأمّا قوله(٦): ﴿مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وَعَذابٍ﴾ أي ببلاء وشر. جاء في خبر يطول ذكره، فلنذكر منه ما لا بدّ من ذكره.

وجاء في الأثر أنّ الشيطان تحدّاه بأنه لو سُلّط عليه لَضَجِرَ وسَخِطَ حُكْمَ الله تعالى، فسُلّط على مالِه وولده وجَسده إلا قَلبه ولسانه فصبر صبراً أثنى الله به عليه إلى يوم القِيامة في قُرآنٍ يُتلىٰ، فقال تعالى(٧): ﴿إنّا

(٤) الحج ٢٢/٤١
(٥) في الأصل المخطوط: جبريّة. ورجحت ما رجّحه السّياق.
(٦) ص ٣٨/٤١
(٧) ص ٣٨/٤٤

وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ العَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ وبقي الشّيطان خائب الصّفقة خزيان. فلمّا نادى ربه شاكياً بالشّيطان وبما ناله منه، أجابه بالإقالة من شَكِيّته وأمره أن يركض الأرض برجله حتى يُرِيَهُ بركةَ صبره فقال[٨]: ﴿اركُضْ بِرِجْلِكَ هٰذا مُغتسَلٌ بارِدٌ وَشَرابٌ﴾ فعجّل له في الدُّنيا مِثلاً لعين الحَياة التي بين الجنّة والنّار يغتسل فيها المعذّبون ويشربون منها فيخرجون مُطَهَّرين من كل بؤسٍ ظاهراً وباطناً. كما جاء في الخبر[٩].

فمسّ أيُّوب عليه السّلام الأرضَ برجله فنبَع منها الماء فشرب منه فبرىء ما كان في باطنه من دقيق السّقم وجليله، واغتسل فبرىء من ظاهره أتَمَّ براءة، فما كان يُرسل الماء على عضو إلّا ويعودُ في الحين أحسن ما كان قبلُ، بإذن الله تعالى.

وردّ الله عليه ما له وولده، ووُلِدَ له مثلُ عددهمْ.

قال الله تعالى[١٠]: ﴿وآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾.

وهذه القصة على رونق فيها لكونها متعلقة بالكتاب جائزة في العقل، لكنها غير لائقة بمنصب النبوة. وحاشى لله أن يسلط عدوه على حبيبه بمثل هذه السّلطة حتى يتحكم في ماله وولده وجسده بالبلاء والتّنكيل.

وأما تعلُّقهم فيها من الكتاب العزيز فبقوله تعالى أنه قال: ﴿مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾.

---

(٨) ص ٤٢/٣٨

(٩) في صحيح مسلم (١ : ١٧٢) من حديث أبي سعيد الخُدْريّ رضي الله عنه، أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «يُدْخِل الله أهلَ الجنّة الجنّة، يُدْخِلُ مَنْ يشاء برحمته؛ ويُدْخِلُ أهلَ النّار النارَ؛ ثمّ يقول: انظروا مَنْ وَجَدْتم في قلبه مثقال حبّه من خَرْدَل مِن إيمان فأخرجوه؛ فَيُخْرَجونَ منها حُمَماً قد امْتَحَشُوا فَيُلْقَوْنَ في نَهْرِ الحياة ـ أو الحَيَا ـ فَيَنْبُتُونَ فيهِ كما تَنْبُتُ الحِبَّةُ إلى جانب السَّيْلِ، ألم تَرَوْها كيف تخرج صفراء ملتوية؟!» قوله: قد امْتَحَشُوا؛ أي: قد احترقوا.

(١٠) الأنبياء: ٨٤/٢١

وليس لهم حُجّةٌ في هذا القَول، فإن الأنبياء عليهم السلام، إذا مسَّهم ضُرٌّ نسبَوه إلى الشَّيطان، على جهة الأدب مع الحق، سبحانه لئلاّ[١١] ينسبوا له فِعلاً يُكْرَهُ، مع علمهم أنّ كُلاًّ من عند الله.

قال الخليل عليه السّلام[١٢]: ﴿وَإِذا مَرِضْتُ فَهُو يَشْفِيْنِ﴾.

وقال الخضر عليه السّلام[١٣]: ﴿فأَرَدْتُ أَن أَعِيْبَهَا﴾.

وقال الكليمُ عليه السّلام[١٤]: ﴿هٰذا مِن عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾.

وقال فتاه عليه السلام[١٥]: ﴿وَمَا أَنْسَانِيْهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾.

وقال نبينا صلى الله عليه وسلم[١٦]: «والخير كلُّه في يديك، والشر ليس إليك».

يعني ليس إليك يُضاف وصفاً لا فِعلاً، وإنْ كان الفعل كلّه من عند الله.

وقال تعالىٰ[١٧]: ﴿بِيَدِكَ الخَيْرُ إِنَّكَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ﴾.

فخرج من مجموع ما ذكرناه أن تعلّقهم بالآية في كل ما زَوّرُوه من الأقاصيص غيرُ صحيح.

فصل

[استطراد إلى قصّة مريم وتبيين أنَّ مقامَهَا عند هَزّ الجِذْع ليسَ أقلّ من مقامها في الغُرْفة]

(١١) في الأصل المخطوط: ألا. وقد سبق للناسخ أن صحّف مثل هذه الكلمة.
(١٢) الشعراء ٢٦/٨٠
(١٣) الكهف ١٨/٧٩
(١٤) القصص: ٢٨/١٥
(١٥) الكهف: ١٨/٦٣
(١٦) في صحيح مسلم (١: ٥٣٥) من حديث طويل برواية علي بن أبي طالب رضي الله عنه.
(١٧) آل عمران: ٣/٢٦

وهنا نكتةٌ شريفة يجب الاعتبارُ بها في قصّة مريم عليها السّلام عند هَزّ الجذع، وهي معضودةٌ بقصّة أيُّوب عليه السَّلام في بَركة ركضه، وبركات بعضِ الأنبياء فيما لمسوه وركضوه وضربوه. وذلك أنّ مُعظم أهل الإشارة رحمهم الله أصْفَقُوا[١٨] على أن مريم عليها السلام كان مقامها في الغُرفة أعلى ممّا كان عند النّخلة.

واستدلُّوا على ذلك بما جاء في الخَبر عن الرّزق الذي كان يجدُ عندها زكريا عليه السلام، إذ كان يجدُ عندها فاكهةَ الشّتاء في الصّيف، وفاكهةَ الصّيف في الشتاء. فكان يأتيها بلا سبب، فلمّا نظرت إلىٰ عيسىٰ عليه السّلام حين ولدته أَحَبّته[١٩]، فأُمِرت بالكَسب في هَزّ النخلة لكونها رَجعت من جمعٍ إلى تَفريق.

وقالوا في هذا وأطنبوا[٢٠]، وأنشدوا الأبيات المشهورة على قافية الباء، إلى غير ذلك. وهذه رحمهم الله وهلةٌ منهم وغفلةٌ عن الأُوْلىٰ والأُخْرَى في حَقّ تلك الصِّدِّيقة.

وأَوّلُ ما يُعترض به عليهم أنْ يقال لهم: مِن أين يَحكمون عليها أنّها لما رأت الولد تَفرَّقت بميلِ قلبها إليه؟

وهذا لا يصح إلّا بتوقيف، والتّوقيفُ في ذلك معدومٌ، وبِمَ تَرُدُّون على من يدعي نقيضَ دعواكم؟ ويُبَرهن عن ذلك أنّ مريم عَليها السّلام ما كانت قطُّ في مقامٍ هو أعلى من مقامها في تلك الأزمة على تلك الحالة،

(١٨) أصفقوا: أجمعوا.

(١٩) روى القرطبي (٩٦/١١) قال: قال علماؤنا: لمّا كان قلبها فارغاً فرّغ الله جارحتها عن النّصب (التّعب) فلمّا ولدت عيسى وتعلّق قلبها بحبّه، واشتغل سرّها بحديثه وأمره وَكَلَها إلى كسبها، وردّها إلى العادة بالتعلّق بالأسباب في عباده.

(٢٠) سيذكر المؤلّف ـ رحمه الله ـ أنّ أوّل الشّعر الذي أنشدوه في مريم عليها السّلام:

أَلَمْ تَرَ أنَّ الله أَوْحىٰ لِمَرْيَمٍ ... إليكِ فَهُزّي الجِذْعَ تَسَّاقَطِ الرُّطَبْ

ولم أعثر علىٰ الشّعر بتمامه.

وعلى قدر الأزمـات يأتي الفرج، وذلك أنَّهـا قُـبضت(٢١) في ذلك المقـام من سبعـة أوجـه:

أحـدها: أنْ خـاطبها المَلَكُ على ضعفهـا وصغر سِنّهـا ووحـدتها في الفَـلاة، وهـذا أمـرٌ لا يتخـيّل ما يـكون فيه إلاّ مَنْ دَهَـمه.

الثّـاني: أنّـه كـان أوّل خـطاب خُـوطبت به. وقـد جاء في الصحيح أن النبيّ صـلى الله عليه وسـلم لمّـا خـاطبه الملك في أوّل مـرة كـاد أن يتردّى من حـالِق الجـبل خيفةً من فَجْأةِ المَلَكِ وفجـأة الخِـطاب(٢٢)، وكـان عليه السّلام في ثـاني حـالٍ يأتـيه الوحـي في اليوم الشّديد البـرد فيتفصَّدُ عَرقاً هيبةً من فجأة الوحـي وإعظاماً للمَلَك(٢٣).

الثـالث: أنْ أخـبرَهـا بأنّها تلدُ من غير فَحـل، وهـذا ممّـا يَعْظُم سماعُه لكونه غيرَ مُعتـاد لا سيّمـا لِمثلهـا.

الرَّابع: طريـان(٢٤) المخـاض عليها وآلامـه التّي تُوازي آلام الموت لا سيّمـا أوّل مخـاض.

الخـامس: وهـو أشدّ عليها من كـل ما وقع، وهو ما يَصِمُهَـا النّـاس به من المَلامـة والأذيّـة وإقـامة الحـدّ عليها وهـي بريئة.

السّادس: وهو أشدُّ عليها من أذيّتهـا، وهـو ما يـلحق قومها من

---

(٢١) في الأصل المخطوط: قبضت؛ وفي آخر الفقرة سيقول المؤلف: «فهذه سبع قوابض لو سلّط أحدها على جبل لتصدّع».

(٢٢) الّذي ورد في مسند الإمام أحمد(١: ٢٣٣)أنَّ رسول الله صلّىٰ الله عليه وسلّم فَتَرَ الوحيُ عنه فترةً بعدَ أن فاجأه لأوّل مرّة، حتىٰ حزن حزناً شديداً غَدَا منه مِرَاراً كي يتردّىٰ من رؤوس شواهق الجبال، فكلمّا أوفىٰ بذروة جبلٍ تبدّىٰ له جبريل فقال: يا محمّد إنّك رسول الله حقّاً، فيسكّن ذلك جأشَهُ وتَقَرُّ عَيْنُهُ فَيَرْجِع.

(٢٣) وجاء في مسند أحمد أيضاً (٥: ٢٥٧) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «... ولقد رأيتُهُ ينزل عليه (تعني الوحي) في اليوم الشّديد البرد فينفصم عنه، وإنَّ جبينَهُ ليتفصَّ؟د عَرَقاً».

(٢٤) في المعاجم: طرأ: طَرْاء وطروءاً. ولم أجد (طريان) التي ذكرها المؤلف رحمه الله.

[النّاس][٢٥] إذا قذفوها، فإنها صديقة بشاهِد القُرآن، والصِّدّيق أشفق على خلق الله مما هو على نفسه.

السابع: فيما يكونُ عذرها إذا اعتُرضت، وأُنكر عليها ما جاءت به.

فهذه سبع قوابض لو سلط أحدها على جبل لتصدّع! ويكفيك قولُها عند ذلك[٢٦]: ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هٰذا وكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيّاً﴾ فأي مقام فوق مقام من ابْتُلِي بمثل هٰذه المُعضلات دُفعةً واحدة فصبرَ وشَكر؟

ويعضد ما قلناه في علوّ مقامها في ذلك الحال قوله تعالى[٢٧]: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيّا المِحْرَابَ﴾ الآية، إلى قوله[٢٧]: ﴿بِغَيْرِ حِسَاب﴾.

وذلك أنّ زكريا عليه السلام كان يجدُ عندها تلك الفواكه المذكورة في غير أوانها فيقول[٢٧]: ﴿أَنّىٰ لَكِ هٰذا﴾ يعني بأيّ عمل بلغت هذا المقام؟ كان عليه السلام يستعظمُ ذلك المقام في حَقّها لِغَرارتها وضَعفها، فتقول هي[٢٧]: ﴿هُوَ مِن عِنْدِ الله﴾.

أي ليس ذٰلك مقاماً بلغتُه بكبيرِ عَمَل، وإنّما هو من فضل الله تعالى، فكَأَنّ ما تُشير إليه: أنتمُ عُظماء! لكمُ المقَامات والأَحوال، وأنا ضئيلةٌ ضعيفة! فأنتم تُرزقون بسببٍ وأَنا بغير سبب!

ففي قول زكريا عليه السّلام: «أَنىٰ لك هذا» دليلٌ على ضعف مقامها في الغُرفة[٢٨]. فإنَّ المَقامات عند القوم مرتبطةٌ بعلومٍ مَخصوصة وأعمال

(٢٥) كلمة لم تتضح، ورجّحت ما أثبت بمقتضى السِّياق.
(٢٦) مريم: ٢٣/١٩
(٢٧) آل عمران: ٣٧/٣
(٢٨) أي مقامها الّذي كانت تتعبّد فيه، وكانَ غُرْفَةً، وهي المُشَار إليها في قوله تعالىٰ: ﴿كلّما دَخَلَ عليها زكريّا المحرابَ وجَدَ عندَها رزقاً﴾ والمِحْرَاب: الغُرْفَة.

مخصوصة، وكذلك الأحوال والكرامات أيضاً هِبَةٌ من الله تعالى لهم على قدَر مقاماتِهم.

فلما كان ذلك غاية قبضها وعلاء مقامها في القبض، بُسِطت من سبعة[٢٩] أوجه:

أحدها: أنْ كلَّمها الوليد. قال تعالى: ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي﴾، قُرِئ بفتح الميم[٣٠].

فقال قومٌ: ناداها الملَكُ من مكانٍ مُنخفض عنهما.

وقال آخرون: ناداها الوليد؛ وهو الأظهَرُ لِوجهين:

أحدهما: أنّ (تحت) في حقّ الوليد أَمَتّ[٣١]. والثّاني: أنَّ تكليم الوليد آنس في الخِطاب مِن كلام المَلَك، على ما تقدّم.

والثّاني: من تقاسيم البَسط: أنْ كَلّمها وليدُها ولم يكلّمها وليدُ غيرها؛ لأنّ تكليم ولدها من بَركاتِ أحوالها.

الثالث: أنْ كلّمها في الحِين، فإن فيه تنفيسَ خِناق قبضِها بسرعة البشارة.

الرابع: أن كلمها بالبشارة: ﴿أَلّا تَحْزَنِي﴾.

الخامس: أن أخبرها أنّه سَرِيٌّ؛ أي رفيعُ القدر عند الله تعالى. وما يُحِبُّ أحدٌ أن يكونَ غيرُه أحسنَ منه إلا ولدَه.

---

(٢٩) في سورة البقرة ٢/٢٤٥ ﴿من ذا الذي يُقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسُط وإليه تُرجعون﴾ قال القرطبي «والله يقبض ويبسط» هذا عامّ في كل شيء فهو القابض الباسط.

(٣٠) قرئ بكسر الميم: «مِنْ تحتها» وقُرِئ بفتح الميم «مَنْ تحتها». (وانظر معجم القراءات القرآنية ٤: ٣٩).

(٣١) أقرب إلى المقصد، ومجرى القصّة.

السّادس: أنّـه لمّـا كلّمهـا الوليدُ استبشـرت بـأنه سيُقيم حُجّتهـا عند قومهـا كالّذي فَعـل.

السّابع: وهـي البِشـارة العُـظمى التي تثبـت أنَّ مقامهـا عند الجـذع كـان أعـلى من مقامهـا في الغُرفـة. وهـو قـوله تعـالى لهـا: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُساقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً﴾.

وتُتَصـور الكَرامـةُ في هَـزّهـا من أحـدَ عَشَر وجهـاً:

أحـدها: أنّـه نبهها على بـركة يـدها بأن تمـسّ الشيءَ فيظهـر عليه بـركة ذلك المسّ. كما جـاء في الصّحيح[٣٢] عن عائشـة أنّ رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم كـان إذا اشْتكىٰ يقـرأُ على نفسِه بالمُعَوِّذاتِ وينفُث، فلمّا اشتـد وجعهُ كنـت أقرأُ عليه وأمسحُ عنـه بيـده رجـاءَ بَركتها.

وكمـا قيل[٣٣]:

لـو مـسّ عـوداً سَلُوبـاً لاكتسى ورقـاً
ولـو دعـا ميّتـاً في القبـرِ لَبّاهُ

الثـاني: أنَّ الملمـوس كان جِذْعـاً، والجذْع في اللّسـان هـو: سـاق النّخـلة إذا جُذَّ رأسُهـا. يقـول العـرب: علىٰ كَمْ جـذع بيتـك مبنيّ؟ وجـاء في الخَبر[٣٤]: «فَحَنّ الجِذْعُ إليه» وكـانت أُسطوانـةً في المسجـد. وقـال تعـالى[٣٥]: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ ولا يـكُونُ الصَّلْبُ إلاّ في

---

(٣٢) في مسنـد الإمام أحمد (٦: ١١٤).

(٣٣) في اللسان: شجرة سَليب: سُلبت ورقهـا وأغصانها
ووردت سلوب صفة للناقة التي ترمي ولـدها؛ وقـال: ناقة سالب وسلوب، مات ولدها أو ألقتـه لغير تمام؛ وكـذلك المرأة. وظبية سلوبٌ وسالب: سلبت ولدها.

(٣٤) في مسنـد الإمام أحمد (١: ٢٤٩) من حـديث ابن عبّاس رضي الله عنه أنّ رسـول الله صلى الله عليه وسلّم كـان يخطـب إلىٰ جِذْع قبلَ أن يتّخِذَ المنبر، فلمّـا اتّخذ المنبر وتحـوّل إليه حنَّ عليه، فأتاه فاحتضنه فسكن؛ قـالَ: ولو لم أحتضنه لَحَنَّ إلىٰ يوم القيامة».

(٣٥) طه: ٧١/٢٠

الخَشب. فصحّ أنّ ساقَ النَّخلة إنّما يُسمّىٰ جذعاً إذا جُزّ رأسه، وإذا جُزّ رأس النّخلة يبست فلا تلقح ولا تُورق بعد، فلمّا لَمسته اخْضَرَّ في الحين!.

الثالث: أنْ نبتت فيها أغصانٌ ووَرَقٌ، ورؤوسُ النخل إذا قُطعت لا تخلف.

الرابع: أنْ أثمرت في الحين والنّخل لا تثمر إلا بعد ريحٍ في أيّامٍ كثيرة.

الخامس: أنْ صارت رُطَباً في الحين.

السادس: قوله: ﴿جَنِيّاً﴾ أي حان قطافها فصلحت للجَني، فإنها قد تسمىٰ رُطَباً في أوّل نُضجها قبل أن تصلح للجَني، على جهة المجاز.

وهنا لطيفةٌ، وهي أنّ الله تعالى آنَسها بأن أراها مَثَلاً بالجِذع اليابس حين اخْضَرّ من غير سَقْيٍ، وبعد يُبسِه اخْضَرَّ وأثمر في الحين كما [ولد] عيسىٰ عليه السّلام من غير فحل، وتكلّم في الحِين، وتمّ خَلْقُه دفعةً، ووُلِدَ في الحِين، فَتِلْكَ بِتلك.

السابع: أنْ هَزَّتْها فتَساقطت. ومعلومٌ أن هَزّ مِثلها على ما هي عليه من ضَعفها ونِفَاسها لِسُوق النّخل لا يُسقط الرُّطَب، فإن كان أُعطيت في الحين قوّةً تَهُزُّ بها النخلَ فتسقط رطبها فَخَرْقٌ كبير[٣٦]، وإن تساقطت الرُّطب لِلَمْسِهَا إيّاها فخَرْقٌ آخرُ أكبرُ منه!

الثامن: قولُه لها[٣٧]: ﴿فَكُلِي واشْرَبِيْ﴾ فإنّ فيه بشارةً بسرعة الخَلاص من أَلَمِهَا، فإنّ النُّفَساء لا تأكل ولا تشرب إلا بعدَ مُدّة لشغلها بألمها.

---

(٣٦) أي خرقٌ للمعتاد، وإعجازٌ.

(٣٧) مريم: ١٩/٢٦

التاسع: أنّه بَشّرها بحصول الطّعام والشّراب عندها، لأنْ كانت بأرضٍ فلاة، فإنّ الناس يخافُون عَدَمَهُمَا في الفَلوات.

العاشر: قوله لها(٣٨): ﴿وَقَرِّيْ عَيْناً﴾ فعلمت بكلامه الخارق أنه لا يكذبها فأَنِسَت.

الحادي عشر: أنه علّمها كيف تجيبُ إذا سَأَلها قومُها في قوله لها(٣٩): ﴿فَقُولِي إِنِّيْ نَذَرْتُ لِلرَّحْمـنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ اليَوْمَ إِنْسِيّاً﴾.

ألا ترىٰ إلىٰ طُمأنينتها إلى (مبارأة)(٤٠) ولدها، كيف أتت به قومها تحمله ظاهراً لهم. وقد كادت(٤١) تفرُّ به إلىٰ بلدٍ آخر أو تُخفيه ما اسْتَطاعت فَلاَ يَشْعر به قومها؟ فلمّا طابت نفسُها به في إقامةِ حُجَّتِها عند قومها أتتهمْ بهِ تحمِلُه ظاهراً لهم.

فهذه رحمك الله سبعة أحوال ثَوّبَها ربُّها عَلَيها بثمانية عشر حالاً، سبعة منها قبلَ الهزّ، وأحد عشر بعده، كلّها تتضمن من البَسط والأُنس والكَرامات ما يدلُّ على رفعة شأنها وعزّة مكانها عند ربّها. فكيف تُبخس هذه الصِّدّيقة في حقّها وتُحَطّ عَنْ مقامها في الهزّ؟!

ويعضد ما رُمناه من علوّ المقام لَها في ذلك الوقت صحّة الشبه في قوله تعالى لأيُّوب عليه السّلام: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ أراد تعالى أن يُرِيَه عاقبة صبرِه وبركة تصرّفِه وفائدة ركضِه وثمرة لمسِه الأرض بأخمصيه. ومعلوم أنّ المياه لا تنبع بسبب الرّكض على مجرَىٰ العادة.

وإنَّ الرّكض يخرج مخرج الهَزّ حرفاً بحرف.

---

(٣٨) مريم: ٢٦/١٩

(٣٩) مريم: ٢٦/١٩

(٤٠) في الأصل المخطوط: «مبارات» غير واضحة ومهملة من النقط؛ وكأنها كما رُسِمت: مبارأة. ـ وفي اللسان: بارأت فلاناً برئتُ إليه وبرىء إليّ.

(٤١) في الأصل المخطوط: «كانت». ورجحت قراءة «كادت» لاستقامة المعنى.

وكذلك قوله تعالىٰ لموسىٰ عليه السلام[٤٢]: ﴿اضْرِبْ بِعَصاكَ الحَجَرِ﴾ أراد تعالىٰ أن ينبع له الماء بواسطة الضرب حتىٰ تظهر كرامته عند بني إسرائيل.

وكذلك في البَحر حين ضَربه فانْفَلق[٤٣].

وكذلك عيسىٰ عليه السَّلام كان يركُض القبورَ فيُحيي الله به المَوْتىٰ، ويلمس الطّين فيصيرُ طائراً بإذن الله.

وكذٰلك نبيُّنا عليه السّلام لمس الماء فنبَع من بينِ أَصابِعه، ولمسَ الطعام فنَما وزيد فيه، وتَفل في بئر فعَذُبَت وكَثُر ماؤها، وتَفل في عين عليّ كرّم الله وجهه فبرأت من داء الرَّمد، وشربت أمُّ أيمن بوله فبرأت من داء البَطن، وتفل علىٰ رِجْلِ أبي بكر الصّدّيق رضي الله عنه في الغار حين لَسعته العقرب فبرىء في الحين[٤٤].

فليت شعري ما الّذي أغفل أولئك الجِلّة[٤٥] عن هٰذه الأدلة حتّى يغضّوا من مقام مريم عليها السّلام بالهزّ وهو الأَعلىٰ، كما ترىٰ أيها اللّبيب الفطن المتناصف؟!

---

(٤٢) البقرة: ٢/٦٠ والأعراف: ٧/١٦٠ والشعراء: ٢٦/٦٣

(٤٣) تراجع الآيـة الكريمة من سورة الشعراء: ٢٦/٦٣

(٤٤) يراجع كتاب الشّفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض (طبعـة البجاوي بدار إحيـاء الكتب العربية):
- نبع الماء ٤٠٢ ـ ٤٠٥
- وتكثير الطعام ببركته ودعائه ٤١٠، ٤١٢، ٤١٦
- وتفجير الماء.
- وإبـراء ذوي العاهـات (العين) ٤٥٣ ـ ٤٥٤
- وشرب المرأة بوله ٩٠

(٤٥) في الأصـل: الخلّة، وهـو تصحيف صوابه: الجلّة، أي العظماء السّادة، يعني أهلَ الإشارة (الصوفيـة) الذين ذكرهم في أوّل حديثه عن مريم فقال: «. . . . وذلك أن معظـم أهل الإشارة رحمهم الله أصفقـوا على أنّ مريم عليهـا السّلام كان مقامها في الغرفة أعلىٰ ممّا كان عند النخلة».

فإن قيل: إنّما كانت تلكَ الأفعال منهم علىٰ سبيلِ إظهار المُعجزة لكونهم أنبياء، ومريم عليها السلام لم تكن نبيّة؟

قلنا: ليس الأمرُ كذلك بدليل أنهم لو تحدّوا بتلك الخروق من غير تناولٍ منهم لها فوقعت علىٰ وفق تحدّيهم بها لصحّت المُعجزة، وإذا صحّت المعجزة دون التّناول باللّمس والضَّرب، عُلِمَ أنّ تلك الأفعال وقعت إكراماً لهم زائداً علىٰ ثُبوت المعجزة. وأيضاً فإن اللّمس والضرب والتَّفل ليس من قبيل المُعجزات؛ فإنّه مُعتاد؛ والمُعتاد لا يكون معجزة.

فهذا هذا، ومن اعْترض من المقلّدة بالجُزَاف فعليه الدّليل، ولا دليل؛ فإن القوم الّذين قالُوا ذٰلك لم يأتُوا بدليلٍ سوىٰ ما نُقرّره من أنّ التوكّل فوقَ الكَسب.

وهٰذه مسألةٌ قد حَفِيت فيها الأقدام، واضطربت الأفهام؛ والأظهرُ فيها أنّ الكسب مع التوكّل إعلاء، فإنّه يقع بالظّاهر ويبقىٰ الباطن متوكّلاً، فإذا تُصوّر الجمعُ بين الظاهر والباطن فالكسبُ الحَلال ممّن جَمع بينهما، فهو إعلاء مقام، لكونهما مقامين وعَملين، فلا مُنَافرةَ بين التوكّل والكسب لاختِلاف المَجال. ومريم عليها السّلام صدّيقةٌ. ومن بعضِ مقامات الصدّيق الجمعُ بين الكَسب والتوكّل.

وفي الكسب فائدة كثيرة(٤٦) فإنّه مما ينفعُ النّاس، ويُصلح شؤونهم، ويقوم بمنافعهم في لباسهم وأقواتهم.

فلو ترك النّاس الكسب بالجُملة لهلكت الأرض ومَنْ عليها، فقد تصورت فيه المنفعة العُظمىٰ.

وقد جاء عنه عليه السّلام أنه قال(٤٧): «سيّد القوم خادِمُهم».

---

(٤٦) في الأصل: فائدة كثيرة. وتقرأ أيضاً ـ من جهة المعنى ـ «فائدة كبيرة».

(٤٧) ورد الحديث في كشف الخفاء (١: ٥٦١)، وضعَّفه.

وجاء عنه عليه السّلام أنه قال(٤٨): «النّاسُ عيالُ الله وأحَبُّهم إلىٰ الله أنْفَعُهم لعيالِه».

والمنفعة على ضَربين: دُنْيَوِيّة وأُخْرَوِيّـة

فالأُخروية: إرشادُ المكلّف وتعليمه ما يلزمه من وظائف التكليف.

والدُّنيوية: معالجة الـ َعِيشة بالأَسباب العادية التي يقومُ بها أَوَدُ الحاجات وإبقاءُ رَمَق الحياة. فقد انحصرت المنفعة الدُّنيوية في الكسب، وفيه أيضاً سببٌ للمنفعة الأُخروية، فإنّه لولا سدّ الجَوْعَة وسَتر العَورة علىٰ مُقتضىٰ الشّرع ومجرىٰ العادة لم تكن حياةٌ ولا تُصُوّرت عبادة. فأَهلًا بالكسب وأهله فإنهم أَحبُّ الناس إلىٰ الله تعالىٰ. وكيف يُعاب الكسب أو يُغَضُّ من قَدره وقد أثبته سيّد الرسل صلىٰ الله عليه وسلم لنفسه حيث قال(٤٩): «جُعِل رزقي تحت ظِلّ رُمحي» يعني ما يأكل من الغَنائم بسبب الكسب بالرُّمح. وما فوق مقام رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم مقام.

وأمر الله تعالىٰ داوود عليه السّلام بالكسب حيث قال له(٥٠): ﴿أنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ في السَّرْدِ﴾ يعني سابغات الدُّروع. ولذلك أخبر عليه السَّلام أنّ داوود عليه السّلام كان يأكل من كسبه في عَمل الدُّروع.

وكذلك جاءَ في الأَثر أَنَّ سُلَيمان عليه السَّلام كان يأكُل من عمل الخُوص(٥١).

---

(٤٨) في كشف الخفاء (١: ٤٥٧) برواية: «الخلق كلّهم عيال الله، فأحبّ الخلق إلى الله مَنْ أحسن إلىٰ عياله» وأشار إلىٰ روايات أُخَر، ونقل عن النووي وابن حجر أنّ الحديث ضعيف، ورَدَ من طرق كلّها ضعيفة.

(٤٩) في مسند أحمد (٢: ٥٠)

(٥٠) سبأ: ١١/٣٤

- وفي سورة الأنبياء: ٨٠/٢١ ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ﴾

(٥١) في صحيح البخاري (٣: ٩) من حديث المقدام رضي الله عنه، عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال:

وجاء عنه عليه السَّلام أنه قال(٥٢): «اطلبوا الرّزق في خبَايا الأَرض». يعني فيما يُزرع. وقال عليه السّلام لصاحب النّاقة(٥٣): «اعْقِلْهـا وتوكَّلْ».

وهذه الأخبار تدلُّ علىٰ إثبات الكسب شرعاً، وأَنّه لا يَقْدَحُ في التوكُّل.

فخرج من هذه الأَحاديث إثبات الكسب شرعاً، وأنّ مريم عليها السَّلام كان مقامها في تلك الحالة إعلاء، لكونها جمعت بين الكسب والتوكّل.

وقد نظمتُ في ذلك على نقيض ما نظموه في قولهم إِذْ قالُوا(٥٤):

ألم تر أن الله أُوحىٰ لمريمٍ ... إليك، فَهُزّي الجذعَ تَسّاقط الرُّطَب

فقلت:

أما عَلِمُوا أنّ المقام سمَا بها ... لأن جَمعت بين التوكُّلِ والسَّببْ
بأن لمست جذعاً فأيْنَع رأسُه ... على الحِين أفناناً وأثْمَر بالرُّطَبْ
كما مسّ أَيّوبُ اليبيسَ برجلهِ ... ففارتْ عيونٌ طهّرته من الصَّخَبْ
ومسّ كليمُ الله بالعُود صخرةً ... ففجَّر من أَرجائِها الماءَ فانسكبْ
ومس المسيحُ الطِّين بالخلق فانتشا ... طُيوراً بإذنِ الله أُحياء تضطربْ
ومسَّ يمينُ المصطفى الماءَ نطفةً ... ففاضَتْ عيونُ الماءِ من خَلَلِ العصبْ

فعضّ على هذه القَولة يا أيها المُتَناصف الفطِن بالنّواجذ، وشُدّ عَليها كفّ الضّنين فإنّها قولةٌ مقصودةٌ بالبُرهان، ونادرة ما أراني سُبقت إليها. وآعرفِ

= «ما أكل أحد طعاماً قطّ خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإنّ نبيّ الله داوود عليه السلام كان يأكل من عمل يده».

(٥٢) الحديث في كشف الخفاء (١: ١٥٤) قال: «رواه أبو يعلىٰ والطبراني والبيهقيّ بسند ضعيف عن عائشة».

(٥٣) الحديث في كشف الخفاء (١: ١٦١)

(٥٤) في تسجيل القصة القرآنية ورواية مضمونها.

ـ والنُّطفة: القليل من الماء، يبقىٰ في دلوٍ أو قِرْبَةٍ. ومِنْ خَلَلِ العَصَب: أي من خِلال عَصَبِ أصابعه عليه السَّلام.

الرِّجالَ بالعلم، ولا يُعرف العِلمُ بالرِّجال. فمن كُلّ كلامٍ مأخوذٌ ومتروكٌ إلاّ مِن كلام صاحِب القَبر صلّى الله عليه وسَلّم.

فهذا ما مَنّ الله تعالىٰ به في تَنزيه الأنبياء عليهم السَّلام علىٰ ما تَقتضيه الآي، وما صَحّ من الأخبار، من غير أن يلحق بواحد منهم ذنبٌ ولا ذَمّ. إذْ لو جازَ ذٰلك علىٰ البَعضِ لجازَ علىٰ الكُلّ، ومن قَدح في عرض واحد منهمْ أُلزم القدح في الكُلّ.

وقد أَجمعوا علىٰ أنّ من قال في زِرّ نَبّيٍ إنّه وَسِخٌ، يريد بذلك تنقيصه أنّه يُقتل ولا يُستتاب، احتياطاً علىٰ أعراضهم السَّنيّة أن لاّ يلحقها نقص، فإنّهم في النَّزاهة والعِصمة كأسنانِ المِشط ،لا يُفَرَّقُ بين أَحَدٍ من رُسله.

وكيف وقد قال تعالىٰ لسيّدهم ورئيسهم(٥٥):

﴿أولٰئِكَ الَّذِيْنَ هَدٰىٰ الله فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ يعني بمكارم أَخلاقهم وجميلِ أفعالهم وأقوالهم وأحوالهم.

وقال تعالىٰ(٥٦): ﴿والَّذِيْنَ آمَنُوا بالله ورُسُلِه ولم يُفرِّقُوا بينَ أَحدٍ مِنْهُمْ أُولٰئِكَ سَوْفَ يُؤتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾.

وهذا هو الحقُّ الذي يُرْغَب فيه ولا يُرغَبُ عنه.

فإيَّاك أَيُّها المُقلّدُ الغِرّ أَن تسمع من كلّ ناعقٍ غَبِيّ يدخل الميدان حاسراً حتى تأتيه كل طعنةٍ سُلْكى نجلاء(٥٧)، فهو لا يعرفُ ما ألزمه تعالى من دينه ولا ما تخلّصه في مُعتقده ومُعاملته عند الله تعالى فيتكلّم في تَفاصيل أَحوال المُرسلين ورؤساء المقرّبين وهو لا يعرف النُّبوّة ولا شُروطها ولا ما يجبُ لها

---

(٥٥) الأنعام: ٦/٩٠

(٥٦) النّساء: ٤/١٥٢.

(٥٧) الطعنة السُّلكىٰ: المستقيمة. والنجلاء: الطّعنة الواسعة.

ويَستحيل عَليها. وقد جاء في الصَّحيح عنه صلّى الله عَليه وسَلّم أنه قال(٥٨): «الرؤيـا الصّالحة من الرَّجُل الصّالح جزءٌ من ستّة وأربعين جُزءاً من النّبُوّة». وجاء في خبر آخر: «من سَبعين جُزءاً فليت شعري إذا لم يكن للعُلماء القيام بعلم سبعة من هذه السَّبعين فما ظنُّك بالجاهل الغبِيّ الذي غايَتُه تقليدِ أمّه في الشهادتين فهو من الضّفادِع والدّيدان في ضَحْضاح الغِيطان(٥٩)، ويُريد أن ينهضَ إلى مظانّ العُقبان في شَماريخ ثَهلان(٦٠)!!

---

(٥٨) الحـديث في صحيح مسلم (٤: ١٧٧٤) بروايـة: «رؤيا المـؤمن جزء من ستـة وأربعين جزءاً من النبوّة» وذكر رواياتٍ أُخَر تؤدّي المعنىٰ ذاته؛ وفي رواية: «الرؤيـا الصالحـة جزء من سبعين جزءاً من النبوّة».

(٥٩) الشماريخ، جمع الشُمروخ، وهو رأس الجَبَلِ. وثَهْلان: اسم جَبَلٍ طويلٍ بالعالية ـ عالية نجد ـ في بلاد بني نمير (معجم البلدان: ثهلان).

(٦٠) الضَّحْضَاح: الماء اليسير، يصـل إلى الكعبين. والغيطـان: جمع الغَوْط والغائط، وهو المطمئنّ الـواسع من الأرض.

فصل

[الكلام في إخوة يوسف عليه السّلام هل كانوا أنبياء؟].

فإن قال قائل: فإذا نَزّهْتُم الأنبياء عليهمُ السَّلام مثل هٰذا التّنزيه فما قولكُم في إخوة يُوسف عليهم السَّلام وقد قال بعضُ مَنْ يُؤبه[1] له من المفسّرين والمؤرّخين القائلين بغير دليل بأنهم كانُوا أنبياء؟

فالجوابُ: أنّ إخوة يوسف عليه السَّلام عندما واقَعُوا ما واقَعُوه مع أخيهم وأبيهم لم يكونُوا أنبياء وأُمَنَاء الله ورُسله. والدّليل على ذلك أنّ الكتاب العَزيز جاء بأنَّهم واقَعُوا كبائرَ وصَغائرَ والإجماعُ منعقدٌ على أنَّ الأنبياء عليهم السّلام معصُومُون من الكبائر؛ واختَلَفُوا في الصغائر[2]. وقد أقمنا الدّليل على عِصمتهم من الصَّغائر بما فيه مَقْنَعٌ فيما تَقَدّم.

فأمّا جُملة ما ارتكبوهُ منها ففي عشرين آيةً، من قوله تعالى مُخبراً عن أبيهم أنه قال ليوسف عليه السّلام[3]: ﴿لا تَقْصُصْ رُؤيَاكَ عَلَى إخوَتِكَ فَيَكِيْدُوا لَكَ كَيْداً﴾ إلى قوله تعالى مُخبراً عن نفسه[4]: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾. فتتّبع الآيَ تجد العَدد المذكور فما أُحِيلك على مُبهمٍ ولا على خَبرٍ ضعيفِ الإسناد. ومعلومٌ أَنّ الله عَزّ وجَلّ ما أطلق هٰذه الأقوال وأمثالها على أنبيائهِ وأصفيائه في كتابٍ ولا سُنّة، ولا أمَر بإطلاقها عليهم، ولا باعتقادِها فيهم.

---

(١) يؤبَهُ له: يُفْطَنُ له (أي هو ذو شَأنٍ).

(٢) أشهر من قال إن الأنبياء قد تقع منهم الصغائر: المعتزلة. وفي تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبد الجبّار عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَوَكَزَهُ مُوسىٰ فَقَضى عَلَيْهِ﴾: «إنّ وكزه كان على وجه الدفع لمّا أراد مخاصمته ولم يظن أنه يؤدي إلى قتله وذلك كالمرء يؤدب ولده استصلاحاً له فيؤديه إلى الموت. وهذا من الصغائر التي نجوّزها على الأنبياء» ص ٣٠٩

(٣) يوسف: ٥/١٢

(٤) يوسف: ١٠٢/١٢

فأمَّا الكبائر الَّتي فعَلُوها وهي لا تجوز على الأنبياء عليهم السَّلام فخمسة:

١ ـ ظُلم الأخ المُسلم لا سيما أخ مثل يُوسف.

٢ ـ وعُقوق الأب لا سيّما أب مثل يعقوب عليه السَّلام.

٣ ـ والكذب في قصة الذّئب المؤدّي إلى فراق أخيهم من أبيهم على حَداثة سِنّه وضعف مُنّتِه[٥]، وتفجّع أبيهم على فَقده حتى ابيضَّت عَيْنَاهُ من الحُزن.

٤ ـ وبيعه من الكَفَرةِ بثمنٍ بَخْسٍ على قول[٦] وهو مؤمن حُرّ وأخُوهم وابنُ نَبيّ.

٥ ـ ووصمة أخيهم يوسف عليه السلام بعد ثُبوت نبوّته حين قالوا له[٧]: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾. فنبزوه بالسَّرقة حتى ألجَؤوه أن يقول لهم[٨]: ﴿أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً﴾.

أَوَهذه ـ رحمك الله ـ أخلاقُ الأنبياء عليهم السلام؟ أَوَيسوغ أيضاً أن يكذبَ النبيَّ عشرةُ أنبياء حتّى يقول لهم أبوهم النّبِيُّ بعدَما جاؤوه عشاءً يبكون وقالوا إنّ يوسف أكَلَه الذّئب[٩]: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيْلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى ما تَصِفُونَ﴾ وهذا هو فحوى التّكذيب.

فهذه خمسُ كبائر، أربعة منها فعلوها على القطع والخامسة الّتي هي بيع الحُرّ مختلفٌ فيها فإنّ الله تعالى يقول[١٠]: ﴿شَرَوْهُ﴾ فيحتمل أن تعود

(٥) المُنّة: القوّة.
(٦) أي على قول من قال إن المشترين (السيّارة) كانوا من الكفّار.
(٧) يوسف: ١٢/٧٧
(٨) يوسف: ١٢/٧٧
(٩) يوسف: ١٢/١٨
(١٠) يوسف: ١٢/٢٠

الهـاء عليهـم أو على السّيارة، وهـو الأَظْهَـر.

وأمـا الصَّغائر فخـمس عَشْرَة على أنّ كُلّ ذنب عُصِي الله تعـالى به فهـو كـبيرة. لكنْ يتأكّـدُ الوعيدُ علىٰ بعضها بما وَرَد من الظَّواهـر فيتصوّر فيها الصِّغر والكـبر، كما تقدَّم.

فمن قـال إنّهـم كـانُوا أَنـبياء عندما واقَعُوا هذه الكبـائر فيلـزم أن يجـوّزَ وقوعهـا على مَـنْ سِواهـم من الأَنـبياء عليهم السّلام لِتَسَاويهـم فيما يجـبُ لهـم من العِصمـة كما سبق، والجـائزُ كالواقِع، مع خَرق الإجـماع الواجـب الاتّـباع في عصمتهـم من الكبَـائر والعياذُ بالله من شُؤم الجَهـل وأَهـله!

فـإن قـيل: ولعلّ هـذه الأفعـال كـانت في شَريعتهم غَيْرَ كـبائر، قـلنا: إنّمـا وقع الإجـماع على أَنّ كـبائر شريعتنـا لا تَجُـوز علَيهـم.

والخـمسة التي أَخـبر تعـالى عنهـم بهـا كبائرُ في شريعتنـا وأَمّا شرائعهـم فما نعـلم كبائرهـا من صَغائرِهـا، ولا كُلِّفنـا ذلك.

فصل

ثمّ يُطْلَبُ هـذا الغمر البـليد(١١) بثبـوت نُبُوَّتهـم من أينَ عَلِمَهـا؟ إنّ النّبـوة لا تثـبت بالعُقـول ولا بِخَبَرِ الواحـد الـذي لا يحـصل به العـلم، ولا يـثبت أيـضاً بقرينـة الحـال ولا تحـميل الأَعـمال كما زعـمت المُعتـزلة وغُـلاة الباطنـية القائـلين باكتـساب النُّبوة. فـإنَّ غير النَّـبي من الأَوليـاء قد يصحّ منه ذلك، وقـد يـصدر من أَهـل الرِّيـاء من الأَعـمال والقَرَائِن مثلُ ذلك(١٢).

---

(١١) الغَمْر: الـذي لم يجـرّب الأمـور.

(١٢) ذكر القشيـريّ في ترجـمة أبي يـزيد البسطاميّ قـولَهُ: «لو نـظرتم إلى رجـل أُعطيَ من الكـرامات حـتى يرتـقي في الهـواء فلا تغترّوا به حـتى تنظروا كـيف تجـدونه عند الأمـر والنهـي وحِفْظِ الحـدود وأداء الشّريعة» الرسـالة القشريـة: ٣٩٧ بتحـقيق معروف زريق وعلي بلطه جي. =

فإنْ قيل: فإذا لم تصحّ النُّبُوّة من هذه الوُجوه فمن أَينَ تصحّ؟

قلنا: تصحّ من وجهين: أحدهما أن يأتي النبي في زمانٍ تصحُّ فيه النبوّة فيَدّعي النُّبوة ويتحدّى الناس بالمُعجزة فيَفْعلها الله له على وَفْق دعواه.

أو يَنُصّ على نُبوّته نبيٌّ آخَرُ نَصّاً مُتَواتراً لا يحتمل التّأويل، كما نص الله تعالى في مُحكم كتابه على الستّة والعشرين الذين أوّلُهم آدم وآخرهم محمّد عليهم الصّلاة والسّلام، فهؤلاء هُم الأنبياء الّذين من أنكر نُبوّة واحدٍ منهم أو قَدح فيها قدحاً يُخل بشرطٍ من شُروط نُبوّتهم فهو كافرٌ، حَلالُ الدَّم والمال مُخَلَّدٌ في نار جَهنم بالإجماع المُتَواتر، فهؤلاء هُم الأنبياء حَقّاً ومن أَثبتَ نبوّةَ غيرهم على التّعيين فعَليه الدَّليل، مع أَنّا نعلمُ أنَّ ثَمَّ أنبياء للهِ أُخَر جَاءَ بهمُ القُرآن في قوله تعالى[١٣]: ﴿مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ لكنْ لم يقع التّنصيص في الكتابِ إلّا على نُبوّة عددِ مَنْ ذكرناه. فأمّا من ذُكِرَ مِنْهُم في أَخبارِ الآحاد فَمَظنُون.

فصل

فإن قيل: ولعلّ نُبوتهم تثبتُ من الكتاب في قوله تعالى حين عدّد الأنبياء عليهم السّلام قال[١٤]: ﴿وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ﴾.

والأَسباط إخوةُ يوسف وَاحِدُهم سِبْط.

قُلنا: ليس كما قلت؛ فإنّ الأَسباط في بني يعقوب كالقَبائل في بني

= (١٢) وانظر كتاب الفصل في الملل والأهواء والنّحل (٣: ١١٩) في تسفيهه القول باكتساب النبوّة وزَعْمِ مَنْ زَعمَمَ أنّ مَنْ بَلَغَ الغاية من الصّلاح وطهارة النفس أدركَهَا.

(١٣) غافر: ٧٨/٤٠

(١٤) البقرة: ١٣٦/٢، وآل عمران: ٨٤/٣، والنساء: ١٦٣/٤

إسماعيل. وَاحِدُهم: سِبط. وهُم اثْنَا عَشَرَ سِبطاً لاثني عَشَر وَلداً ليعقوب عليهم السَّلام، وإنَّما سمّوا هؤلاء أسباطاً، وهؤلاء قبائل ليفصل بين ولد إسماعيل وولد يعقوب تسميةً. هكذا نصّ عليه أهل اللغة[١٥].

فإن قال قائل: فما معنى دُخولهم في العَدد مع الأنبياء وليسوا بأنبياء؟.

والجواب: أنّ القُرآن مقصودٌ بالإيجاز الذي هو مخُّ البلاغة، وكانت النبوّة تترى في بني إسرائيل وكان أثلهم من أولاد يعقوب وهو إسرائيل. فلمّا عدّد الله تعالى مَن كان قبل من الأنبياء على التّفصيل أوجز فقال: «والأسباط» يعني أنبياء الأسباط على حذف المُضاف وإقامة المُضاف إليه مقامه. ثم خصص بعد ذلك عُظَماءهم بالذِّكر فقال[١٦]: ﴿وَعِيْسَى وأيُّوب ويُونُس وهارُونَ وسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً﴾ فبدأ بالتّفصيل وختم بالتّفصيل فتضمّن الطّرفان الواسطة. وصَحّ التّشريف لمن خصّص بالذكر في الآحاد.

وهٰذا التّخصيص ينظر لقوله تعالى[١٧]: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوّاً للهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيْلَ ومِيْكَالِ﴾ وهما من الملائكة، وقال تعالى[١٨]: ﴿فِيْهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ وهما من الفاكهة.

وكذلك ذكر معظم الأصناف التي كانت النبوّة تترىٰ فيهم ثمّ خصص عُظَماءهم بالذِّكر تشريفاً لهم صلوات الله عليهم أجمعين. ومصداق هذا التفسير أنّ ذِكر الأسباط إنّما وُضع تسميةً عِوَضاً من القَبائل كما تقدّم؛ فلو كانوا كلّهم أنبياء كما زعم الجَهَلةُ لكان كلّ من انتْسَل من

(١٥) انظر اللسان (سبط).
(١٦) النساء: ١٦٣/٤
(١٧) البقرة: ٩٨/٢
(١٨) الرّحمن: ٦٨/٥٥

بني يعقوب عليه السَّلام نبيّاً، وقد قال تعالى(١٩): ﴿وَقَطَّعْنَاهُم فِي الأَرْضِ أُمَماً مِنْهُم الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُوْنَ ذٰلِكَ﴾ وقال تعالى(٢٠): ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِما مُحْسِنٌ وظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِيْنٌ﴾ وقال(٢١): ﴿وَقَطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أُمَماً﴾ فَسَمّاهم أسباطاً وأمماً، ولم يسمّهم أولاداً ولا أبناء.

فإن قيل: فقد جاء عن النبيِّ صلّى الله عليه وسلم أنّه قال(٢٢): «الحسين سبطٌ من الأسباط»، فمَعناه أنه يقوم في العبادة، والقيام بحقّ الله تعالى مقام سبطٍ كما قال تعالى(٢٣): ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيْمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتَاً للهِ﴾ وقال عليه السَّلام في قس(٢٤): «إِنِّي لأَرْجُو أن يُحْشر أُمَّةً وحده» هكذا حكاه الهروي في كتاب الغَريبين.

فإن قيل: ولعلّهم سُمُّوا أسباطاً ـ وهم أولادٌ ـ تجوّزاً واتّساعاً كما سمّى النبي صلى الله عليه وسلم: الحسينَ سِبطاً حيث قال: «الحُسَين سِبط من الأسباط» وهو وَلَد.

قلنا: هٰذا التجوّز إنما صَحّ في الحُسَين رضي الله عنه لسبقِ المعرفة بِبُنوّته من وجه آخر، فلو أخبر تعالى أن يَهُوذا سبطٌ من الأسباط ثم عدّده في جملة الأنبياء بلفظ السِّبط لصحّت نبوّته، وهذا لم يقع فلا حُجّة للخصم في هذه القَولة، ولو صح لما صحّت نُبُوْته إلاّ بعد التّوبة والإنابة واشتراط العصمة في حال الوهلات كما زعم الخصم.

---

(١٩) الأعراف: ١٦٨/٧

(٢٠) الصَّافات: ١١٣/٣٧

(٢١) الأعراف: ١٦٠/٧

(٢٢) الحديث في النهاية في غريب الحديث (٢: ٣٣٤).

(٢٣) النحل: ١٢٠/١٦

(٢٤) جاء في الأغاني (١٥: ١٩٢) في ترجمة قسّ بن ساعدة أنه: «أوّل مَنْ قال في كلامه: أمّا بعد، وأوّل مَن اتّكأ عند خطبته على سيف أو عصا، وأدركه رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل النبوّة، ورآه بعكاظ فكان يَأْثِرُ عنه كلاماً سَمِعَهُ منه، وسئل عنه فقال: يُحْشَرُ أمّةً وَحْدَهُ».

وأمّا غير هؤلاء من أهلِ النَّظر فتوهّموا نُبوّتهم من قوله تعالى مخبراً عن يعقوب عليه السّلام حيث قال[٢٥]: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كما أَتَمَّها عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وإسْحٰق﴾.

وهو لم يمتّ إلى قريبٍ في اللّسان لأنَّ الآل أقرب في اللّسان للبُنُوّة من الأسباط لكن «الآل» تحتملُ البَنِين وتحتمل التَّبع[٢٦]؛ قال تعالى[٢٧]: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العَذَابِ﴾ أي تبَعه. وفي السُّنَّة[٢٨]: «اللَّهُمّ صلّ على مُحمّدٍ وعلى آله وأزواجه وذُرِّيته» فذكر الآلَ ثم ذكر الذُّريةِ. فلو كان الآل من الذريّة لم يصحّ العطف.

فإن قيل: ولعلّ ذِكر الذرية بعد ذكر الآل تخصيص التشريف كما قال تعالى[٢٩]: ﴿وَمَلائِكَتِهِ ورُسُلِه وجَبْرِيلَ﴾.

قلنا: إذا بقيت «لعل» فقد تطرّق الاحتمال واطّرد الإشكال. والنُّبوّة لا تَثْبُت بالاحتمال. ويُحتمل أن يكون التّمام على الآل بما دون النُّبوة من الولاية والصِّدقيّة، وإذا دخلت هٰذه الاحتمالات لم يصحّ القطع على نُبوّتهم في هذه الآية. ومع تسليم هذه التقديرات جدَلاً فلا تصحّ نبوتهم عند مُوَاقعة الأفعال التي ذكر تعالى عنهم أصلاً؛ فإنه كان يؤدّي إلى أن يجوزُ على أنبياء الله عَزّ وجلّ كلّ ما فَعلوه لصحّة التّساوي الّذي قدَّمْناه. فهذا ـ رحمكم الله ـ هو الحقّ الذي يُرغب فيه ولا يُرغب عنه.

وبعد هذا التتبّع فلا يبقى لقائلٍ مُسْتَرْوَحٌ إلى ثُبوت بُنوتهم إلا من

---

(٢٥) يوسف: ٦/١٢
(٢٦) اللسان (أول).
(٢٦) غافر: ٤٦/٤٠
(٢٨) في صحيح مسلم (١: ٣٠٦)
(٢٩) البقرة: ٩٨/٢

هٰـذه الوُجـوه المتقدّمـة، وهـي مظنونـةٌ ولا سـبيل إلى القـطع في واحـد منها. فالله الله أيُّهـا المُسترشـد المُحتـاط على دِينـه إن لم تـكن من أهـل النّـظر القويم على الصّـراط المُسـتقيم، فما كلُّ سوداء تَمْرَة ولا كلُّ بيـضاء شحـمة(٣٠)!

واجتهـد فيمـن تأخـذ عنه دينـك، وجـنّب الجُهّـال مَرّة، وجـنّب وُعّاظنـا ومُـريدينا في هٰـذا الزمـان المنكـوب المنكُوس ألف ألف مـرة! فـإنهـم أضرُّ على دينـك من الأفـاعي الصُّفر (٣١)، لا سيما في هـذا العُوَيـلم(٣٢) المُتهـافت الدَّعِيّ في الإرادة بالنوافج(٣٣) ومُغالطة البُلْه الأغمـار(٣٤) من النِّساء وفحـول النّسَـاء فإنّهـم انتهـكوا حُرمـة الأنـبياء عليهـم السَّلام، حـتى تشبّهـوا بهم وربّمـا أرْبَوا(٣٥) عليهـم بادّعـاء الالهـيّة بالفَيْضِ والإشـراق(٣٦) الّذي ادّعتْهُ القَرامـطة حـتى يلقى أحـدُهـم امرأةً أو غلامـاً فيقـول له: «رأيت الله فيـك»! إلى غير ذلك من أمورٍ هـي أشنعُ وأبشع من أن تُذكـر أو تسخـم(٣٧) بهـا الأوراق.

والّذي ورّط هؤلاء الأرجـاس(٣٨) في هٰـذه الرَّذائل عـدمُ الزَّاجـر وقلّة الغيـرة في الدّين. فانظُر عَمّن تأخـذُ دينك وكـيف تأخذُه.وقد نصحـتك والسَّلام.

---

(٣٠) المثـل في مجـمع الأمثـال (٢: ٢٨١)
(٣١) ضـرب الأفاعي الصُّفر مثـلاً لشـدّة السميّة.
(٣٢) العويلم تصـغير العَالِم.
(٣٣) النّوافج: مُؤخّـرات الضلوع.
(٣٤) الأغمـار: جـمع الغَمْرِ، وهـو الـذي لم يجـرّب الأمـور.
(٣٥) أربَوْا عليهـم: زادوا.
(٣٦) انظر المِلَل والنحل للشهرستاني، على هامش الفصل في الملل والأهواء والنّحل لابن حزم (٢ : ٣٠)
(٣٧) تسخّـم: تسوّد، من السخام، وهـو الهباب الأسود المتشكـل من الدّخـان (غاز الفحـم..).
وفي الأصـل: تسخـم به، وأصلحـت العبارة بما يناسب السياق. والأوراق مؤنـثة.
(٣٨) الأرجـاس: القَذِرُون؛ والرِّجْسُ: القَذَرُ.

وقد نَجَز التّنبيه على التَّنزيه بمعونة الله تعالى.

ونسأل الله الذي فلق الحبَّة وبرأ النَّسمة أن يعفو عنّا فيما وقع فيه من الخَطأ والخَطلِ ؛ بِمَنّه ولُطفه والختم بالصَّلاة والتسليم على الأَنبياء عُموماً وعلى نبيّنا خُصوصاً وعلى آله وآلهم وسلّم تسليماً.

مجموع نكت من بعض ما خُصّ
به نبيّنا عليه السلام

مجموع نكت من بعض ما خص به نبينا عليه السلام

من الكرامات ليلة الإسراء عند لقاء الكليم عليه السّلام وما كان بينهما من المراجعة والمُحاورة في أمر الصّلاة[1]. ثم نُنَبِّهُ بعد ذلك على فضل هٰذه الطّاعة العظيمة وتعدّد أعمالها على التفصيل فروضاً وسُنناً وأُجوراً لتتأكّد على المصلّين الرّغبة في أدائها ويزدجر التّاركون لها لما فاتهم من خيْرها، ولما يتوقّعون من الوعيد على تركها؛ إن شاء الله تعالى.

فإن [قال] قائل: لِمَ اختصّ نبيُّنا عليه السَّلام موسٰى عليه السّلام بخبر

(١) جاء في حديث الإسراء: «. . . فأوحىٰ الله إليَّ ما أوحىٰ؛ ففرض عليَّ خمسين صلاةً في كلّ يوم وليلة. فنَزَلْتُ إلى مُوسىٰ صلى الله عليه وسلم فقال: ما فَرَضَ ربُّكَ على أمّتِك؟ قلت: خمسين صلاةً. قال: ارجع إلى ربِّكَ، فاسأله التّخفيف، فإن أُمَّتَكَ لا يُطيقون ذلك، فإنّي قَدْ بَلَوْتُ بني إسرائيل وخَبَرْتُهُمْ، قال، فَرَجِعْتُ إلى رَبّي فقلتُ: يا رَبِّ! خَفِّفْ على أُمَّتِي. فحطَّ عنّي خمساً. فرجعت إلى موسى فقلت: حطّ عني خمساً. قال: إنّ أُمَّتَكَ لا يُطيقونَ ذلك فارجع إلى ربّك فاسأله التّخفيف. قال: فلم أَزَل أرجع بين ربّي تبارك وتعالى وبين موسىٰ عليه السَّلام حتى قال: يا محمّد: إنَّهُنَّ خَمْسُ صَلَواتٍ كُلَّ يَومٍ وليلةٍ، لكلِّ صلاةٍ عَشْرٌ، فذلكَ خَمسون صلاةً. ومَنْ هَمَّ بحَسَنَةٍ فلم يعملها كُتِبَتْ له حَسَنَةً، فإنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْراً. ومن هَمّ بسيّئة فلم يعملها لم تُكْتَبْ شيئاً، فإن عَمِلَهَا كُتِبَتْ سيِّئَةً واحدةً. قال: فنَزَلْتُ حتّى انتهَيْتُ إلى موسى صلى الله عليه وسلم فأخبرتُهُ فقال: ارجع إلى ربّك فاسأله التّخفيف؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فقلتُ: قد رَجَعْتُ إلى ربّي حتّى استحيَيْتُ منه» صحيح مسلم (١٤٦/١) وانظر الحديث بتمامه ثمّة.

الصّلاة وتفاوَضَ معه فيها وهو في السّادسة وقد مرّ بإبراهيم عليه السّلام في السّابعة ولم يُخبره بذلك مع أنه أبٌ، ومع قوله تعالى(٢) ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيْمَ﴾ فقد شاركه في المِلّة والأبوة، فَلِمَ أَخَذَ في القصّة مع موسى عليه السّلام ولم يأخذ فيها مع إبراهيم عليه السَّلام مع هذه المَرّات. وتصُّور المسألة مبنيٌّ على ما جاء من أَنّ موسى عليه السلام في السّادسة وإبراهيم عليه السّلام في السّابعة. ومَنْ صح عنده أَنّ موسى في السّابعة وإبراهيم عليه السّلام في السّادسة فلا غَرْوَ أن يتفاوض مع أوّل من لقي من الأَنبياء؛ وإن صحّ أنّ موسى عليه السَّلام في السّادسة وإبراهيم عليه السّلام في السّابعة كما تقدم فلا بدّ من ذِكر اختصاصه معه في المفاوضة وذٰلك يحتمل خمسة أَوجه:

الأوّل: منها أَن يكون موسٰى عليه السّلام سأله إذ مرّ به، وإبراهيم عليه السّلام لم يسأله فلمّا لم يسأله لم يُخبره.

الثاني: أنه اختصّ موسى بالمُفاوضة لأَنه قد حنّكته معالجة بني إسرائيل قبله، وجرّبهم فلم يَفُوا بما كُلِّفوا، وإبراهيم عليه السّلام بُعِث بالموعظة الحَسنة، فلم يُقْبَل في الإيمان، فلم تقع طاعة، فلم تُتَصَوَّر تجربة؛ وإن كان قِبَلَهُ أفذاذٌ من الناس فالنّادر لا يحكم به. ويَعْضُدُ هذا التفسيرَ قولُ موسى عليه السّلام له: «ارْجِعْ إلى ربِّك فاسأله أن يخفّف عن أُمتك فإنّي قد عالجت بني إسرائيل قبلك» الحديث فقصد عليه السّلام موسى لأَنّه كان مُجَرِّباً.

الثالث: أن إبراهيم عليه السّلام أبٌ وموسى أخٌ، وكان في معلوم الله تعالى أَنْ يُسْعِفَ موسى عليه السّلام من وَجْهٍ ولا يُسعفه من وَجْهٍ، حيث قالَ له موسى عليه السلام بعد فرض الخمسة: «ارجعْ إلى ربّك فقال: إني أَستحيي» فيسوغ هذا في مراجعة الأَخ ولا يسوُغ في مراجعة الأَب.

الرّابع: أن موسى عليه السلام كان له حظٌّ في أُجور هذه الأُمّة في

(٢) سُورة الحجّ: ٧٨/٢٢

قوله عليه السلام لمّا أُخْبِرَ بتضعيف أجورِ أمّة أحمد وفضلهم على جميع الأمم: «قال ربي اجعلني من أمة أحمد»(٣).

قاله يفاوضه في ذلك ليحلب حلباً له شطره، قال تعالى لنبينا عليه السلام(٤): ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلىٰ مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ قال المفسّرون(٥): يعني إذْ قضينا في فضلك وفضل أمّتك حتى قال موسى: «رَبِّ اجعلني من أُمة أحمد».

الخامس: أن يكون قصده لموسى للشّبهة التي كانت بينه وبين نبيّنا عليه السّلام في البعث بالسّيف والتّنجيم في العُقوبة، وكانت خصوصاً في بني إسرائيل بامتداد الأيام وكثرة السّامعين المطيعين له، وكثرة التَّبَع، فإنّه ما بَعْدَ تَبَعِ نَبِيِّنَا عليه السّلام في الآخرة مَنْ هو أكثرُ من تبع موسى عليه السّلام كما جاء في الخَبَر(٦). ومصحح الشبهية في هذه الوجوه قوله تعالى(٧): ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولاً ﴾ فاختصّه بالشّبهيّة في الإرسال دون غيره.

فهذه أوجه يتصور فيها التّخصيص بالانحياش والمفاوضة إلى موسى عليه السّلام.

---

(٣) حديث.

(٤) سورة القصص: ٢٨/٤٤

(٥) انظر القرطبيّ (١٣/٢٩١)

(٦) في مسند الإمام أحمد (١/٤٢٠) من حديث عبد الله بن مسعود أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «عُرِضَت عليّ الأنبياء بأُمَمِهَا وأتباعها من أممها، فجعل النبيّ يمرّ ومعه الثلاثة من أمّته، والنبيّ معه العصابة من أمّته، والنبيّ معه النّفر من أمّته، والنبي معه الرجل من أمته، والنبيّ ما معه أحد، حتى مرّ عليّ موسى بن عمران صلى الله عليه وسلم في كبكبة من بني إسرائيل فلمّا رأيتهم أعجبوني، قلت: يا رب مَنْ هؤلاء، فقال: هذا أخوك موسى بن عمران ومن معه من بني إسرائيل، قلت: يا ربّ فأين أمتي؟ قال: انظر عن يمينك، فإذا الظِّرَاب ظِرَاب مكة قد سُدَّ بوُجوه الرجال. قلت: مَنْ هؤلاء يا رب، فقال: أمّتك، قلتُ: رَضيتُ يا رَبّ...» إلى آخر الحديث.

(٧) سورة المزّمّل: ٧٣/١٥

وأما **فوائد فرض الصلاة في ذلك المقام** فلنذكر منها ما منَّ الله تعالى به على جهة الاختصار، وهي تنقسم أربعةَ أقسام:

قسم في فضلها على سائر العبادات.

وقسم في فضل نبيّنا عليه السّلام على سائر الأنبياء وإظهار إكرامه في ذلك المقام عند الملأ الأعلى.

وقسم في اهتمامه بأمّته واحتياطه عليهم في طَلب التخفيف عنهم.

وقسم في لُطْفِ الله تعالى بهم حيث حَطَّ عنهم كُلْفَةَ خمسٍ وأربعين وأبقى لهم أَجْرَ الخمسين.

فأَمّا فضلُها على سائر العبادات

أولاً: لكونها فُرِضَتْ في المقام الأسنى على بساط العزّة بحضرة الملأ الأعلى، وفي هذا تنويهٌ بهذه الطاعة وتشريف لها على سائر العبادات، حتى إنّ الله تعالى يسأل الحَفَظَةَ في كلِّ يومٍ وليلة[٨]: كيف تركتم عبادي؟ فلا يذكرون له من أعمال البِرِّ في التَّرك والإتيان سوى الصّلاة وذلك لما سبق لها من العلم بفضلها وتعظيمها حين فرضت في ذلك المقام.

وأمّا من جهة التّعليل فإنّها عبادة تشمل الجَسد ظاهراً وباطناً، وتجمع عبادات الملائكة كما شَهِدَ الخبر[٩] أَنّ منهم قُوَّاماً، ومنهم رُكَّعٌ ومنهم سُجَّدٌ، ومنهم ذاكرون مُسَبِّحونَ حَامِدون؛ فهذه الأحوال كلُّها قد جمعتها الصلاة

(٨) في المُوَطَّأ (١/١٧٠) من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يتعاقَبُون فيكم: ملائكةٌ بالليل وملائكةٌ بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر، وصلاة العصر، ثمّ يَعْرُجُ الّذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلّون، وأتيناهم وهم يصلّون».

(٩) ينظر تفسير سورة (الجنّ) في كتب التفسير، مثل الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٢/١٩ وما بعدها).

حتى [لا] يفوت ابنَ آدم عملٌ من أعمـال الملائكة، مع مـا جـاء في الأخبار من الحض عليها وتعظيم الوعـد والوعيـد على فعلها وتركهـا في كتاب الله تعالى وسُنّة رسوله.

وأيضاً فإنّ فُروض الصّلاة أكثر من سـائر الأَعمال كما سيأتي إن شـاء الله تعالى عنـد تعـداد فُروضها، وقد قـال عليه السّلام(٩): «إن الله يقول: ما تقرب إليّ عَبدي بمثل أَداء ما افترضت عليه». فَمَا كانت الطّاعـة أكثر فروضاً كـانت أفضل.

وأما ظهور نبينا عليه السّلام وتقدّمه في ذلك المحلّ فلا تحويه الرُّقوم، ولا تحيط به ثاقبات الفهوم. لكنّا نقتصر منه على بعض ما تضمّنه إكرام الله تعالى له في أمر الصّلاة؛ والله المستعان. وَهُوَ يَنقسم أَربعة(١٠) عشر قسماً:

أَحدها: أنّه كان وافداً على الله تعـالى، وضيفُ الكريم كريـم، فأَتحفه بهذه التُّحفة التي هي أُمّ الطاعات ورأس المعاملات كمـا تقدم.

الثاني: أَنْ فَرضَها خمسين وفي مَعْلُومِهِ تعالى نَسْخُ تِسْعَةِ أعشارِها ليظهر جاهه عند الملأ الأَعلى في السُّؤال والإجابة؛ فلو فَرَضَ الخمسَةَ في أَوَّلَ وَهْلة لَمْ يظهر ذلك الجاهُ، كما لو قَدَّرْتَ كريماً وَفَدَ على مَلِكٍ عظيم فأَحْسَن له كما ينبغي لسعة مَمْلَكَتِه، ثمّ أمره أن يُلزِمَ قومَهُ خمسين وظيفةً، ثمّ قبل شفاعَتَهُ في أكثرها، أَترى كان يخفى [على] وُزَرَاءِ ذلك الملك وحاشيته مكانُ هذا الوافدِ عليه؟

الثالث: أنّه لم يَحُطَّها عنه جُملة بل نَجَّمَهَا عليه تِسْعَ مَرَّاتٍ، وذلك ليؤكّد

---

(٩) في مسند الإمـام أحـمد (٢٥٦/٦) من حـديث عائشـة رضي الله عنهـا قـالت، قـال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم: «قـال الله عزّ وجـلّ: مَنْ أذلّ لي وليّاً فقد استحـلّ محـاربتي، وما تقرّب إليّ عبـدي بمثـلِ أداء الفـرائض...».

(١٠) في الأصـل: «أَحَدَ عَشَر...».

إكرامَهُ عند الملائكة، حتى يعلموا بَسْطَهُ له، وبايَنَهُ في تكرار الإسعاف مع تكرار السّؤال.

الرابع: أنه لم يُحْظِهِ في هذا التّكرار إلا بعد أن فارق البساطَ، وانصرف ثم رجع، وذلك زيادةً في الإكرام، وذلك أنّ الوفود إذا فارقت بساطَ الملوك بعد قضاء الحوائج لا ينبغي لها أن ترجع في طلب حوائج أُخَرَ، فَلَئِنْ رجع وافدٌ منهم في طلب حاجة أُخرى، فهو أَدَلُّ دليلٍ على تأكيد كرامةِ هذا الراجح في طلب الحاجة الأُخرى. فأَعْجِبْ بها كرامةً إذ رجع تسعَ مَرَّاتٍ فأسعفه المَلِكُ في كلِّها. وأَعْجَبُ من ذلك أنّه تعالى لم يسعفه تسع مَرَّات [إلاَّ] في جِنْسٍ واحد، وأنّه قد تَصْلُحُ المراجعة في المختلفات، فَأَكْرِمْ بها إذ كانت في الجنس الواحد.

الخامس: أنه تعالى لمّا علم أنّه لا يُسْعِفُهُ في حَطِّ شَيْءٍ من الخمسة أَلقى عليه الحياءَ، فقال له موسى: ارجِعْ إلى ربّك. فقال: إني أستحيي، فلو رجع ولم يُسْعِفْهُ لانْخَرَمَ نظامُ الجاه. فبما قدّمناه من الكرامة وفي ذكره الحياءَ أيضاً لموسى عليه السلام أَدَبٌ معه، ليعلّمه أنَّ الرّأي ما رآه موسى عليه السّلام لولا أنّه منعه الحياء.

نوَّرَ الله صدورنا وعقولنا وأعانا على تعظيم الأكابر وإبراز بعض مناقبهم السَّنِية.

السادس: وهو أَنْ حَطَّ عنه وعن أمته معظم الكُلْفَةِ، وأبقى لهم أَجْرَ العدد كما سبق حين قال: «هي خمس وهي خمسون. ما يبدل القول لدي» يعني خمساً في العدد وخمسين في الأجور.

السابع: أنّه بشّره أنّ سائر أعمال البرّ المفروض والمنذُور تجري على حكم الصلاة وتضعيف الأجور من قوله: «ومَنْ همَّ بحسنة فعملها كُتبت عشراً».

الثامن: بَشَّرَهُ أنه يضاعفها إلى سبع مئةٍ ويزيد.

التاسع: أنّه بشّره أَنَّ مَنْ همَّ بحسنة ولم يعملها كُتِبَتْ حسنةً واحدة.

العاشر: أنّه بشّره أنّ مَنْ همّ بسيئة وعملها كتبت سيّئة واحدة.

الحادي عشر: أنّه بشره أنَّ من همَّ بسيِّئة ولم يعملها لم تكتب شيئاً.

الثاني عشر: وهو ما اختص به من السُّرعة في قطع المسافة في تلك اللّيلة، وذلك أنّه أُسْرِيَ به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثمّ صُعِدَ به إلى سِدْرَةِ المنتهى، ثم رجع إلى السّماء السادسة، وعاد إلى سدرة المُنتهى في مناجاة الكليم عليه السلام تِسْعَ مرَّاتٍ، ثم إلى منزله الذي خَرج منه أَوَّلَ اللّيل قبل الفجر، وهذه المسافات كيف ما قُدِّرَتْ أبعادُها فهو أمر لا يُحَدُّ وسُرْعَةُ حَرَكَاتٍ لاَ تُتَخَيَّلُ، لا سيّما مع شهادة الأدلّة العقليّة أن الجزءَ إنما يَقْطَعُ بالحركات جُزءاً بعد جزء بحركةٍ بعد حركة وأن الطَّفْرَة مُحَال.

وأمّا ما ظهر من فضل أُمّته، فمن أَجله وبسببه وحُسْنِ وَسَاطته، فلا نحتاج أن [نُرْخِيَ] عنان القول فيه، فثبت بهذا أنّ سُرعة الحركات وبُطأها إنّما ترجع لكثرة اللَّبْثِ في الأحيان لا لنفس الحركات فإنّ الحركة إنما يُقْطَعُ بها جزء بعد جزء بشهادة العقل.

الثالث عشر: وذلك أنه احتاط على أُمّته وسأل عند المناجاة الرِّفْقَ بهم والتّخفيفَ عنهم واختار قضاءَ حوائجهم ولم يختر لنفسه ولا سأل لها، وهذه غاية الفضل الذي لا يُبارَى فيه، فإنَّ الوافد على المُلوك إنما يقدّم سؤالَ حاجته، وهو عليه السّلام قدّم سؤال حاجة رَعِيَّته ولم يسأل لنفسه، وينظر لذلك ما جاء عنه عليه السّلام أنه قال(١١): «لكل نبيّ دعوة واختبأت دعوتي شفاعةً لأمتي يوم القيامة».

(١١) في صحيح مسلم (١/١٨٨) من حديث أبي هريرة أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لكلّ نبيّ دعوةٌ يدعوها. فأريد أن أَخْتَبِىء دعوتي شفاعةً لأمّتي يومَ القيامة».

ويروى: «ادّخرت دعـوتي شفاعتي لأُمتي يوم القيامة».

فصحّ فضلُ أُمّتـه بسببه، فإنّـه ذَكَرَهُمْ ونَوَّهَ بهم واختار لهم وألحّ في السؤال علىٰ الله تعالى حتى قُضيت حوائجهـم، فأيُّ مِنَّةٍ لِنَبيٍّ كمِنَّتِهِ علينا؟ فصار فضلُهـم تَبَعاً لفضله، وكرامَتُهُمْ تَبعاً لكرامته، فجـزاه الله عنّا خير مـا جزى نبيّاً عن أُمته.

ومع ما قدّمنا من الفَوائد ـ **وهي الرّابعة عشرة** ثلاثُ فوائد عظيمةِ المَوْقِعِ في مسائـل الاعتقاد عقلاً وشـرعاً، وقد كثر فيها مكابرة أهل البـدع ومثابرتهم:

الأولى: إثبات جواز الأمر من الله تعالى بما لا يريد وقوعَـه، فإنّه تعالى أمـر بالخمسين ولم يرد وقوعها من المكلّفين.

الثانية: وهي بُطْلَانُ ادّعائهـم استحالَةَ الأمـر من الآمـر بما لا يريد وقوعـه، وفي هٰذه القصة إثبات ما أحالوه.

الثالثة: وهي جـواز نسخ الحكـم قبل وقـوع العمل به، فإنّهم يأبَوْن ذٰلك، فصح أنّه أمـر بالخمسين ونسخ منها خمسة وأربعين، فإن قـالوا إنّه وقـع بعضه وهو اكتساب النبيّ عليه السّلام العِلْمَ بها والإرادة لفعلها، وكلاهما عبـادة؛ فالجـواب عنه: أن المـأمور بها إنّما هي الصّلـوات المنسوخة التي هـي حركات وأصوات ونيّات وعـزم يتجدّد عند افتتاحها، وهذه هي الصّلاة المعلومة في الشّرع، ولا تسمّى النية والعلم صـلاة على الانفراد.

فهٰذا رحمـك الله بعض ما تيسـر من التفقّـه في بعض حديث الإسراء. فإن مَنَّ الله تعـالى وسـاعدت الحياة فعسٰى نَتَدَبَّرُ سـائر الحديث بما يفتح الله وهو حسبنا ونعم الوكيـل.

فصل

وها أنا أنبه بعد هذا علىٰ ما شرطناه في تقديم هذه الطاعة العُظمى علىٰ سائر المعاملات، وتعداد أعمالها على التفصيل، ظاهراً وباطناً، فروضاً وسنناً وأجوراً.

فأما التّنبيه علىٰ فضلها والترغيب فيها، لما جَمَعَتْ من إعداد الطاعات وتضعيف الأجور عليها، وتحريض المكلّف على آدابها فاعلم ـ رحمك الله ـ أنّ جميع أعمال الطّاعات سوىٰ الإيمان المُصَحِّح لها علىٰ ضربين: ظاهر وباطن.

فالظاهر على ضربين: أصوات وأكوان.

والباطن على ضربين: علوم ونيّات.

والقدرة الحادثة تتعلق بجميع هذه الكائنات، ثم جميعها تنقسم في الشرع قسمين: فُروض ومندوبات. وكلها عبادات ومعاملات، لكنّ المفروض منهما أرفع درجات وَأَمَتُّ للقُرُبَاتِ، كما جاء عن سيد السّادات صلّى الله عليه وسلم أفضل الصلوات حيث قال[١٢]: «إن الله تعالى يقول: ما تَقَرَّب إليَّ عبدي بمثل أداء المُفْتَرَضَات».

فصل

لكن إذا نظرت إلىٰ هذه الصلاة المكتوبة وجدت أعداد فروضها وسننها يشفُّ على سائر أعداد الأعمال المشروعة. فإذا عددت صلاة شهر وجدتها زادت على طاعات العُمر فروضاً وسنناً. فأوّل الفُروض ظاهراً

---

(١٢) في مسند الإمام أحمد (٦/٢٥٦) من حديث عائشة أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال: «وقال الله عزّ وجلّ: ... وما تقرّب إليّ عبدي بمثل أداء الفرائض...» الحديث.

من سواها كَلِمَةُ الإخلاص[١٣]، وفرضها مرة في العمر، وما سوى ذلك فمندوب إليه؛ وكذلك الحج من استطاع إليه سبيلاً.

وأما فرضُ الزكاة فمرّةٌ في السّنة، لِمَنْ وجبت عليه.

وأما فرض الصَّوْم فشهر في كل سنة.

وأمّا فرض الجِهاد فإذا دَهَمك العَدُوّ، أو أَمرك إمامُ الوَقت. وهاتان الحالتان قد تقع ولا تقع.

وأما التّوبة فَتَجِبُ علىٰ من أَذنب، وهي غير معيّنة العدد.

فصار علىٰ هذا معظم العدد في المفروضات دون عدد فروض الصلوات المكتوبة.

[وأمّا] الصوم فإذا عددت عمر سبعين سنة الذي هو رأس المعترك تجد صومك فيها خمسة وخمسين شهراً، بعد إخراج سني الطفولية التي هي خمس عشرة سنة.

وإن قابلت عدد الصّلوات بأعداد أيّام الصّوم في العمر قوبلت بعده فرض صلاة يوم وليلة، وكذلك أعداد الزكاة، على ما تقدم.

فصارت كلمة الإخلاص والزّكاة والصّوم والحجّ مئة فرض واثني عشر فرضاً، فقد فَضَلَتْ أعدادُ فروضِ الصّلوات الخمس في الشّهر سائرَ أعداد المُفترضات في العمر بثمانية وثلاثين فرضاً، وهي رُبْعُ العدد المتقدّم جملةً بجملة[١٤].

(١٣*) يعني شهادة أنْ لا إله إلاّ الله وأنّ محمّداً رسول الله.

(١٤) هذه حاشية لأحد مالكي النسخة إبراهيم بن أحمد بن محمد الملاّ، وقد ترجمنا له في ذيل مقدّمة التحقيق؛ قال رحمه الله: «أقول إيضاح هذا المقام يحتاج إلى بسط كلام، وذلك أنّه قد مرّ من قبل أن رأس معترك العمر هو سبعون سنة، وأنّ الباقي من ذلك بعد إسقاط سنّ عدم التكليف خمسٌ وخمسون، وأنّ فرض الصّوم فيها كل سنة شهر يبلغ =

فصـل

وأما التّفصيل فأضعافٌ لا يَكاد يَحصرها العددُ ظاهراً وباطناً على حسب ما تقدّمت القسمة، فأمّا ظاهر اللَّفظ المفروض فهو ثلاث: أم القرآن وتكبيرة الإحرام والسّلام، على ما صح في المذهب من غير خلافِ مَنْ خالف في بعضها، على أنَّ من خالف في بعضها لم يختلف في كونها طاعة، وغَرَضُنَا إنما هو تكثير الطاعات وتضعيف الأجور عليها.

فأما عدد حروف أم القرآن بالمُضاعَفَةِ المُشَدَّدة منها وحروفِ المدّ واللِّين فمئةُ حَرْفٍ وأحد وعشرون حرفاً، اضْرِبْهَا في سبعةَ عَشَرَ الّتي هي عَدَدُ ركعات اليوم واللّيلة صار منها ألفا حرفٍ وسبعةٌ وخمسون حرفاً؛ فأَضِفْ لها عَددَ حروفِ تكبيرةِ الإحرام والسَّلام اللَّذَيْنِ هما أَحَدٌ وعشرون، بحرفين مشدَّدَيْنِ وَحَرْفَيْنِ مَمْدُودَيْنِ، صارَ الكُلُّ أَلْفَيْنِ ومِئَةً واثنين وستّين حرفاً؛ فأَضِفْ لها الأفعال المفروضة التي هي مئة فعلٍ وتِسْعَةَ عَشَرَ فعلاً صار العددُ أَلفَيْ فَرْضٍ ومئتي فرضٍ وأحداً وثمانين فرضاً؛ ضِفْ لها

= مجموعُه خمساً وخمسين فرضاً، فاجتمع من هذين الفرضين المتكررين كل سنة مئة وعشر فروض. وإذا أضفت إلى هذا المبلغ من العدد فرضَ الإخلاص الذي هو في العمر مرّة، وفرضَ الحجّ الواجب في العُمر مرّة، بلغ المجموع كما قال المصنف قدس الله روحه مئة واثني عشر فرضاً، وأمّا فَرْضُ الجهاد فإنّه قد يقع في العمر وقد لا يقع، وفرضُ التوبة فليس له عددٌ معيّن، كما صرح بكل مما ذكرناه المصنّف فيما قبل، فلهذا لم يضمّها في العدد إلى المبلغ المذكور، فهذه جملةُ العبادات المفروضة في العُمر، فإذا قوبلت بهذه الصلوات المفروضة في شهر كانت صلاة الشّهر مئة وخمسين فرضاً؛ فتفضل أعداد فروض الصلوات في الشهر حينئذ سائر أعداد المفترضات في الشهر ثمانية وثلاثين فرضاً، وهي رُبع العدد المتقدم جملة بجملة؛ فهذا توضيح إشكال هذا المقام، وكشف ما عليه من الغطاء واللّثام.

حرر ذلك، وقرّره حين المطالعة إبراهيم بن الملاّ أحمد بن الملا محمد الشّهير بابن الملاّ المحدّث الأثري الحلبي العبّاسي، لطف الله تعالى به وبأصوله وفُروعه وعفا عنهم وغفر لهم.

تحريراً في أواسط جُمادى الأولَى سنة ١٠٢٨».

فرضَ التَّوَجُّـهِ إلى القـبلة قياماً وقعوداً سبعـين مرّةً، صـارت ألفـين وثـلاث مـئة وأحـداً وخـمسين فرضاً؛ فإذا صَحَّ هـذا العددُ ضِفْ لَهُ ضِعْفَيْهِ من النِّـيَّـات عند فعلها والعـلوم بها إذ لا يصحُّ عملٌ منها إلا بنيّةٍ وعِلْمٍ، صـار منها سبعـة آلاف فـرض وثـلاث مئة وخـمسون فرضاً؛ ضِـف لها ضِعْفَهَـا في السِّنين أقـوالاً وأفعـالاً ونيـاتٍ وعـلوماً صـارت أربعةَ عَشَرَ ألفَ طاعـةٍ وسَبْعَ مـئة طاعَةٍ، تتضمّنهـا الصّلوات الخـمس في كـل يوم وليـلة.

عـلى أنَّ السُّنَنَ أكْثَـرُ عدداً، لكن قـصدنا الاختـصار بالحـذف وليتقابـل التّضعيف فيسهـل العـدد ضاعفهـا بِعَشْرِة أمثـالها من الأُجـور عليها؛ إذ قـد صحَّ وثبـت أنَّ الحسنة بِعَشْرَةِ أمثـالها(١٥)، صـارت مئـةَ ألـف حـسنة وسبعـاً وأربعـين ألـف حـسنة. ثـم إنّ هـذا العـدد الـذي نَبَّهَكَ الله عـليه في التَّضعـيف إنـما هو أُسٌّ شرعيّ في عـدد الأُجـور بمثابـة الواحـد في العـدد، فأخـبرك الله تعـالى أنـه جعـل أقـل الأجـور في التضعيف عشـرة ثـم زاد إلى سـبع مئـة، ثم زادِ إلى أن يُوَفَّىٰ الصابـرون أجـورهم بغير حـساب؛ يعني عندهم لكونهـم لا يُطيقون حَصْرَه، فـإنَّ كـلَّ ما خَلَقَ الله تعـالى يجـب أن يـكون عنده معدداً مُحَـاطاً به على التَّفـصيل كما قـال تعـالى(١٦): ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً﴾.

فصل

ولمـا استغرق العـدد في أمـر الصـلاة سـائرَ الطاعات لم نتعرّض لعـدد طاعات الطَّهـارة لحـصول المقصـود في الكثـرة، على أنّ هـذا العدد ـ على كثرتـه ـ إنّـما هـو فيما هـو في وسع البشر وأمّـا ما هـو في معـلوم الله تعـالى من

(١٥) انظر الحاشية ذات الرّقم: ١ .
(١٦) سورة الجنّ: ٢٨/٧٢

عدد الحركات والأصوات والعلوم والنِّيَّات وانتقالِ أجزاء جسم المصلِّي في الأحياز والجهات بجملة هذه الأعراض التي لا يصحّ بقاؤها، فهو عدد ينفرد الباري تعالى به دون الخلق، وكلُّ واحدٍ منها عملٌ في معلوم الله تعالى مُعَدَّد، خَلَقَهُ في المُكَلَّفِ وأضافَهُ إليه عَمَلاً وكَسْباً فقال تعالى(١٧): ﴿فَمَنْ يَعْمَل مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾ وقال تعالى(١٨): ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾، ﴿وَلَا يُظْلَمون نَقِيراً﴾(١٩) أيْ لا يُنْقَصُونَ وَلَا يُبْخَسُون وقال تعالى(٢٠): ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾. وقال(٢١): ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾. وقال تعالى(٢٢): ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ. وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾ ومجموعُ هذه الآي تدلّ على أن كلَّ عَرْضٍ عمل برأسه يقع الجزاء عليه تفصيلاً، فلا يُظَنَّ أنّ السّجدة مثلاً عمل واحد له عَشْرٌ من الأجور، بل كل عَرْضٍ فردٍ في كل جزءٍ فردٍ من الإنسان عَمَلٌ برأسه، له عشر حسنات تفضَّل بها علينا أكرم الأكرمين، ثم إذا كان هذا التضعيف يصح للفذّ، فما ظَنُّك به في حقّ المُصلّي في الجماعة، وأمّا من صلى في الحَرَم فقد غمض الجليّ وأتى الوادي فطَمّ على القَرِيّ(٢٣)! فهذا هذا ولا يهلك على الله إلاّ هالك.

فصل

فإن كان هذا التّضعيف العظيم من أعداد الأجور يصحّ للمصلّي في اليوم واللّيلة، فما ظنُّك بصلاة شهر؟ وأيْنَكَ من صلاة سنة؟ وما أدراكَ من

(١٧) سورة الزَّلْزَلة: ٩٩/٧ـ ٨
(١٨) سورة النّساء: ٤/٤٩، وسورة الإسراء: ١٧/٧١
(١٩) سورة النّساء: ٤/١٢٤
(٢٠) سورة الطُّور: ٥٢/٢١
(٢١) سورة الكهف: ١٨/٤٩
(٢٢) سورة القمر: ٥٤/٥٢ـ ٥٣
(٢٣) طمّ على القريّ: غطّاه، وملأه؛ والقريّ: مجرى الماء إلى الرَّوْضَة.

صلاة العمر؟! فنسأل الّذي فلق الحبّة، وَبَرَأَ النَّسْمَة ومَنَّ على عباده المُغْرَقين في الذُّنوب بفرضها لتكفير سيئاتهم، وعلى المُوَفَّقين لرفع درجاتهم، أَنْ يُتِمَّ نعمته علينا بصحّة أدائها والاصطبار عليها بِمَنِّه وَطَوْلِهِ.

فصل

فتأمّل، رحمك الله، إلى هذه العبادة وما حَوَتْ من أسباب السّلامة، وتحصيل الدّرجات، والفوز بالمَثُوبات، حتى يتفطّن لمؤكّدات الكتاب والسّنّة في الحَضّ عليها والاعتبار بها في غير ما آية وَخبر.

أما الآيات فكقوله تعالى[٢٤]: ﴿إنَّ الصَّلاة كانَتْ عَلَى المُؤمنين كتاباً مَوْقوتاً﴾.

وقوله تعالى[٢٥]: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَواتِ والصَّلاةِ الوُسْطى وقُومُوا للهِ قَانِتِينَ﴾.

وقوله تعالى[٢٦]: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بالصَّلاَةِ واصطَبِرْ عَلَيْها﴾.

وقوله تعالى[٢٧]: ﴿إنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَىٰ عَنِ الفَحْشَاءِ والمُنْكَرِ﴾.

وقوله تعالى[٢٨]: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةِ طَرَفَي النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إنَّ الحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئات﴾. فذكر ذهاب السّيئات بإزاء ذكر الصلاة لأنه من أجلها وسببها.

وانظر كيف أكّد تعالى في أدائها حين خَفَّف من غيرها فقال[٢٩]:

(٢٤) سورة النّساء: ١٠٣/٤
(٢٥) سورة البقرة: ٢٣٨/٢
(٢٦) سورة طَه: ١٣٢/٢٠
(٢٧) سورة العنكبوت: ٤٥/٢٩
(٢٨) سورة هود: ١١٤/١١
(٢٩) سورة المزّمّل: ٢٠/٧٣

﴿فَاقْـرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيْمُوا الصَّلاَةَ﴾ وقـال تعـالى(٣٠): ﴿فإذْ لَمْ تَفْعَـلوا وتَـابَ الله عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاَة﴾.

ولو تتبعـت القرآن كـلّه لوجـدت هذه التشبيهـات في آي لا تحـصى عـدةً، ويـكفيك أن جعـلها الله تِلْوَ الايـمان: قـال تعـالى(٣١): ﴿إِنَّنِـي أَنَا الله لا إلَه إلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْـرِي﴾.

فـلم يـعطف على توحـيده إلا بالصـلاة، وقـال(٣٢): ﴿ الَّـذِينَ يُؤْمِنُـونَ بِالغَيْبِ وَيُقيمُـونَ الصَّلاَةَ﴾، وقـال(٣٣): ﴿مَنْ آمَنَ بِالله وَالْيَومِ الآخِرِ وأَقَـامَ الصَّلاَةَ﴾.

فحيث ما ذكر الإيمـان أردفه بهـا حـتى قـالوا: وإنـما سميت صـلاة لكونها تِلْوُ الإيمـان مأخـوذة من المُصَلِّي وهـو الفرس الذّي يـلي السّابـق من الحـلبة، لكون أَنـفه عند صَلَوي السّابق وهـما عِرقـان في الفَخـذِ.

فصـل

وأمّـا الأخبار فكـقوله صـلى الله عـليه وسـلم(٣٤): «أَوَّل ما يُنـظرُ فيه مِن عـمل العبدِ الصَّلاةُ، فإن قُبِـلت مِنـه نظر فيما بـقيَ مِن عَمَلِه، وإنْ لم تُقبـلْ منـه، لم يُنظـر في شيءٍ من عملِه». وقولـه(٣٥): «إنَّمـا مثلُ الصَّـلاةِ كمثـلِ

(٣٠) سورة المجـادلة: ١٣/٥٨

(٣١) سورة طـه: ١٤/٢٠

(٣٢) سورة البـقرة: ٣/٢

(٣٣) سورة التّوبـة: ١٨/٩

(٣٤) في المُوَطّأ (١٧٣/١): «عن مالك، عن يحيى بن سعيـد، أنّـه قـال: بـلغني أنّ أَوّل ما يُنْظَرُ فيه من عَمَلِ العَبد الصَّـلاة. فـإن قُبِلَت منه، نُظِر فيما بَقِيَ من عَمَلِهِ، وإن لم تُقْبَلْ منه، لم يُنْظَر في شيء من عمـله».

(٣٥) في الموطّأ (١٧٤/١): عن مـالك، أنّـه بلغه عن عامر بن سعد بن أبي وقّـاص، عن أبيه؛ أنّـه قـال: كان رجـلان أَخَوَان، فهَلَكَ أَحَدُهـما قَبْلَ صاحـبه بأربَعِـينَ ليلةً، فَذُكِرَتْ فضيلة الأَوّل عنـد رسـول الله صـلى الله عـليه وسلّم، فقـال: «ألـم يـكن الآخـر مُسـلماً؟» قـالوا: بـلىٰ يـا =

نَهرٍ غمرٍ عَذبٍ بباب أَحدكُم . . . » إلى قوله: «فإنَّكُمْ لا تَدرُون ما بلغتْ به صَلاتُه». وقوله صلّى الله عليه وسلّم: «خَمسُ صَلواتٍ كتبهنَّ الله تَعالى علىٰ العِبادِ. . . » إلى قوله: «كَانَ لَهُ عِند الله عَهد أن يُدخلُه الجنةَ. ومن لَم يَأتِ بهنَّ فَليس له عِند الله عَهدٌ» الحديث. وقوله عليه السّلام، في سؤال الله الملائكة، علىٰ جهة المُبَاهاةِ بالمُصَلِّين[٣٧]: «كيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي» الحديث. وقول عمر رضي الله عنه لعمّاله[٣٨]: «إنَّ أهمَّ أموركم عندي الصَّلاةُ، فَمن حَفظها وحافظ عليها حفِظه الله، ومن ضَيَّعها فَهو لما سواها أضيعُ».

فجعلها أهم الطاعات، وآكَدَ القربات.

ألا ترى حيث فُرِضَت بالملأ الأعلى بحضرة الملائكة المُكَرَّمين ومَشْهَدِ الرُّسُلِ الكرام، والسّادات الأعلام، كما تقدّم ذِكْرُهُ.

وكيف أَيْأَسَنَا من نسخها ونسخ بعضها، فقال[٣٩]: «هي خَمْسٌ، وَهِيَ خَمْسُون. لا يُبدَّلُ القَوْلُ لَدَيَّ». فعرفت أنها من الله صِدْقٌ؛ أيْ حَتْمٌ. وما عسىٰ أَن أُطيلَ في أَمر هو أظهر من أن يُحْتَاجَ فيه إلى تطويل، ولنكتفِ

= رسول الله، وكانَ لا بأسَ به، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: «وما يُدْرِيكم ما بَلَغَتْ به صَلاتُه؟ إنَّما مَثَلُ الصَّلاة كَمَثَلِ نهرٍ غَمْرٍ عَذْبٍ، بباب أحدكم، يقتحم فيه كلَّ يومٍ خَمْسَ مرّاتٍ، فما تَرَوْنَ ذلكَ يُبْقي من دَرَنه؟ فإنّكم لا تدرون ما بلغت به صَلاته».

(٣٦) في الموطّأ (١/١٢٣) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «خَمْسُ صَلَوَاتٍ كتبهنّ الله عزّ وجلّ على العباد؛ فمن جاء بهنّ، لم يُضَيِّعْ مِنْهُنَّ شيئاً، استخفافاً بحقّهنّ؛ كان لهُ عند الله عهدٌ أن يُدْخِلَهُ الجَنّة؛ ومَنْ لم يأتِ بهنّ، فليس له عند الله عَهْدٌ؛ إن شاء عذّبه، وإن شاء أدخله الجنّة».

(٣٧) انظر الحديث بتمامه في الحاشية (٨).

(٣٨) في الموطّأ (١/٦) عن مالك، عن نافع، مولى عبد الله بن عُمَرَ، أنّ عمر بن الخطاب كَتَبَ إلى عمّاله: إنَّ أهمّ أَمْركم عندي الصَّلاةُ. فَمَنْ حَفِظَهَا وحافَظَ عليها، حَفِظَ دِينَهُ؛ وَمَنْ ضَيَّعها فهو لما سِواها أضيع...» الحديث.

(٣٩) انظر الحاشية (١).

بقوله صلى الله عليه وسلم(٤٠): «أَرِحْنَا بِهَا يا بِلَالُ». يعني بالصلاة، وبقوله صلى الله عليه وسلم(٤١): «وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي في الصَّلَاةِ».

فصل

فتأمّل أيُّها العاقل الموفَّق لهذه العِلْقَة الثمينة، والأمانة المَصُونة، والحُظْوَة الضّمينة لك بالسَّلامة والعناية المكينة، وشُدَّ عليها كف الضَّنين(٤٢)، واحفظها حفظ المُؤْتَمَنِ الأمين، ذخيرةً ليوم الافتقار، وجُنّة(٤٣) بينك وبين النَّار.

فصل

لكن إياك أيّها المصلّي مع ما تقدّم لك أن يبسطك الرجاء بكثرة الأجور فتهوي بك في دَرَكَاتِ(٤٤) الغرور، وعالج هواك بأن تعلم أنّ حصول الفضل لا يصح إلا بأربعة شروط وهي:

العلمُ بتفاصيل أحكامها؛

والإخلاص في كل ظاهر منها وباطن لله تعالى؛

وحضور القلب عند أدائها في كل لحظة، لأنّهُ مالَكَ منها إلا ما عَقلت، كما جاءَ في الخبر(٤٥)؛

---

(٤٠) في مسند الإمام أحمد (٣٧١/٥) من حديث عليّ رضي الله عنه أنّه قال: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: قُمْ يا بلال فأرحنا بالصَّلَاة».

(٤١) في مسند الإمام أحمد (١٢٨/٣) من حديث أنس رضي الله عنه، أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: «حُبِّبَ إليَّ مِنَ الدُّنيا: النِّساء والطِّيب، وجعل قُرَّةعيني في الصلاة».

(٤٢) الضَّنين: البخيل.

(٤٣) الجُنَّة: كلّ ما يقي الإنسان، ويستُرُه.

(٤٤) الدَّرَكات: جمع الدَّرَكة، وهي المنزل من منازل جهنّم، بعكس الدَّرَجة التي هي المنزلة من منازل الجنّة.

(٤٥) في مسند الإمام أحمد (٢٠٤/٣) عن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم دَخَلَ المسجد فرأى حبلاً ممدوداً بين ساريتين... فقال: «لتصلّ ما عَقَلَتْ فَإِذَا غُلِبت فَلْتَنَمْ».

ورؤية التّقصير فيها بعد الفراغ منها.

كان الحسين بن علي؛ رضي الله عنهما؛ إذا توضّأ للصّلاة تغير لونه واضطربت فرائصه[٤٦]؛ فسئل عن ذلك فقال: أتدرون بين يَدَيْ مَنْ أُقف! أتدرون مَنْ أُخاطبُ؟!

فهذا هذا، وأنَّى لنا بذلك، ومن أين؟ وحسبُنا ما نعلم من تفريطنا وغَفلتنا. وإذا صحّت هذه، وقلَّ ما تصحّ، فالأمر بَعْدُ موقوفٌ على السَّابقة. ولا حولَ ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم.

﴿قُلْ بِفَضْلِ الله وبرحمته فَبِذٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾[٤٧].

فصل

وأما أنت أيها التاركُ البطّال المنهمك في غُلَوَاءِ التّعطيل، المرتبك[٤٨] في طَماعية الأمل المُخَيل[٤٩]، الذي يسمع الأذان في كلّ يوم وليلةٍ خمس مَرّات، وأنت وادعُ القَلب مُطمئنُّ الجوارح لا تصحوُ من سكرتك، ولا تتيقَّظُ من غامض غَفلتك، كأنَّك لم تُفْرَضْ عليك، وكأنَّ المطلوب بها غيرُك. ولتعلمْ أنّ كل ما سبق من أفراد العدد في الأعمال الصالحة المفروضة عليك مثلُ عَددها من الآثام في التَّرك، لكون جزاء السيئة بمثلها.

وأنت مع ذلك في دُنياك: أَبْطَشُ من عقاب[٥٠]! وأَحْذَرُ من

(٤٦) الفرائص: جمع الفريصة، وهي اللّحمة بين الجَنْبِ والكتف.
(٤٧) سورة يونس: ١٠/٥٨
(٤٨) رَبَكَ فلاناً: ألقاهُ في وحل فارتَبَكَ فيه واضطرب.
(٤٩) المُخِيل: المخادع؛ وأصله في السّحاب الذي تحسَبُه ماطراً فَيُخْلِف.
(٥٠) من أمثال العَرَب: «أبصر من عقاب» و«أبطش من دَوْسَر»، ودَوْسَر إحدى كتائب النعمان بن المنذر. (انظر جمهرة الأمثال ١/٢٣٩ و١/٢٥٣).

غُرَاب[٥١]! ذِئْبُ عَتمٍ، وضَبْعُ قَرِمٍ[٥٢]، جَمَّاعُ مَنَّاعُ، عِفْرِيةٌ نِفْرِيَةٌ[٥٣]، تنتهزُ الفُرْصــة، وتغتنــم من قمـامة أخيـك القَبْصَة[٥٤]، وتَخْدَع مَنْ سِواكَ ولو في نُفْثَةِ[٥٥] سِـواك، لتحـصل بها شَهـواتـك، وتُجاهر من يَطَّلع عليك في خـلواتـك.

كمـا قيـل[٥٦]:

مَا أَمْيَـلَ النَّـفْسَ إِلَىٰ البَاطِـلِ ... وأَهْـوَنَ الـدُّنْيَا عَلَى العَـاقِـلِ
تُرْضِي الفَتَـىٰ في عَاجِـلٍ شَهْوَةٌ ... لَـوْ خَسِـرَ الجَنَّـةَ في الآجِــلِ

فـإن ادَّعَيْتَ الجهـلَ بمـا يَلْزَمُكَ، فما أَعْلَمَـكَ بمـالا يَلْزَمُـك. وإلا فانظـر كـيف تُجْهِدُ أَيَّـامَكَ، وتـصرف غوائـلك، وتنـصب شَرَكَكَ وحبائِلَكَ لِتَصَيُّـدِ نَزْرٍ[٥٧] خـسيس، بخـبث مكائـد لا يتفـطن لها إبـليس.

يـا بـائس يـا فـقير، يـا دودةَ الحـرير، تَبْنِي على نفسـك سرادق[٥٨] نحـسك وبخـسك[٥٩]!

كمـا قيل[٦٠]:

(٥١) جمهـرة الأمثـال (١/٣٩٦).
(٥٢) القَرَم: شدّة الشهـوة إلى اللَّحـم.
(٥٣) يقـولون: عِفْرِيـةٌ نِفْرِيـةٌ، وعِفْرِيت نِفْرِيت، وعُفَـاريـةٌ نُفَـاريةٌ، وغير ذلك، وكـل ذلك على الإتـباع.
(٥٤) القبصة: ما تتناوَلُهُ بأطراف أصابعـكَ.
(٥٥) النُّفثـة: أراد النُّفَاثة، وهـي الشظيّة من السِّواك تـبقىٰ في الفـم فَتُنْفَث.
(٥٦) البيتـان من أوّل قـصيدة لأبي إسحـاق الإلبيري: (ديوانه: ٥٩)
(٥٧) النَّزْرُ: القـليل.
(٥٨) السُّرَادق: ما يُمَدُّ فوْقَ صحـن البيت، والبيتُ مِنَ القُطْن؛ وأراد بـه ما تنسجـه الدّودة على نفسهـا من خـيوط الحـرير، شبّه به ما يجنيه الإنـسان ويجمّعه من مـال ولا يُنْفِقُهُ، فهـو للوَرَثَةِ؛ كما أنَّ الدُّودة تجـمع الحـرير فيأتـي مَنْ يأخـذه.
(٥٩) البخـس: النَّقْصُ، والظُّلْمُ.
(٦٠) لم أعثـر عليه في مصادري.

تَجْمَعُ ما تَتْرُكُهُ حَسْرَةً لِوَارِثٍ أَوْ آمِلٍ أَمَّلَكْ
أَقْرَبُهُمْ مِنْكَ وَأَدْنَاهُمُ إِلَيْكَ مَنْ في حُفْرَةٍ أَنْزَلَكْ
وراحَ مِنْ قَبْرِكَ مُسْتَعْجِلاً فَتَّشَ مِنْ فَرْحَتِهِ مَنْزِلَكْ
وَحَلَّ ما أَخْفَيْتَ مِنْ عُقْدَةٍ كُنْتَ بَخِيلاً أَنْ يَرَاهَا مَلَكْ!

قال بِشر بن الحارث رحمةُ الله عليه[٦١]: «لابن آدم في ماله ثلاث حَسَرات؛ يجمعُه كُلَّه، ويَتْرُكه كُلَّه، ويُسْأَل عَنْه كُلّه!».

وكما قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في خطبة خطبها[٦٢]: «رفعتمُ الطِّين، ووضَعتُمُ الدِّين، وضَيَّعتم المساكين، وتشبَّهتم بالدَّهاقين، فأُلحقتم بالمَلاعين!».

أيُّها المُغَالِطُ لنفسه، المتغافل عن هَيْلِ التراب عليه في رِمْسِه، راجع بصيرتك، وسَدِّدْ نَحِيزَتَكَ[٦٣]، وقَدِّر أنك المطلوب وحدك.

قال الله تعالى[٦٤]: ﴿وكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَرْداً﴾ يا رَوَّاغُ[٦٥]، يا خَدَّاعُ ﴿لاَ وَزَرَ. إلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المُسْتَقَرُّ﴾[٦٦]. فافرغ إلىٰ عقلك من غَمَرَات[٦٧] حِسِّك، وصَيِّرْ يَوْمَكَ خيراً من أَمْسِك، حذارِ حذارِ فَجَأَكَ المَوْتُ، فَبَادِرْ إِلى التَّوْبَةِ قَبْلَ الفَوْت. جَعلنا الله وإيّاكم مِمَّن قالَ وفَعَلَ،

(٦١) بشر بن الحارث المشهور بالحافي، من الأئمّة الزّهّاد المتصوّفة المحدّثين، أخذ الحديث عن مالك وشريك وغيرهما، توفي سنة (٢٢٧). انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (١٠ - ٤٦٩) وانظر مصادر ترجمته ثمّة.
(٦٢) لم ترد في نهج البلاغة.
(٦٣) نحيزة الإنسان: طبيعته.
(٦٤) سورة مَرْيَم: ٩٥/١٩
(٦٥) الرَّوَّاغ: الثَّعْلَب.
(٦٦) سورة القيامة: ١١/٧٥ - ١٢
(٦٧) الغَمَرَات: جَمْعُ الغمرَة، وهي الشِّدَّة، والازدحام.

وأُمِرَ فامْتَثَل، بفضله بِمَنِّه، ولا جَعلنا ممّن يَرَىٰ القَذَىٰ في عَيْنِ أَخيه ولا يرىٰ الجِذْعَ في عينه[٦٨].

وبالله التوفيق وبه أستعين، وهو حسبُنا ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلَّى علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه وسلَّم تسليماً.

*** *** ***

كَمُلَ بحمد الله ومَنِّهِ وحُسْنِ تَوْفيقه، ووقع الفراغُ من تحريره على يَدِ الفقير إلى الله، الخاطىء المذنب، الراجي عفوَ ربه الكريم، إسحاق بن محمود بن بلكويه بن أبي الفيّاض الشَّابُرْخواستي البُرُجرديّ غَفَرَ الله له ولوالدَيْهِ ولجميع أمَّةِ محمَّد برحمته الواسعة.

وذلك في الخامس عشر من صفر، سنة ست وأربعين وستمائة، بالقاهرة المحروسة المُعِزِّيَّة.

والأصل الذي انْتُسِخَ منه كان مقابلاً بأصلِ المؤلِّف رحمة الله عليه.

والحمد لله وحده، وصلواته علىٰ نبيّه محمّد وآله وصحبه وعِترَتِهِ الطَّيِّبين الطَّاهرين.

*** *** ***

قال عبد الله الرّاجي رحمته ومغفرته: محمد رضوان بن أحمد بن عبد الرزاق بن أحمد الدّاية المكيّ أرومةً الدمشقي الصالحي أصلاً، الدُّومي ولادةً وإقامة.

نجز ـ بحمد الله وتوفيقه ـ النظر في كتاب تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء لأبي الحسن علي بن أحمد الأموي السبتي غُرّة يوم الثلاثاء،

(٦٨) مِن حديث في كشف الخفاء (٢/٥٤٣)، ونصُّه: «يُبْصِرَ أَحَدُكم القَذَى في عين أخيه، وينسى الجِذْعَ في عينه».

تاسع محرّم الحرام عام إحدى عشرة وأربع مئة وألف (١٤١١) من هجرة سيدنا ونبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم وزاده تشريفاً وتكريماً، الموافق الحادي والثلاثين من شهر تمّوز من عام تسعين وتسع مئة وألف ١٩٩٠ من مولد عيسى المسيح عليه السّلام .

كتب الله لي هذا الجهد في الأعمال المقبولة، وأجزل لي مثوبته ورضوانه بعفوه ومنّه، إنّه ذو الطَّول والفَضْل؛

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه .

والحمد لله رب العالمين

فهارس الكتاب

١ـ فهرس الآيات

رقم الآيـة الصفحة

سورة البقـرة (٢)

رقم الآية		الصفحة

سُورة آل عـمران (٣)

سورة النّساء(٤)

سورة المـائدة (٥)

سـورة الأنعـام (٦)

سورة الأعـراف (٧)

٢. فهرس الحديث

الصفحة

الصفحة

٣ ـ فهرس الشعر

٤ـ الأعلام

٥. فهرس موضوعات الكتاب

الصفحة

الصفحة

